

تفصيية أصول التاريخ الإسلامي

د. جعفر مرتضى



0893296



Bibliotheca Alexandrina

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تفتية أصول
التاريخ الإسلامي

دارالرشاد : الناشر
١٤ شارع جواد حسني، القاهرة : العنوان
٣٩٣٤٦٠٥٢٩٩٢٦١٥ : تليفون
٩٧/٣٥٣٨ : رقم الإيداع
٩٧٧ - ٥٣٢٤ - ٣٣ - ٥ : الترقيم الدولي
عربية للطباعة والنشر : طبع
١٠٧ ش.السلام، أرض اللواء، المهندسين : العنوان
٣٠٣١٠٤٣٢٣٦٠٩٨ : تليفون
آرس للكمبيوتر : مكتب الجمع
٣٢ ش. على عبد الطيف، مجلس الشعب : العنوان
٣٥٦٤٤٠٤ : تليفون
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة :
١٤١٧ هـ ١٩٩٧ م : الطبعة الأولى
محمد حمام : خطوط الغلاف
محمد فايد : تصميم الغلاف

تنقية أصول
التاريخ الإسلامي

د. حسين مؤنس





تقديم

من القواعد الأساسية التي نسير عليها في نشر الأصول القديمة احترام النص الذي ننشره كلمة كلمة؛ لأن هذه هي أصول تاريخنا وفكرنا . ولكنني لاحظت أن الكثير من مؤلفينا القدامى - رغم علمهم الواسع ووقوفهم على الأصول - لا يتميزون بذكاء قوى عربى ، فالطبرى - على علمه الواسع وعمله الكبير - ينفق نحو خمسين صفحة من تاريخه فى الكلام على إسماعيل وإسحاق ابْنَى إبراهيم وكلهم أنبياء ، ثم ينتهى بعد المناقشة الطويلة والروايات المتعددة إلى القول بأن إسحاق هو الذى بنى الكعبة مع إسماعيل أو أنه أفضل بنى إبراهيم . والطبرى لا يشعر هنا أنه يفضل اليهود علينا فى صراعنا الأبدى معهم . وحتى فى سيرة الرسول نجد أن حرفيه النقل عند بعض مؤرخي السيرة يجعلهم يروون أخباراً لا تليق ، وكان أحسن لو أنهم لم يرووها .

وهل هناك أغرب من الإصرار على أن رسول الله ﷺ تزوج عائشة - رضى الله عنها - عندما كانت سنها سبع سنوات ؟ ما معنى أن يتزوج النبي طفلة ؟ حقاً إنما لم يدخل بها إلا عندما كانت سنها تسع سنوات ، ولكنها كانت لا تزال طفلة . لقد

أثبتتنا نحن - جماعة من مؤرخي الإسلام - أن عائشة عندما تزوجت رسول الله كان عمرها تسعة عشر عاماً(*) ، وهذا هو المعقول المقبول .

هذا الكتاب يدقق البحث في روایات كتابنا القدامى ، ويقدم لك أمثلة كثيرة من الكلام المهنئ لنا الذي يأتوننا به ، ويؤكد لنا أننا ينبغي أن ننفّي أصولنا ، وأن تكون حذرين في قراءة أصولنا ، فإن الكثيرين من مؤلفينا القدامى يقعون في أخطاء كبيرة ، وهي ظاهرة الخطأ ، ولابد من إصلاحها . وهذه قاعدة أساسية ينبغي أن نسير عليها حتى نطمئن على صحة نصوصنا ، فإن الكتابة لا تحتاج فحسب إلى دقة ، بل هي تحتاج إلى ذكاء ، فأنا أقرأ الأصول بذكاء وأصححها . لا يمكن أن أنقلها كما هي ، كما سيري القارئ في الأمثلة التي سأضربها هنا في هذا الكتاب .

وسلام من الله على القراء . وفهم الله في مطالعهم العلمية ، ووهيهم الصحة والعافية .

الجمعة ٢٦ من يونيو ١٩٩٢

د . حسين مؤنس

(*) وهذا رأي الكاتب .

- ومعظم المصادر تذكر أنها ما بين تسعة وأحدى عشرة سنة (كما جاء في طبقات ابن سعد ، والإصابة لابن حجر العسقلاني ، والاستيعاب لابن عبد البر) .
(المصحح)

الفصل الأول

بحسن نية أساء إلينا القدماء

بسم الله الرحمن الرحيم

طبعاً ضايقتنى حكاية ما سمي بالأيات الشيطانية ، كما ضايقتنى غيري من المسلمين . وبداية ينبغي أن أقول : إنه لا يمكن أن يكون هناك شيء يسمى آيات شيطانية ؛ لأن الآيات لا يمكن أن تكون إلا إلهية ، أما الذين ابتكروا حكاية الآيات الشيطانية فهم الذين أرادوا أن يسيئوا إلى الإسلام ، فقالوا : إن هناك آيات وصلت إلى رسول الله ﷺ من الشيطان ، والذي ضايقنى أكثر هو أننا نحن أصل حكاية تلك الجمل التي وضعها الشيطان على لسان رسول الله ﷺ ؛ لكي يقول للناس : إنها أنته من الله سبحانه وتعالى ، لكي يرضى عنه المنكرون ، فقالها ثم نبهه جبريل إلى حقيقة الأمر فنفاه .

وأصل الحكاية موجود عند أبي جعفر الطبرى ، وإنها لمصيبة أن نجد أن معظم كبار مؤرخينا كانت فيهم سذاجة جعلتهم يحكون حكايات تمس الإسلام ، وقد فعلوا ذلك عن حسن نية أو عن فرط ثقة في الإسلام ، ولم يكونوا يتصورون

أنه سيجيء يوم يظهر فيه أعداء لدولون للإسلام من أمثال بعض المستشرقين يأخذون هذه الأخبار ويستعملونها؛ لكن يلحقوا بالإسلام أذى شديداً. وإليك القصة كما وردت عند الطبرى؛ لترى كيف كان هذا المؤرخ « عبيطاً » إلى درجة يتصور معها أن مثل هذا الخبر لا يمكن أن يضر الإسلام . قال أبو جعفر الطبرى (ج ٢ ص ٣٣٧ وما يليها) : « فكان رسول الله ﷺ حريصاً على صلاح قومه ، محبّاً مقاربتهم بما وجد إليه السبيل ، قد ذكر أنه تمنى السبيل إلى مقاربتهم ، فكان من أمره في ذلك ما حدثنا ابن حميد قال : حدثنا سلمة قال : حدثني محمد بن إسحاق عن يزيد بن زياد المدنى (أو المرى) عن محمد ابن كعب القرظى قال : لما رأى رسول الله ﷺ تولى قومه عنه ، وشق عليه ما يرى من مباعدتهم ما جاءهم به من الله تمنى في نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب « أو يقرب » بيته وبين قومه ، وكان يسره مع حبه قومه وحرصه عليهم أن يلين له بعض ما قد غلظ عليه من أمرهم حتى حدث بذلك نفسه وتمناه وأحبه ، فأنزل الله عليه ﷺ والنجم إذا هوى (١) ما ضل صاحبكم وما غوى (٢) وما ينطِقُ عن الهوى (٣) » فلما انتهى إلى قوله : ﴿ أَفَرَأَيْتُ الْأَلَّاتَ وَالْفُزُرَى (٤) وَمَنَّاةَ التَّالِثَةَ الْآخِرَى (٥) ﴾ (سورة النجم ١ / ٥٣ - ٢٠) ألقى الشيطان على لسانه - لما كان يحدث به نفسه ويتمنى أن يأتي به قومه : « تلك الغرانيق العلا ، وإن شفاعتهن لترتجى

بـه » . فلما سمعت بذلك قريش فرحا وسرهم وأعجبهم ما ذكر به آلهتهم فأصاخوا له - والمؤمنون يصدقون نبيهم فيما جاءهم به عن ربهم ولا يتهمونه على خطأ ولا وهم ولا زلل ، فلما انتهى إلى السجدة منها وختم السورة سجد فيها فسجد المسلمون لسجود نبيهم تصديقاً لما جاء به واتباعاً لأمره ، وسجد من في المسجد من المشركين من قريش وغيرهم ؛ لما سمعوا من ذكر آلهتهم ، فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر إلا وسجد إلا الوليد ابن المغيرة ؛ فإنه كان شيخاً كبيراً فلم يستطع السجود ، فأخذ في يده حفنة من البطحاء فسجد عليها ، تم تفرق الناس من المسجد وخرجت قريش وقد سرهم ما سمعوا من ذكر آلهتهم يقولون : قد ذكر محمد آلهتنا أحسن الذكر قد زعم فيما يتلو « أنها الغرانيق العلا وأن شفاعتهن لترتجى » وبلغت السجدة من بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ ، وقيل : أسلمت قريش ، فنهض منهم رجال وتخلّف آخرون . وأتى جبريل رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ما صنعت ؟ لقد تلّوت على الناس ما لم آتك به عن الله عز وجل ، وقلت ما لم يقل الله . فحزن رسول الله ﷺ عند ذلك حزناً شديداً ، وخاف من الله خوفاً كثيراً ، فأنزل الله عز وجل - وكان به رحيمـاً - يعزيه ويخفف عليه الأمر ويخبره أنه لم يكن قبلهنبي ولا رسول (إلا) تمنى كما تمنى وإلا أحب كما أحب إلا والشيطان قد ألقى في أمنيته كما ألقى على لسانه ﷺ فنسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم آياته ، أى

فَإِنَّمَا أَنْتَ كَبْعَضُ الْأَنْبِيَاءِ وَالرَّسُولُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيًّا إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَنْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ (سورة الحج ٥٢ / ٢٢)

فَأَذْهَبْ اللَّهُ عَنْ رَسُولِهِ الْحَزْنَ ، وَآمِنَّهُ مِنَ الَّذِي كَانَ يَخَافُ وَنَسَخَ مَا أَلْقَى الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِهِ مِنْ ذِكْرِ أَهْتَمُهُمْ : أَنَّهَا الْغَرَانِيقُ الْعَلَا ، وَأَنْ شَفَاعَتْهُنَّ لِتَرْتَجِي . بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى حِينَ ذِكْرِ الْلَّاتِ وَالْعَزِيزِ وَمَنَّاهُ الْثَالِثَةُ الْأُخْرَى ﴿١﴾ أَكُمُ الدَّكَرُ وَلَهُ الْأَنْثَى ﴿٢﴾ تِلْكَ إِذَا قَسْمَةً ضِيَّزَى ﴿٢٢﴾ أَيْ عَوْجَاءً ﴿٣﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَيَّتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿٤﴾ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴿٢٦﴾ (سورة النجم ٥٢ - ٢١ / ٢٦)

أَيْ : كَيْفَ تَنْفَعُ شَفَاعَةُ أَهْتَمُكُمْ عَنْدَهُ ! .

فَلَمَّا جَاءَ مِنَ اللَّهِ مَا نَسَخَ مَا أَلْقَى الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ قَالَتْ قَرِيشٌ : نَدْمُ مُحَمَّدٍ عَلَى مَا ذُكِرَ مِنْ مَنْزَلَةِ أَهْتَمُكُمْ عَنْدَ اللَّهِ فَغَيْرُ ذَلِكَ وَجَاءَ بِغَيْرِهِ . وَكَانَ ذَلِكَ الْحِرْفَانُ الْلَّذَانِ أَلْقَى الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ قَدْ وَقَعَا فِي فَمِ كُلِّ مُشْرِكٍ فَازْدَادُوا شَرًا إِلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ وَشَدَّةً عَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَاتَّبَعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْهُمْ ... » (الطَّبَرِيُّ تَارِيخُ / ٢ - ٣٢٨ - ٣٤٠) .

ولم يكتف الطبرى بذلك بل أورد نفس الحكاية فى تفسيره (ج ١٧ ص ١٣١ - ١٣٢ من طبعة بولاق) ثم رد نفس الخبر بصورة أخرى فى نفس تاريخه (ج ٢ / ٢٣٨ - ٢٣٩) أى أنه ما زال يقول ويعيد حتى يتصور الإنسان أن الأمر حدث كما روى . ومن الواضح أن فى الخبر مبالغة ، فليس هناك ما يمنع من أن يكون رسول الله ﷺ قد رجأ أن ينزل الله على لسانه شيئاً يقرب بينه وبين الكافرين ، وليس من الضروري أن يكون الرسول ﷺ قد فكر فى ذلك ، ولكن يستبعد أن يكون قد قال هاتين الجملتين ، بل يكفى أن تكونا قد خطرتا بباله فكان ذلك سبب تألم رسول الله ﷺ ، خاصة وأن الآية التى يقال : إنها أكدت ذلك وهى قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أَمْبِيَّهِ فَيَنْسَخَ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحَكِّمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (سورة الحج ٥٢ / ٢٢) لا يفهم منها أن الرسول ألقى شيئاً بسانه ، وقد يكون الكفار هم الذين اقترحوا ذلك وتمنى الرسول أن يرسل إليه ما يشبه ذلك حتى لا تشتد عداوة الكفار له وللمسلمين ، خاصة وأن الضعفاء منهم كانوا قد خرجوا إلى الحبشة . وكان رسول الله ﷺ يجتاز محنة كبرى ، ولعله تمنى أن يخفف الله عليه من وقعها ، ولكن تكرار الطبرى إياها وإصراره عليها أمر يدل على غفلة . أما ربط ذلك بعودة بعض مهاجري الحبشة ظناً منهم أن السلام قد

استقر بين رسول الله والكفار فليس ضروريًا أيضًا؛ فإن الكثيرين من مهاجرى المسلمين إلى الحبشة كانوا في حال سيئة جدًا هناك . والذى يهمنا هو أن الرسول ﷺ كان في ظروف سيئة جدًا ، وكان الكفار أقوىاء جدًا ، وكان المسلمون قلة ، ولكن الرسول ثبت وإن كان قد تمنى أن ينزل الله ما يمكن أن يخفف من ضغط الكفار على المسلمين ، وهذا طبيعي .

ولم يكن يخطر على بال أبي جعفر الطبرى أنه سيجيء اليوم الذى يوجد فيه أعداء للإسلام يقراءون كتابه بكل عناية باحثين عن براهين يؤكدون بها ما يزعمون من أن رسول الله قد ألف القرآن بنفسه - والعياذ بالله - وأن القرآن كله ليس من عند الله ، ولم يكونوا ليجدوا على زعمهم هذا دليلاً هوأنصع من هذا الذى أتاهم به الطبرى بصورة هي الغاية في الوضوح . وبالفعل نجد أن المستشرقين من أوائل هذا القرن يقفون أمام خبر الطبرى هذا ويتعلقون به ، ويعيدون ويزييدون زاعمين ما يريدون مما لا يمكن أن يكون صواباً كما رأينا . والسبب في ذلك هو أن النصارى ليس عندهم ما يشبه القرآن ، أى ليس بين أيديهم الكتاب الذي أوحاه الله إلى عيسى - عليه السلام - فقد ضاع الأصل بمضي الزمن ، ولم تبق إلا تلك الأخبار والكلمات الواردة عن عيسى - عليه السلام - في الأنجليل ، وهي في مجموعها - سواء في العهد القديم أو العهد الجديد - تشبه ما لدينا من الآثار والأحاديث النبوية ، ولا تزيد على ذلك .

وهذا الكلام هو الذى استند إليه ذلك الهندي الذى كان مسلماً، ثم كفر وألف تلك الرواية الهزيلة التى سماها « الآيات الشيطانية » وكل ما فيها هراء وعدوان على الإسلام ورسوله الكريم ، وقد فعل ذلك وهو يعرف أن المتعصبين من النصارى سيقبلون على مثل هذا الكلام وسيذيع كتابه ويكتب الآلوف ، أى أنه باع دينه بالمال . وعندما نشر هذا الكتاب لم يهتم به الناس لسخافته ، ولكن تصدى الخمينى له وحكمه بالإعدام على مؤلفه شهره وزاد إقبال الناس عليه . وتعلق أولئك الناس بالقول بأن كل كاتب حر فى أن يقول ما يريد ، وإذا أردت أن تنقض ما فيه فألف كتاباً فى ذلك ، وهذا طبعاً كلام فارغ ، ولكن الخمينى كان سبباً فى شهرة ذلك الرجل وذيوع كتابه ، فقد اشتهر الرجل وأصبح رمزاً على حرية الفكر ، وما هو فى الحقيقة إلا صعلوك شرير ، ولكننا نعيش فى عصر مضطرب حافل بالشروع ، والإسلام يخوض فيه معركة مع أعدائه ، ولكننا لا نستطيع أن نخوض هذه المعركة بالحكم على مثل هذا الرجل بالإعدام ، بل يكون الأمر بالعقل والهدوء حتى لا نعطي أعداء الإسلام سلاحاً فى يدهم .

المهم أنه لو لا أن الطبرى قد نشر هذا الخبر بذلك الإلحاح لما وجد أعداء الإسلام ذلك السبيل إلى النيل منه ، وقدرأينا أنه خبر ليس من الضروري أن يكون صحيحاً؛ فهو مليء بنواهى الضعف ، ولكن كان أحسن لو أن الطبرى لم ينشره ، خاصة

وهو ليس أساسياً بالنسبة للسيرة النبوية ، وهذا هو الذي أريد أن أقوله في هذه السلسلة من المقالات ، فإن كتبنا القديمة حافلة بأخبار مثل هذه تسمى إلينا ، ولست أريد بذلك أن نراجع هذه الكتب لنشطب منها هذه الأخبار والإشارات ؛ فليس من رأيي أن نمس النصوص ، بل يكفي أن نحذر من مثل هذا الخبر إذا نحن نشرنا الطبرى أو غيره ، ونؤكد للناس أنها أخبار غير صحيحة ، ونقدم لهم أسباب آرائنا ؛ لكنى نحمى الإسلام من أعدائه ؛ لأننا نعيش فى عصر خطر يتصارع فيه الإسلام مع أعدائه والقдامي كانت فيهم سذاجة وثقة في النفس يجعلهم يرددون كل ما يصل إليهم من الأخبار دون بعد نظر .

والطبرى نفسه يورد في تفسيره خبراً آخر ما كان أغناه عن ذكره ، ولكنه كان رجلاً راوية يروى ما يصله من الأخبار دون نظر إلى النتائج ودون أن يحقق ما يروى . والخبر خاص بزواج رسول الله ﷺ من زينب بنت جحش ابنة عمته ، ونحن نعرف أن أعداء الإسلام من المستشرقين وغيرهم لا يزالون يتحدثون عن زيجات الرسول ﷺ وكأنهم يرون في تعدد هذه الزيجات عيباً أو مأخذًا على الرسول ، ولا عيب هناك ولا مأخذ ؛ لأن رسول الله ﷺ والمسلمين من حوله كانوا يرون ألا ينبغي أن تتطل امرأة دون زواج صيانة لها ، فإذا بلغت البنت سن الرشد كان على الأب أن يبحث لها عن زوج ، ورسول الله ﷺ نفسه كان يكره أن تظل بناته دون زواج ، فعندما ترك المشركون بنات

الرسول - كان اثنان منهن قد خطبَتَا : رقية وأم كلثوم - تحدث الرسول إلى أبي بكر ثم عمر في زواج أم كلثوم ، فلما اعتذرا عرضها على عثمان فتزوجها ، وعندما ماتت أم كلثوم زوجة الرسول من ابنته الأخرى وهي رقية ، وعندما ترك عبيد الله بن جحش الإسلام في الحبشة تطلقت منه زوجته أم حبيبة بنت أبي سفيان : لأنه ترك الإسلام ، فكان الرسول ﷺ هو الذي تزوج أم حبيبة - تزوجها دون أن يراها ، إذ كانت هي في الحبشة وهو في مكة ، ولكن رسول الله ﷺ كره أن تتطل أم حبيبة دون زوج ، فكتب إلى النجاشي أن يكون وكيله في الزواج منها ، فتزوجها رسول الله بوكالة النجاشي . وهكذا كان الموضوع تقليداً اجتماعياً لا تظل المرأة في سن الزواج دون زوج ، وكانت هذه هي المشكلة التي جعلت رسول الله ﷺ يتزوج زينب بنت جحش وهي ابنة عمته ، وسألك بالخبر كما رواه الطبرى في تفسيره (ج ٢٢ ص ٢٠ - ٢١ من طبعة بولاق) لترى سذاجة الطبرى وكيف أنه أساء إلينا بالطريقة التي روی بها الخبر والأسلوب الذي حكاها به .

قال : حدثني يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب قال : قال ابن زيد : كان النبي ﷺ قد زوج زيد بن حارثة زينب بنت جحش ابنة عمته ، فخرج رسول الله ﷺ يوماً يريده ، وعلى الباب ستر من شعر ، فرفعت الريح الستر فانكشف وهي في حجرتها حاسرة ، فوقع إعجابها في قلب النبي ﷺ ، فلما وقع

ذلك كُرِهْتَ إِلَى الْآخِرِ ، قَالَ : فَجَاءَهُ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي أُرِيدُ
أَنْ أَفَارِقَ صَاحِبَتِي ، فَقَالَ : مَالِكٌ ؟ أَرَابِكَ مِنْهَا شَيْءٌ ؟ قَالَ : لَا
وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا رَابَنِي مِنْهَا شَيْءٌ وَلَا رَأَيْتَ ضَرَّاً ، فَقَالَ لَهُ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَمْسَكْتُ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقَ اللَّهَ ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ
وَجَلَّ : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسَكْتُ عَلَيْكَ
زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتَخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ ، أَيْ : تَخْفِي فِي
نَفْسِكَ أَنَّهُ إِنْ فَارَقَهَا هُوَ تَزَوَّجُهَا أَنْتَ .

وَبِقِيَةِ الْخَبْرِ مَعْرُوفَةٌ ، فَقَدْ طَلَقَ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ زَيْنَبَ بَنْتَ
جَحْشَ ، فَزَوَّجَهَا اللَّهُ سَبَّحَانَهُ مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنَ السَّمَاءِ . وَرَوْاْيَةُ
الْطَّبَرِيِّ لِلْخَبْرِ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ تَلَقَّى شَكًا كَبِيرًا عَلَى طَبِيعَةِ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . وَأَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ مَعْذُورُونَ إِذَا هُمْ رَأَوُا هَذِهِ قَصَّةَ
حُبٍّ ؛ لَأَنَّ اسْلُوبَ الطَّبَرِيِّ نَفْسَهُ مَفْضُوحٌ جَدًا ، وَكَانَهُ يَظْنُ حَقًا
أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ وَقَعَ فِي حُبِّ زَيْنَبَ بَنْتِ جَحْشٍ عِنْدَمَا رَأَاهَا
فِي ثَوْبٍ خَفِيفٍ فِي بَيْتِهَا فَمَالَتْ نَفْسُهُ إِلَى الزَّوْاجِ مِنْهَا ، فَزَالَ مِنْ
قَلْبِهَا كُلُّ حُبٍّ لِزَوْجَهَا زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ وَلَمْ يَعْدْ لَهُ مَفْرُ منْ طَلاقِهَا
ثُمَّ كَانَ اللَّهُ نَفْسَهُ هُوَ الَّذِي زَوَّجَهَا مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
وَالْقَصَّةُ تَخْتَلِفُ تَامًا عَمَّا ذَلَّكَ الطَّبَرِيُّ ، وَنَحْنُ نَخْطُئُ عِنْدَمَا
نَظَنَ أَنَّ الطَّبَرِيَّ وَأَمْثَالَهُ كَانُوا يَعْرِفُونَ مِنْ أَسْرَارِ تَارِيخِ الْإِسْلَامِ
مَا لَا نَعْرِفُ ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّنَا نَعْلَمُ . وَإِلَيْكَ الْقَصَّةُ كَمَا وَقَعَتْ ؟

لتعلم أن رسول الله ﷺ أبعد ما يكون عن مظنة الحب والجنس في هذه المناسبة .

فقد كانت زينب بنت جحش ابنة عمته ، وقد تربى معاً في بيت واحد ، فهو يعرفها تمام المعرفة ، ولم يكن بحاجة إلى أن يراها في ثوب خفي لكي يقع في حبها ، فإن زينب لم تكن جميلة ، ولم يكن في جسمها ما يفتن ، فقد كانت قصيرة القامة ، ثم إنها كانت مريضة ؛ فهى التي يقال : إنها كانت تستحاض ، ومعنى ذلك أن الدم يسيل منها دائماً لا في المناسبة الشهرية فحسب ... ولكنها كانت من بيت شريف ، فإن اختها حمنة تزوجت مصعب بن عمير الصحابي الشهير ، فلما قتل عنها يوم أحد تزوجت طلحة بن عبيد الله ، فولدت له محمداً وعمر ابني طلحة ، وكان رسول الله ﷺ يحب زيد بن حارثة مولاه ، ويريد أن يرفع مكانته ، فزوجه زينب بنت جحش ، فساءها ذلك ؛ لأنها مولى ، ثم إنه كان قبيح الوجه ؛ فقد كان شديد السمرة ، وكان أفطس الأنف ، وفوق ذلك كله كان مزواجاً لا يفتأ يتزوج ويطلق ، فنفرت منه زينب نفوراً شديداً ، وشكك ذلك إلى رسول الله ﷺ وأخذت تسيء معاملة زيد بن حارثة ، فكان يشكوا إلى رسول الله ﷺ ويقول له : إنني أريد طلاق زينب ، فيقول له رسول الله ﷺ : أمسك عليك زوجك واتق الله ، وأحس رسول الله ﷺ أن زينب ظلمت في هذا الزواج ؛ لأن زيد بن حارثة ليس لها باهل ، وتالم في نفسه ، ولكنه أخفى ما في نفسه ؛ لأنه كان يحب زيداً ، وكان بقية الصحابة لا يحبون زيد بن حارثة ؛ لأن

رسول الله ﷺ كان يحبه ويجعله على رأس القيادات العسكرية حتى ولاه قيادة ست سرايا متواالية، وأخيراً وجد رسول الله ﷺ أنه لم يعد هناك مفر من تطليق زيد من زينب ، وأنه لا يستطيع أن يستمر في كتمان ما في نفسه من هذه الناحية ، وأذنَ الله - سبحانه - له في أن يطلقها منه ، وتم ذلك ، وأراد الله - سبحانه - أن يعرض زينب عما لقيت من المهانة من زواجها من زيد ، فزوجها من رسول الله ﷺ؛ ليارتفاع مكانها ، وكانت زينب هي المرأة الوحيدة التي زوجها الله - سبحانه وتعالى - مباشرة من السماء دون عقد من بشر .

تلك هي القصة ، فلا حب هناك ولا فتنـة بجنس ، وإنما حكاية إنسانية عادية يشرف بها رسول الله ﷺ ولا تمسه إطلاقاً. ثم إن الرسول ﷺ بعد أن تزوج زينب لم يظهر نحوها أى ميل أو حب خاص ، إنما هي أسعدها أن ترتد إليها مكانتها ، فانصرفت إلى الإحسان وأعمال التقى ، وكانت تفخر على بقية زوجات الرسول ، وتقول : زوجنى الله من السماء . وأولم عليها رسول الله ﷺ بخبر ولحم ، وقال ابن سعد في طبقاته (٧٥/٨) : كانت زينب كثيرة الخير والصدقة ، ولما دخلت على رسول الله ﷺ كان اسمها برة ، فسمها زينب ، وتكلم المنافقون في ذلك ، وقالوا : إن محمداً يحرم نكاح نساء الأولاد ، وقد تزوج امرأة ابنه زيد ؛ لأنـه كان يقال له : زيد بن محمد ، قال الله تعالى : ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدًا أَبَا أَحَدًا مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ (الأحزاب ٤٠ / ٣٣) . وقال : ﴿أَدْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ .

الفصل الثاني

ابن هشام وما فعله بسيرة ابن إسحاق

في مقالنا الماضي رأيت كيف أن أصولنا القديمة تروى - بحسن نية - أخباراً تنسىء إلينا ، فقد رأيت كيف أن الطبرى يصور زواج رسول الله ﷺ من زينب بنت جحش على غير صورته الحقيقية ، وأن القارئ لنص حكاية زواجه من زينب بنت جحش في تفسيره للقرآن يحسب أن هناك ميلاً جسدياً ، وليس هناك أى ميل جسدي في هذه الحكاية كلها ، ولكن الطبرى كان رجلاً ساذجاً ، وكان لا يدقق فيما يروى ولا في الصورة التي يروى بها ، فكانت النتيجة أننا اليوم نجد المستشرقين يأخذون أخباره ويستعملونها في حربهم ضد الإسلام ورسوله ، كما رأينا في حكاية ما يسمى بالأيات الشيطانية .

ولا بد - إذن - أن نعيد النظر في أصول تاريخنا الإسلامي ، ونبه الآذان إلى ما يضرنا فيها ، ولست أقصد بذلك أن نشطب منها أخباراً ، فإننا لا أجزي المساس بالأصول ، بل أقصد أن ننبه إلى الخطأ فقط ، أما الأصول فلا يمسها أحد ، وسأضرب هنا مثلاً من أصول السيرة النبوية الشريفة .

مراجعنا عن السيرة كثيرة جداً ، ولكن أكبرها وأهمها
خمسة :

- أ - السيرة النبوية لمحمد بن إسحاق .
- ب - مغازي رسول الله لمحمد بن عمر الواقدي .
- ج - سيرة الرسول لابن سعد ، وهي الجزءان الأولان من طبقاته الكبرى .
- د - سيرة الرسول لموسى بن عقبة .
- ه - سيرة الرسول لعبد الله بن محمد الانصارى ، وقد ضاع هذا الكتاب ، ولكن ابن سعد احتفظ لنا بفقرات كثيرة منه .
ونكتفى هنا - على سبيل الاختصار - بالكلام عن ابن إسحاق .

ومن المعروف أن هذا الرجل هو من أعاظم مؤرخي السيرة ، وكتابه - حتى بعد تدخل ابن هشام فيه وإفساد نصه - ما زال من مراجعنا الأولى والرئيسية عن حياة الرسول ﷺ ، ولكن اسمع ما ي قوله عنه أبو الفرج محمد بن إسحاق بن التدييم في كتابه الأشهر : « الفهرست » (ص ١٣٦ من طبعة دار المعرفة في بيروت) : صاحب السيرة ، أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن يسار مطعون عليه غير مرضى الطريقة . يحكى أن أمير المدينة رقى إليه أن محمداً يغازل النساء ، فأمر بإحضاره ، وكانت له شعرة حسنة فوق رأسه (؟) فضربه أسواطاً ، ونهاه عن الجلوس في مؤخرة المسجد ، وكان حسن الوجه ، يروى عن

فاطمة بنت المذر زوجة هشام بن عروة (بن الزبير) فبلغ ذلك هشاماً فأنكره ، وقال : ومتى دخل إليها ؟ ومتى سمع منها ؟ ويقال : كان يعمل له الأشعار ويؤتى بها إليه ، ويسأل أن يدخلها في كتابه في السيرة فيفعل ، فضمن كتابه من الأشعار ما صار به فضيحة عند رواة الشعر ، وأخطأ في النسب الذي أورده في كتابه ، وكان يحمل عن اليهود والنصارى ويسميهم في كتابه أهل العلم الأول ، وأصحاب الحديث يضعفونه ويتهمنوه . وتوفي سنة خمسين ومائة وله من الكتب كتاب الخلفاء ، رواه عنه الأموي ، وكتاب السيرة ، والمبتدأ والمغازي ، رواه عنه ابن سعد والنفيلى ، واسم النفيلى محمد بن عبد الله ابن نمير النفيلى ، توفي سنة أربع وثلاثين ومائتين بحران ، ويكنى أبا عبد الرحمن .

فأنت ترى هنا أن محمد بن إسحاق بن النديم لم يقل كلمة خير واحدة في ابن إسحاق ، وهذا ظلم بَيِّنٌ ، فما كان الرجل بهذا السوء ، حَقًا كان له خصومه ، ولكنه من أوثق مؤرخينا وأولاهم بالتقدير . والحقيقة هي أن هؤلاء الماضين كان بعضهم يقع في بعض لأسباب شخصية وقليلة الأهمية ... وإليك طرفاً مما قاله فيه محققو سيرة ابن هشام المأخوذة عن ابن إسحاق - ثلاثة من أوثق علماء مصر هم : مصطفى السقا ، وإبراهيم الإبياري ، وعبد الحفيظ شلبي (سيرة ابن هشام ج ١ ص م وما بعدها) :

وقد ترك ابن إسحاق المدينة ورحل إلى غيرها متنقلًا في

أكثر من بلد . وفي ظلتنا أن رحلته إلى الإسكندرية التي كانت سنة ١١٥ هـ . هي أولى رحلاته التي بدأ بها . وفي الإسكندرية حدث عن جماعة من أهل مصر منهم عبيد الله بن المغيرة ، ويزيد ابن حبيب ، وثمامنة بن شفي ، وعبيد الله بن أبي جعفر ، والقاسم بن قزمان ، والسكن بن أبي كريمة . وانفرد ابن إسحاق برواية أحاديث عنهم لم يروها غيره . ثم كانت رحلته إلى الكوفة والجزيرة والری والحبیرة وبغداد ، وفي بغداد - على الأرجح - ألقى عصا التسيار ، وفيها لقى المنصور وصنف لابنه المهدی كتاب السیرة ، ورواة ابن إسحاق من هذه البلدان أكثر من رووا عنه من أهل المدينة ، بل المعروف أنه لم يرو له من أهل المدينة غير إبراهيم بن سعد ، وعاش في بغداد ما عاش حتى وافته منيته بها فدفن في مقبرة الخيزران .

إذن فالمسألة كلها هي أن هذا الرجل كان جميل الصورة عندما كان شاباً ، وكان له ولع بالنساء ، فأنكر عليه أهل المدينة ذلك ، بل أديبه واليها ، وهذا لا يمنع أن يكون - فيما بعد - عالماً عظيم القدر . وقد وقعت بينه وبين نفر من كبار أهل المدينة خلافات ، فأساءوا الحكم عليه لأسباب شخصية ، ومن هؤلاء مالك بن أنس الذي وقع في خلاف مع حاكم المدينة بسبب امرأة كان مالك يملكها فوضع حاكم المدينة يده عليها ؛ لأنه تبين أنها ليست ملكه ، ووقف محمد بن إسحاق إلى جوار عامل المدينة وحمل على مالك بن أنس ، فكرهه مالك وحمل عليه ، وكذلك

كرهه هشام بن عروة بن الزبير غيرة منه على امرأته ، والنتيجة أن هذين العالمين يكادان يخرجانه من حظيرة المحدثين أهل الصدق والثقة ، ولا يدخلان وسعاً في اتهامه بالكذب والدجل ، وذلك إلى اتهامات أخرى رمى بها ابن إسحاق كالتدليس ، والقول بالقدر ، والتسيع ، والنقل عن غير الثقات ، وصنع الشعر ووضعه في كتابه ، وأخطاء في الأنساب ، كما أنك تجد غير واحد من أئمة الأعلام كابن شهاب الزهرى وشعبة والثورى وزيد البكائى - يوثقونه ولا يتهمونه بشيء من هذا .

والحقيقة أن حملة الحاملين على ابن إسحاق لم تكن مبرأة عن الغاية ، ولم تكن من الحق في شيء ، فإننا نعلم أن ابن إسحاق كان يطعن في نسب مالك بن أنس وفي علمه ، ويقول : أئتونى ببعض كتبه حتى أبين عيوبه فانا بيطار كتبه ، فأنبرى له مالك ، وفتتش هو الآخر عن عيوبه ، وسماه دجالاً ، وكانت بينهما هذه الحرب الكلامية (مقدمة سيرة ابن هشام ص ت) .

وكذلك كان هشام بن عروة بن الزبير . يقول ابن إسحاق : إنه كان يروى أخباراً عن زوجة هشام ، وكان هشام ينكر أن يكون ابن إسحاق قد رأى امرأته ، وكان هشام ضئيناً على امرأته أن يراها ابن إسحاق ، أو أن ابن إسحاق حمل عنها صغيراً ، ومن الممكن أن يكون ابن إسحاق قد روى عن امرأة هشام من وراء حجاب ، ثم إن هشاماً ما كان له أن يغار من ابن إسحاق ؛ فقد كانت سنهما حين كان من الممكن أن يروى عنها

حوالى الخمسين سنة ، فهى أكبر منه بسبعة وثلاثين عاماً ، ثم إنه لم يكن غريباً فى ذلك العصر أن يرى رجل عن امرأة . وقد أثنى على ابن إسحق الخطيب البغدادي فى تاريخ بغداد ، وابن سيد الناس فى كتابه « عيون الآخر » وهو سيرة نبوية موثوق فيها ، وهى مروية عن ابن إسحاق عن غير طريق زياد البكائى . وهو الذى أخذ ابن هشام بروايته عندما أعاد كتابة سيرة ابن إسحاق . وابن سيد الناس بالذات يثنى على ابن إسحاق ثناء عظيمأ ، ويفند المطاعن التى رمى بها ، وينفى عنه التدليس .

وقد أتت هذه المطاعن على أصحاب الأصول ومولفاتها من تقليد جرى عليه الماضيون يسمى الجرح والتعديل ، ويراد بالجرح بيان العيوب ، أما التعديل فيراد به المديح ، وكانت فيما قسوة فى الجرح والنقد ، وما من عالم مسلم إلا قرأتنا فيه قدحاً مقدعاً من خصومه وأعدائه ، فهم لم يكونوا نقاداً بالمعنى الصحيح ، وإنما كان فيهم عنف وقسوة ، وعندما تقرأ ما يقوله ابن حجر العسقلانى مثلاً فى غيره من العلماء تدهش لتلك القسوة وهذا العنف ، ونحن اليوم ننقد الكتب وأصحابها ، ولكن فى أدب واعتدا ، أما اتهام الناس بالكذب والتدليس فامر لا يليق ولا يصح ، وخير لنا أن نقرأ الناس ونحكم عليهم بما نرى ، أما الجرح والتعديل بالصورة التقليدية فى تاريخنا فلم يأتنا منها إلا الضرر .

والذى نراه نحن فى ابن إسحاق أنه كان رجلاً فاضلاً

ومؤرخاً موهوباً ، وهذا لا يمنع من أن يكون قد وقع في أخطاء ، وكل الناس يقعون في أخطاء ، وكل خطأ يمكن إصلاحه ، ويا ليتنا وجدنا نص ابن إسحاق كما كتبه هو . إذن لكان لدinya سيرة نبوية ممتازة تشبه ما لدينا من مغازي الواقدي .

أما الأمر الجسيم حقاً فهو ما فعله ابن هشام في سيرة ابن إسحاق ، فقد كان أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري فقيهاً مصرياً من أوائل القرن الثالث الهجري ، ويحدثنا الرواية أن ابن هشام كان من أصل يمني أو كان من غافر أو من سدوس ، وقد ولد بالبصرة ثم هاجر إلى مصر ، ولا نعلم متى ولد الرجل بالضبط ، فقد نشأ من أصل خامل ، ولكنه توفي في مصر سنة ٢١٨ أو ٢١٣ هـ . وقد أصبح ابن هشام في مصر عالماً عظيماً ، ويقال : إنه لقى الشافعى وتناشدا الأشعار . وقد ظهر أمره في اللغة والأدب والفقه والتاريخ ، وله مؤلفات أخرى كثيرة غير سيرة النبي ﷺ ، ولكن سيرته هي التي جعلت له اسمَاً وشهرة ، ويبدو أن الكثريين لم يكونوا مستريحين لسيرة ابن إسحاق ، فغلب الاعتماد عند المؤرخين على سيرة ابن هشام حتى خمل أمر سيرة ابن إسحاق ، وقللت نسخها ، وهذا هو السبب في أن سيرة ابن إسحاق اختفت تقريباً ، ولم يبق إلا سيرة ابن هشام ، ومن سوء الحظ أنه عندما تناول سيرة ابن إسحاق وأعاد كتابتها تصرف فيها على هواه ، فشطب ، وأضاف ، واختصر ، وأننا بسيرة أخرى ، وهذا أمر يؤسف له

حَقّاً، وفيما يلى سأريك بكلامه نفسه عما فعل؛ لتقف عليه بنفسك : «وَأَنَا – إِن شاءَ اللَّهُ – مُبْتَدِئُ هَذَا الْكِتَابَ بِذِكْرِ إِسْمَاعِيلَ ابْنَ إِبْرَاهِيمَ، وَمِنْ وَلَدِ رَسُولِ اللَّهِ مِنْ وَلَدِهِ، وَأَوْلَادِهِ لِأَصْلَابِهِمْ، الْأُولُّ مَنْ إِسْمَاعِيلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ وَمَا يُعْرَضُ مِنْ حَدِيثِهِمْ، وَتَارِكُ ذِكْرِ غَيْرِهِمْ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ عَلَى هَذِهِ الْجَهَةِ لِلاختِصارِ، وَتَارِكُ إِلَى حَدِيثِ سِيرَةِ رَسُولِ اللَّهِ بَعْضَ مَا يَذْكُرُهُ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي هَذَا الْكِتَابَ مَا لَيْسَ لِرَسُولِ اللَّهِ فِيهِ ذِكْرٌ وَلَا نَزَلَ فِيهِ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْءٌ، وَلَيْسَ سَبَبًا لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ، وَلَا تَفْسِيرًا لَهُ، وَلَا شَاهِدًا عَلَيْهِ، لَمَّا ذَكَرْتَ مِنْ الْخَتِصارِ، أَوْ أَشْعَارًا ذَكَرْهَا لَمْ أَرْ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالشِّعْرِ يَعْرِفُهَا، وَأَشْيَاءَ بَعْضُهَا يَشْفَعُ الْحَدِيثَ بِهِ، وَبَعْضُ يَسْوَعُ بَعْضَ النَّاسِ ذِكْرَهُ . وَبَعْضُ لَمْ يَقْرَأْ لَنَا الْبَكَائِي بِرَوَايَتِهِ، وَمُسْتَقْصٍ – إِنْ شاءَ اللَّهُ – فِي مَقَالَى مَا سَوَى ذَلِكَ مِنْهُ بِمَبْلَغِ الرِّوَايَةِ لَهُ وَالْعِلْمِ بِهِ» . وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ ابْنَ هَشَامَ تَصْرِيفُ فِي سِيرَةِ ابْنِ إِسْحَاقِ عَلَى هَوَاهُ، فَقَدْ أَخَذَ الْقَاعِدَةَ وَالْأَسَاسَ، ثُمَّ مَضَى يَذْكُرُ مِنَ الْأَخْبَارِ مَا يَرْضَى عَنْهُ، وَيُسْتَبْعَدُ مَا لَا يَرْضَى عَنْهُ، وَإِذْنَ فَنَحْنُ أَمَامُ سِيرَةِ أُخْرَى مِنْ صَنْعِ ابْنِ هَشَامَ .

وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَجْعَلُنَا نُشكُ فِي مَعْظَمِ مَا يَرْوِيهِ ابْنُ هَشَامَ ، وَإِنْ كَنَا لَا نُسْتَطِيعُ رَفْضَهُ كُلَّهُ ، وَلَقَدْ كَانَ ابْنُ إِسْحَاقَ عَالِمًا بِالسِّيرَةِ حَقّاً، وَكَنَا نَتَمَنِي لَوْ وَصَلَّتْنَا سِيرَتَهُ كَمَا كَتَبَهَا كَمَا أَخَذَهَا مِنَ الْأَصْوَلِ ، أَمَّا ابْنُ هَشَامَ فَقَدْ رَوَى بِحَسْبِ مَرْاجِهِ وَمَا

رأى ، وهذه نقطة ضعف كبيرة ، وهى التى تجعلنا نرى أن السيرة التى يقدمها لنا ابن سعد فى كتاب الطبقات نقاً عن الواقعى أولى بالثقة ؛ لأن الواقعى كان مؤرخاً صادقاً دقيقاً ، وقد وصل إلينا كتابه الأشهر « مغازي رسول الله ﷺ » كاماً وحققه المستشرق الأمريكى مارسون جونز تحقيقاً جيداً ، ونحن نجد فى كتاب المغازي من الحقائق عن حياة رسول الله ﷺ وأعماله ما لا نجده عند غيره ، ومن ثم فإننا نرى أن كل المحدثين الذين اعتمدوا على ابن هشام وحده دون الرجوع إلى الطبرى وابن سعد والواقعى لا يروون لنا سيرة نبوية جديرة بالاحترام الذى ينبغى لسيرة رسول الله ﷺ ، وهذا يصدق على كل ما كتب فى السيرة باقلام رجال من أمثال طه حسين والعقاد ومن جاء بعدهما ؛ فهى فى الحقيقة أدب وليس تاريخاً . والحقيقة هى أن سيرة ابن هشام - كما صنعتها من سيرة ابن إسحاق - تحتاج من يستعملها إلى التأني والتفكير ؛ لأننا لا نطمئن إلى ما يرويه علينا ، وسيرة رسول الله ﷺ أعز علينا من أن نعتمد فى أصولها على ما كتبه رجل كان يتصرف على هواه . ولكل اصور لك بعد سيرة ابن هشام عن الحقيقة أذكر هنا ما يرويه عن فتح رسول الله ﷺ مكة ، وكيف أنه يجعل العباس ابن عبد المطلب من كبار شخصيات هذا الفتح ، ويزعم أن العباس كان قد أسلم قبل الفتح بزمن طويل ، وأنه أقام فى مكة ؛ لكنى يبلغ رسول الله ﷺ ما كانت تفعله قريش ، وكيف أنه

خرج يستقبل جيش الرسول وتوسط لأبي سفيان ، ولو لا توسطه لقتله المسلمين ، وهذا كله غير صحيح ، وهو إضافة مصطنعة من الإدارة العباسية ، ومن المعروف أن ابن إسحاق وابن هشام كلّيهما كتابا في ظلها ، وقد تولت الإدارة العباسية صياغة سيرة الرسول ﷺ على نحو يجعل العباس يبدو كأنه كان من كبار المؤمنين ؛ لأن في ذلك تأييداً لبني العباس وادعائهم بأنهم أحق بالخلافة من على بن أبي طالب وأولاده . وسأريك هنا بما يقوله ابن هشام في هذه المناسبة وأناقشه . قال ابن هشام (السيرة ج ٤ ص ٤٢) : كان العباس بن عبد المطلب قد لقي رسول الله ﷺ ببعض الطريق . قال ابن هشام : لقيه بالجففة مهاجرًا بعياله ، وقد كان قبل ذلك مقيناً بمكة على سقايته ورسول الله ﷺ عنه راض فيما ذكر ابن شهاب الزهرى . قال ابن إسحاق : وكان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أمية بن المغيرة قد لقيا رسول الله ﷺ أيضاً بنيق العقاب فيما بين مكة والمدينة ، فالتمسا الدخول عليه فكلمته أم سلمة فيهما فقالت : يا رسول الله ، ابن عمك وابن عمتك وصهرك ، قال : لا حاجة لي بهما : أما ابن عمى فهتك عرضى ، وأما ابن عمى وصهرى فهو الذي قال في بمكة ما قال . قال : فلما خرج الخبر إليهما بذلك ومع أبي سفيان بنى له فقال : والله ليأذن لي أو لاخذن بيدي ببني هذا ولنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً ، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ

رق إليهما ، ثم أذن لهما فدخلوا عليه فأسلموا ، وأنشد أبوسفيان ابن الحارث قوله في إسلامه فلما نزل رسول الله ﷺ من الظهران قال العباس بن عبد المطلب : واصباح قريش ! والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنه هلاك قريش إلى آخر الدهر . قال : فجلست على بغلة رسول الله ﷺ فخرجت عليها حتى جئت الأراك ، فقلت : لعلى أحد بعض الطابة أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتي مكة فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ ليخرجوا إليه ؛ ليستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة ، فقال : والله إنني لأسيير عليها وألتمس ما خرجت له إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان وأبو سفيان يقول : ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسراً .

قال : يقول بديل : هذه والله خزاعة حمشتها (أي أحقرتها وقد تكون حمشتها) قال : يقول أبوسفيان : خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكتها . قال : فعرفت صوته فقلت : يا أبي حنظلة ! فعرف صوتي وقال : أبو الفضل ؟ قال قلت : نعم . قال : مالك ؟ فداك أبي وأمي ! قال : ويحك يا أبي سفيان ! هذا رسول الله ﷺ في الناس واصباح قريش والله ! قال : ما الحيلة فداك أبي وأمي ؟ قال : قلت : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتني بك رسول الله ﷺ فأستأمنه لك ، قال : فركب خلفي ورجع أصحابه . قال : فجئت به كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا : من هذا ؟ فإذا رأوا

بغلة رسول الله ﷺ وأننا عليها قالوا : عم رسول الله ﷺ على بغلته ، حتى مررت بثار عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فقال : من هذا ؟ وقام إلى ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال : أبو سفيان عدو الله ؟ الحمد لله الذي أمكنني منك بغير عقد ولا عهد ، ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ وركضت البغلة فسبقته بما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء قال : فاقتحمت عن البغلة فدخلت على رسول الله ﷺ ودخل عليه عمر قال : يا رسول الله ، هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه فدعني فلأضرب عنقه ، قال : قلت : يا رسول إبني قد أجرته ، ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه وقلت : والله لا ينادييه الليلة دوني رجل ، فلما أكثر عمر في شأنه قال : قلت : مهلاً يا عمر ! فوالله أن لو كان من بني عدي بن كعب ما قلت هذا ، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف .

★ ★ ★

الفصل الثالث

ابن هشام، وماذا فعل بنص ابن إسحاق؟

أواصل هنا خبر ابن هشام الذي بدأته في مقالى الماضى ، ثم أناقشه بعد ذلك « فقال : مهلاً يا عباس ، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلى من إسلام الخطاب لو أسلم ، وما بي إلا أنى عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم ، فقال رسول الله ﷺ : اذهب به يا عباس إلى رحلك ، فإذا أصبحت فاتنى به ، قال : فذهبت به إلى رحلى ، فباتت عندي ، فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله ﷺ ، فلما رأه رسول الله ﷺ قال : ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ قال ببابى أنت وأمي ! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! والله لقد ظلنت لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عنى شيئاً بعد ! قال : ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ قال : ببابى أنت وأمي ! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً ! فقال العباس : ويحك ! أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تُصرِّب عنقك ، قال : فشهد شهادة الحق فأسلم ، فقال العباس : يارسول

الله ، إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر فاجعل له شيئاً ! . قال :
نعم ! من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو
آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، فلما ذهب لينصرف قال رسول
الله ﷺ : يا عباس ، احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل
(خطم الجبل : شيء يخرج منه مضيق به الطريق) حتى تمر
به جنود الله فيراها . قال : فخرجت حتى حبسته بمضيق
الوادي حيث أمرني رسول الله ﷺ أن أحبسه .

قال : ومرت القبائل على راياتها ، كلما مرت قبيلة قال : يا
 Abbas ، من هذه ؟ فأقول : سليم . فيقول : مالى ولسليم ! ثم تمر
القبيلة فيقول : يا Abbas ، من هؤلاء ؟ فأقول : مزيينة ، فيقول :
مالى ولمزيينة ! حتى نفدت القبائل ، ما تمر قبيلة إلا يسألنى
عنها ، فإذا أخبرته قال : مالى ولبني فلان ، حتى مر رسول الله
ﷺ في كتبته الخضراء . قال ابن هشام : وإنما قيل لها
الخضراء لكثرة الحديد وظهوره فيها .. وقال حسان بن ثابت
الأنصاري .

لما رأى بدرًا تسيل جلاهه بكتيبة خضراء من بلخزرج
قال ابن إسحاق : فيها (أي في كتبة الرسول ﷺ)
المهاجرون والأنصار - رضي الله عنهم - لا يرى منهم إلا الحدق
من الحديد) قال : سبحان الله يا Abbas ! من هؤلاء ؟ قال : قلت:
هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار ، فقال : ما لأحد
بهؤلاء قبل ولا طاقة ، والله يا أبو الفضل لقد أصبح ملك ابن

أخيك الغداة عظيماً ، قال : قلت : يا أبا سفيان ، إنها النبوة ،
قال: فنعم إذن .

قال : قلت : النجاء إلى قومك (أى السرعة إلى قومك) حتى
إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته : يا معاشر قريش ، هذا محمد قد
جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ،
فقمت إليه هند بنت عتبة ، فأخذت بشاربه فقالت : اقتلوا
الحميت الوسيم الأحمر (أى الرجل السمين الأحمر الوجه) فُقِيَّ
من طليعة قوم ، قال : ويلكم ! لا تغرنكم هذه عن أنفسكم ، فإنه
قد جاءكم ما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن .
قالوا : قاتلك الله ، وما تغنى عنك دارك . قال : ومن أغلق عليه
بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، فتفرق الناس إلى
دورهم وإلى المسجد)١(.

وإذا نحن تمعناً في هذا الخبر كله وجدنا أنه لا يستقيم ،
وتبيّن لنا أن الهدف منه هو الارتفاع بمكانة العباس وتصويره
على أنه كان من خيرة المسلمين في أيام الرسول ﷺ ، وهذا غير
صحيح ، فكلنا نعلم أن العباس ظل على دينه المشرك حتى فتح
مكة ، وليس لدينا برهان واحد على صحة ما يقال من أنه أسلم
في مكة سراً ، وظل فيها يبلغ الرسول بأخبار قريش ، والخبر
هنا يقول : إن العباس خرج يستقبل الرسول عند دخوله مكة ،

(١) هذه نهاية الكلام الذي نقله المؤلف من كلام ابن هشام المبدوع في س ٨
ص ٢٨ .

ويفهم منه أن العباس كان يعلم عن المسلمين كل شيء ، كأنه كان واحداً منهم من زمن طويل ، وهو يتحدث إلى الرسول حديث المقرب منه العارف بكل شئونه ، حتى إن الرسول يأمره بأن يقف بأبي سفيان عند مضيق في الجبل حتى إذا مرت فرق جيش المسلمين قام بتعريفه بها ، والخبر يرينا أنه كان بالفعل يعرفها ، فمن أين - إذن - كان قد انضم إلى المسلمين عند دخولهم مكة ، وفي نفس الوقت الذي انضم أبو سفيان إليهم فيه ؟ .

والخبر يصوره على أنه هو الذي أنقذ أبا سفيان من الموت على يد عمر أو أى رجل آخر من المسلمين . هذا كله غير صحيح، بل الصحيح الذي نفهمه من الروايات أن أبا سفيان هو صاحب الفضل الأكبر في إنقاذ قريش ، فهو عندما ذهب إلى المدينة أجear لنفسه بين الناس . والرسول ﷺ أقر هذا الجوار ، وحيث إنه كان ممثلاً لمكة فإنه أصبح من المفهوم أن مكة أصبحت مدينة مفتوحة ، وهذا هو السبب في سلامتها ، فقد أمر الرسول رجاله أن يدخلوا مكة دخول سلام ، فلم يحدث قتال إلا في الجنوب حيث دخل خالد بن الوليد ؛ لأن خزاعة كانت متورة ، فهاجمت قريشاً وقتل ناساً ، ولكن رسول الله أوقف القتال ، وأقر الناس على السلام مع أهل مكة ، بل شاء كرمه إلا أن يعبر عن تقديره لأبي سفيان فقال : إن من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، وهو تكريم ظاهري ؛ لأن من دخل دار نفسه أيضاً كان آمناً . وبلغ من توقف الناس عن السلب والنهب أن أحداً لم يفقد شيئاً

إلا ابنة لأبي بكر ، ثم إن الرسول استسالف مالا من بعض كبار الكفار لكي يعطى جنده ، وقد رد هذا المال فيما بعد .

إذن فهذا الخبر كله موضوع ، وقد وضعه وأدخله في السيرة رجال بنى العباس ؛ لكي يعظموا أمر أنفسهم ، ولكي ينالوا من بنى أمية .

وهذه أخبار موضوعة في السيرة نفسها ، فعليينا أن نكون أيقاظاً ونحن نقرأ حتى لا يدخل علينا هذا الزيف . ولو أننا أعدنا طبع سيرة ابن هشام فإن علينا أن نتبه إلى ذلك في المقدمة وفي التعليقات حتى يتتبه الناس إلى هذه الزيادات التي تشوّه تصورنا للكثير من فقرات السيرة . وجدير بالذكر أن السيرة التي كتبها ابن سعد في الجزأين الأولين من الطبقات تخلو - إلى حد ما - من معظم هذا التزييف .

فإذا انتقلنا إلى ما بعد العصر النبوى ، وهو عندنا يمتد إلى نهاية خلافة عمر ؛ لأن عصر أبي بكر وعمر يدخل ضمن العصر النبوى ، فقد سارا على الخط النبوى ، وفي خلافة عثمان تبدأ الفتنة الكبرى ، وهنا نجد أنفسنا أمام صور من التزييف يدهش الإنسان لقبول الماضين لها . خذ مثلاً حكاية عبد الله بن سبا المسمى أيضاً بابن السوداء ، ويقصها علينا الطبرى وغيره فى تواريختهم مع ظهور زيفها ، يقول الطبرى تحت عنوان : ذكر مسیر من سار إلى ذى خشب من أهل مصر وسبب مسیر من سار إلى ذى المروة من أهل العراق .. فيما كتب به إلى السرى ،

عن شعيب عن سيف ، عن عطية عن يزيد الفقوعي ، قال : كان عبد الله بن سباً يهودياً من أهل صنعاء ، أمه سوداء ، فأسلما زمان عثمان ثم تنقل في بلاد المسلمين يريد ضلالتهم ، فبدأ بالحجاز ثم البصرة ، ثم الكوفة ، ثم الشام ، فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام ، فاخروه حتى أتى مصر ، فاعتبر فيهم .

فقال لهم فيما يقول : لعجب (وعند ابن الأثير والنويري) العجب من يزعم أن عيسى يرجع ويكتب بأن محمداً يرجع ، وقد قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأَدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُرِّبَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٨٥) .
(سورة القصص / ٢٨ / ٨٥)

محمد أحق بالرجوع من عيسى ، قال : فقبل ذلك عنه ، ووضع لهم الرجعة فتكلموا فيها ، ثم قال لهم بعد ذلك : إنه كان هناك ألفنبي ولكلنبي وصي ، وكان على وصي محمد ، ثم قال : محمد خاتم الأنبياء ، على خاتم الأووصياء ، ثم قال بعد ذلك : من أظلم من لم يجز وصي رسول الله ﷺ ووتب على وصي رسول الله ﷺ وتناول أمر الأمة ! ثم قال لهم بعد ذلك : إن عثمان أخذها بغير حق ، وهذا وصي رسول الله ﷺ فانهضوا في هذا الأمر فحرکوه ، وابدوا بالطعن على أمرائكم ، وأظهروا الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر تستمیلوا الناس ، وادعوهم إلى هذا الأمر ، فبث دعاته وكاتب من كان في الأمسار وكاتبواه ، ودعوا في السر إلى ما كان عليه رأيهم وأنظروا الأمر بالمعرفة والنهي عن المنكر ، وجعلوا يكتبون إلى الأمسار بكتب يضعونها في عيوب ولاتهم ، ويكاتبهم إخوانهم بمثل ذلك ، ويكتب أهل كل مصر منهم إلى مصر آخر بما يصنعون ، فيقرؤه أولئك في أمصارهم ، وهؤلاء في أمصارهم ، وهؤلاء في أمصارهم حتى تناولوا بذلك المدينة ، وأوسعوا الأرض إذاعة ، وهم يريدون غير ما يظهرون ، ويسيرون غير ما يبدون ، فيقول أهل كل مصر : إنما لففي عافية مما ابتلى به هؤلاء ، إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمسار فقالوا : إنما لففي عافية مما فيه الناس ، وجامعه محمد (بن مسلم) وطلحة (بن عبيد الله) من هذا المكان ، فقالوا : فاتوا عثمان ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، أياتيك عن الناس الذي يأتينا ؟ قال : لا والله ما جاءنى إلا السلام ، قالوا : إنما قد أتانا ، وأخبروه بالذى أسقط إليهم ، قال : نشير عليك شركائى وشهود المؤمنين ، فاشيروا علىّ . قالوا : نشير عليك بأن تبعث رجالاً من تثق بهم إلى الأمسار حتى يرجعوا إليك بأخبارهم ، فدعا محمد بن مسلم فارسله إلى الكوفة ، وأرسل أسامة بن زيد إلى البصرة ، وأرسل عمار بن ياسر ، إلى مصر وأرسل عبد الله بن عمر إلى الشام ، وفرق رجالاً سواهم ، فرجعوا جميعاً قبل عمار ، فقالوا : أيها الناس ما أنكرنا شيئاً ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم ، وقالوا جميعاً : الأمر أمر

ال المسلمين إلا أن أمراءهم يقسطون بينهم ويقومون عليهم، واستبطأ الناس عمارة حتى ظنوا أنه أُغتيل ، فلم يفاجئهم إلا كتاب من عبد الله بن سعد بن أبي سرح يخبرهم أن عمارة قد استماله قوم (وفي نسخة قد استمال قوماً) في مصر ، وقد انقطعوا إليه منهم عبد الله بن السوداء ، وخالد بن ملجم ، وسودان بن حمران ، وكنانة بن بشر (الطبرى ٤ / ٣٣٩ - ٣٤١) .

هذا هو الخبر الذي يرويه الطبرى وابن الأثير والنويرى ، وهو لا يكاد يعقل ؛ فإنه يجعل كل أزمة عصر عثمان وفتنته من عمل رجل واحد هو هذا ابن السوداء الذى يقول إن اسمه عبد الله ابن سبأ ، وإنه كان يهودياً من أهل اليمن ، ودخل الإسلام وبدأ هذه الدسيسة الكبرى ، فهو الذى اخترع الرجعة واخترع الشيعية ، وبدأ تحريض الناس على عثمان ، مع أننا نعرف أن لهذه الفتنة الكبرى أسباباً من واقع التاريخ ، ولن يتسع المجال هنا لذكرها ، ولا أظن أن أحداً في عصرنا هذا يجرؤ على البحث فيها ؛ لأننا مازلنا في عصرنا هذا على حساسية بالغة في كل ما يتعلق بالصحابة ، ولكن من الواضح أن فتنة عثمان - وهي حادث ضخم لا شك فيه - لها أسبابها التاريخية المنطقية ، ثم إن الطبرى يأتي بعد ذلك بروايات عن تفصيل أسباب ما حدث في عصر عثمان لا تكاد تفهم المراد منها ، وأنت مهما يبلغ فهمك فإنك لا تستطيع أن تصل إلى مقطع الحق في الموضوع .

وهنا نفهم السر من حكاية ابن السوداء هذه ، فإن الحقيقة فيما يبدو لأى إنسان ذى نظر هى أن عبد الله بن سباً هذا لم يكن ولا كان قط ، وإنما هى أسطورة وضعت لكي نبعد أى اتهام بالشر إلى أحد من قادة العصر ، وكلهم من الصحابة ، فإن عصر الراشدين هو عصر الصحابة والتابعين ، والثورة على عثمان كانت فى الحقيقة ناتجة عن ظروف تاريخية طبيعية ترجع إلى استحاللة تسيير الأمور على النظام الذى سارت عليه أيام عمر ابن الخطاب ، فإن الزمان متغير ، ولكل زمن أحكامه ، فقد كان الإيراد وافراً جداً أيام عمر ؛ نظراً إلى غنى الأقاليم التى فتحت في أيامه . وفي منتصف خلافة عثمان - وبعد نهاوند فى المشرق ، وفتح إفريقيا فى الغرب وصلنا إلى بلاد لا قصور فيها ولا أموال ولا ذهب ولا فضة ، وإنما وجد العرب أنفسهم فى مواجهة الترك فى المشرق والبربر فى المغرب « ولا مغنم هنا إلا رعوس الماشية والأسرى من الناس » وهذه لا تعطى ما كانت فتوح الشام والعراق ومصر تعطيه من الخيرات الضخمة حتى قيل : « إن دخل الفاتح العربى فى عصر عمر كان يصل إلى ثلاثة آلاف دينار سنوياً فى المتوسط ، والمقاتلون الذين كانوا يخوضون هذه المعارك كانوا من العرب الذين أسلموا فى العام التاسع من الهجرة وما بعده » وهؤلاء كان نصيبهم قليلاً فى الأعطيات بحسب النظام الذى وضعه عمر ، فلما قلت إيرادات الناس من المعارك نظروا فى العطاء فإذا المستحق لكل منهم لا

يكاد يكفى لشيء ، فذهبوا إلى الخليفة يشكرون ما يعانون ؛ ولهذا فإننا نجد أنه بعد مناقشات طويلة مع عثمان حول مأخذ يسيرة كانوا يأخذونها عليه - نصل إلى بيت القصيد من هذا الكلام الطويل كله ، فيروى الطبرى ما يلى من غير سيف بن عمر ومن إليه فيقول : إن عثمان لقى وفد أهل مصر فى قرية له خارج المدينة فقال لهم : « ما تريدون ؟ قال : فأخذوا ميثاقه ، قال : ما حسبه قال : وكتبوا عليه شرطاً ، قال : وأخذ عليهم ألا يشقوا عصا ، ولا يفارقوا جماعة ما قام لهم بشرطهم - أو كما أخذوا عليه - قال : فقال لهم : ما تريدون ؟ قالوا : نريد ألا يأخذ أهل المدينة عطاء ، فإنما هذا المال من قاتل عليه ، ولهؤلاء الشيوخ من أصحاب رسول الله ﷺ قال : فرضوا بذلك وأقبلوا معه إلى المدينة راضين » .

قال الطبرى بعد كلام طويل جداً ص ٣٥٥ : « فقام (عثمان) فخطب فقال : إننى ما رأيت والله فى الأرض من هم خير لحوباتى (أى أخطائى) من هذا الوفد الذين قدموا علىٰ » .

وقد قال مرة أخرى : خشيت على هذا الوفد من أهل مصر ، ألا من كان له زرع فليحق بزرعه ، ومن كان له ضرع فليحتلب ، إلا أنه لا مال لكم عندنا . إنما هذا المال من قاتل عليه ولهؤلاء الشيوخ من أصحاب رسول الله ﷺ قال : فغضب الناس وقالوا : هذا مكر بنى أمية » (الطبرى ٤ / ٣٥٥) .

ثم تلا ذلك حكاية مشهورة ومتوازدة في الكثير من مراجعنا « هي حكاية وقد مصر الذي كان عائداً إلى بلاده راضياً بالاتفاق الذي تم مع عثمان ، ثم رأى رجلاً يتجه إلى مصر ويغترض الوفد مرة بعد أخرى ، فامسکوا به وفتشوه فوجدوا معه خطاباً عليه خاتم عثمان إلى والي مصر يأمره فيه بقتل هذا الوفد (الطبرى ٣٥٥/٣) ورأى المؤرخين القدامى هو أن هذا الكتاب من تزوير رجال بنى أمية الذين كانوا مسيطرين على إدارة عثمان . وهى أيضاً مستبعدة ، فإن رجال بنى أمية لم يبلغ بهم الخطل أن يدبّروا هذا التدبير الغبى الذى لا معنى له .

ولكن المهم أننا وضعنا أيدينا على سبب الخلاف بين الناس وعثمان ، فإن الناس لا تثور على الدولة لزيادة مساحة مراعى الدولة أو لضرب عبد الله بن مسعود وما أشبه هذه من الأمور ، وإنما تثور لمسائل اقتصادية ، وهذا واضح من كلام الطبرى ، وقد سبق أن أشرنا إليه ، أما حكاية عبد الله بن سبا ابن السوداء فخرافة لا معنى لها ، ولا ندرى كيف تواتر ذكرها فى معظم مراجعنا ، وقد سبق أن ذكرنا أنها نشأت عن رغبة الناس فى تحاشى أى نقد إلى أى واحد من الصحابة ، وهذا معقول ومشكور - أيضاً - من المسلمين . وقد سبق أن ذكرنا أيضاً أنه يصعب جداً دراسة فتنة عثمان لنفس السبب ، فإن عصر الخلفاء الراشدين هو عصر الصحابة وهم أبطال تاريخنا الإسلامي ونجموته .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الرابع

لماذا كان أجدادنا بعيدين عن الفكر السياسي السليم؟

يستوقف نظرنا أن مراجعنا - بصورة عامة - تحمل على بنى عبد شمس حملة بالغة العنف ، وتزعم أنهم كانوا أعداء بنى هاشم من يوم ولد هاشم وعبد شمس - وقد كانوا توءاماً - فيقولون : إنهم عندما خرجا إلى الدنيا كانت إصبع أحدهما لاصقة بجبين الآخر ، فكان لابد من فصلهما بالسيف ، فكان بينهما دم منذ الميلاد ، والخبر متواتر في معظم مراجعنا مع أنه ظاهر الخطأ .

فإن الثابت هو أن بنى هاشم وبنى عبد شمس كانوا قبل الإسلام حليفين متعاونين على سواهما ، ولم يقع الخلاف بينهما إلا بعد الإسلام ، فقد كانوا شقيقين ، فهما - مع أخيهما المطلب بن عبد مناف - أولاد ابن عبد مناف وعاتكة بنت مرة بن هلال بن فالج من بنى قيس عيلان بن مصر ، وقد اشتراكا معاً في عقد الأحلاف التجارية لقرיש ، وهي التي تسمى الإيلاف . ولم يقع بينهما في الجاهلية إلا ما يقال من منافرة أمية بن عبد شمس بن عبد مناف لعمه هاشم ومحاولته منافسته فيما كان يصنع من

الإنفاق لتأييد مركزه في رئاسة قريش ، وقد عجز أمية بن عبد شمس عن ذلك ، ونفرا - أى حكما - بينهما الطاهر الخزاعي ، فنفر هاشما - أى حكم له - وخسر أمية خمسين ناقة ، وخرج أمية إلى الشام منفيًا من وطنه ، وأقام هناك عشر سنين جمع فيها ثروة طائلة ، ثم عاد إلى مكة ، وهذه الثروة التي جمعها أمية هي التي مكنت له ولبنيه من الوقف في وجه بني هاشم عندما جاء الإسلام . ولكن منافرة أمية عمه لم تفسد العلاقات بين بني عبد شمس وبني هاشم ، فظلا يتعاونان حتى جاء الإسلام .

وقد وقف بني أمية من محمد ﷺ والإسلام موقف العداء من أول الأمر ، ولم يكن ذلك استمراراً لعداوة قديمة ، وإنما كان بني عبد شمس - فيما عدا استثناءات معروفة - لم يفهموا الإسلام قط ، شأنهم في ذلك شأن مخزوم ومن إليهم من ظلوا طول الوقت يخافون من أن يكون الإسلام حيلة من بني هاشم لاستعادة الصداررة السياسية التي فقدوها أيام أبي طالب (بعد وفاة عبد المطلب بن هاشم) وقد انتهى الأمر بدخولهم الإسلام جميعاً عند فتح مكة ، وقد يمكن القول إن بعضهم لم يدخل الإسلام عن اقتناع وإنما عن خوف ، وهذا أمر يصعب إثباته ، وإن كان الكثير من مؤرخينا يذكرون أنه حقيقة .

إذن فما الذي حدث بعد الإسلام ؟ وما الذي جعل بني عبد شمس - وبني أمية بالذات - أعداء الإسلام ؟

الذى حدث - وهذا أرجو القارئ أن يعيرنى اهتمامه كله - هو أن الخلافة كنظام كانت ابتكاراً موفقاً جداً من أبي بكر وعمر، وأبو بكر وعمر كانوا - مع على بن أبي طالب - أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ وأعرفهم بطريقه ، فسارا في نفس الطريق دون حاجة إلى تقني ، ولكن ذلك لا يمنع من القول أن الخلافة رياسة الأمة الإسلامية - كانت في حاجة إلى دراسة وتنظيم ؛ لأن الخليفة هو رأس الدولة ، ولا يمكن أن ترك هذه المسئولية الكبرى دون تحديد مدة أو مدى سلطة ، وإلا فإنها ستتحول بطبيعة الحال إلى ملك مستبد وراثي ، والروماني تنبهوا لذلك قبل أن تظهر الدولة العربية بمئات السنين ، فحرصوا على أن يحددوا مدى الوظائف الكبرى فجعلوها سنتين ، ويمكن أن تجدد ، ولكن ينبغي الرجوع إلى مجلس الشيوخ في كل حالة ، وحددوا كذلك مدى سلطان كل وظيفة ، وبهذا ضمنوا أن تظل السلطة دائماً في يد مجلس الشيوخ ، أي في يد الشعب .

وكان ينبغي أن نفيد من هذه التجربة الكبرى ؛ لأن ترك سلطة رئيس الدولة دون تحديد مدة أو مدى سلطان لا يتفق مع طبيعة دولة الإسلام ، وهي دولة الشورى ، وفقهاء المسلمين ومشرّعوهم الأوائل كانوا من أمهن الناس وأدقهم ، وقد وضعوا النظم الشرعية الدقيقة لكل شيء في حياة المسلمين : للطلاق والزواج والميراث والبيع والشراء والدين ، ولكنهم وقفوا عند مسائل النظام السياسي مع أنها عرضت للمسلمين - وبشكل حاد جداً - من أول الأمر .

فقد رأينا أن الخارجين على عثمان واجهوه في النهاية بحقيقة السبب الذي دفعهم للثورة عليه ، وهى مسألة نظام تفريق أموال الدولة فى الناس ، وقد اشتدت المناقشة بينهم وبينه ، وكبار الصحابة فى المدينة يدخلون على عثمان ويخرجون من عنده ولا أحد منهم يتوسط بينه وبين الناس توسطاً حقيقياً ، ويبدو كذلك أن عثمان لم يكن مستعداً لأن يقبل من أحد منهم رأياً؛ لأن أهله كانوا من حوله وكانوا يشدون أمره، وبلغ الأمر فى النهاية إلى أن هددوه بالخلع واشترطوا عليه شروطاً وعد بأن يتبعها ويبقى فى وظيفته ، ولكن الأمر لم يستقم ، وأخيراً قال له الناس فيما رواه الطبرى (٣٧٦ / ٤) : «ولقد رجعنا عنك ، وما كان لنا أن نرجع حتى نخلع ونستبدل بك من أصحاب رسول الله ﷺ من لم يحدث مثل ما جربنا منك ، ولم يقع عليه من التهمة ما وقع عليك ، فاردد خلافتنا واعزل أمرنا؛ فإن ذلك أسلم لنا منك وأسلم لك منا ، فرد عليهم عثمان ردّاً طويلاً جاء فيه : « أما قولكم تخلع نفسك ، فلا أنزع قميصاً قمىصي الله عز وجل وأكرمنى به ، وخصنى به على غيرى ، ولكنى أتوب وأنزع ولا أعود لشيء عابه المسلمين؛ فإنى - والله - الفقير إلى الله الخائف منه ، قالوا : إن هذا لو كان أول حدث أحدثته ، ثم تبت منه ، ولم تقم عليه لكان علينا أن نقبل منك وأن ننصرف عنك ، ولكن قد كان منك فى الأحداث قبل هذا ما قد علمت ، ولقد انصرفنا عنك فى المرة الأولى ، وما

نخشى أن تكتب علينا ، ولا من اعتدلت به بما وجدنا في كتابك مع غلامك. وكيف نقبل توبتك وقد بلونا منك أنت لا تعطى من نفسك التوبة من ذنب إلا عدت إليه ، فلسنا من صرفي حتى نعزلك ونستبدل بك ، فإن حال من معك من قومك وذوى رحمك دونك قاتلناهم حتى نخلص إليك فنقتلك أو تلحق أرواحنا بالله » (الطبرى ٤ / ٣٧٦ - ٣٧٧) .

ولا يستطيع أحد أن يؤكد أن هذا هو الكلام الذى دار بين عثمان والناس كلمة كلمة ، فهذه كلها أخبار وصلت إلى الطبرى بالسماع ، ولكن الأمر الذى يعنيانا هنا هو أن عثمان قال : فلا أنزع قميصاً قمىصيه الله عز وجل وأكرمنى به وخصنى به على غيرى ؛ لأنه سيذكر هذا المعنى بالفاظ أخرى فيما جرى بعد ذلك من الحديث بيته وبين الناس مثل قوله : « أما أن أتبرا من الإمارة فإن تصليبونى أحب إلى من أن أتبرا من أمر الله عز وجل وخلافته ». .

وهذا الذى قاله عثمان مبدأ خطير ، وكان ينبغي أن يناقشه الفقهاء ، فإن كل شيء طبعاً بأمر الله ، ولكن ولاده عثمان كانت من الناس ، والناس كما ولوه فقد كان لهم أن يعزلوه إذا لم يرضوا عن سياسته .

والغريب أن أحداً من الصحابة الذين كانوا موجودين فى المدينة لم يفكر فى مناقشة هذا الرأى ، مع أن بعض هؤلاء الصحابة هم الذين اختاروا عثمان فى الشورى .

وهذا أمر لابد أن يستوقف نظرنا : لأننا هنا أمام أخطر قضية كان لابد أن يناقشها الرأى : لأنها - فيما نرى - أهم مشكلة واجهت الأمة الإسلامية في تلك العصور ، وكان لابد من حلها حلاً إسلامياً معقولاً يصلاح أساساً لتنظيم مسألة رياضة أمة الإسلام أو أمم الإسلام إذا اقتضى الأمر أن تكون في عالم الإسلام أكثر من دولة .

وقد كان قادة القرون الإسلامية الأولى عباقرة حقاً ، فقد عرّفوا أولاً كيف يجمعون نص القرآن جمعاً صحيحاً سليماً ويقضون على القراءات الفرعية أو الشخصية التي لم تكن تضر بالكتاب الكريم ؛ لأن الخلافات كلها كانت الفاظاً ، ولكن الاكتفاء بنص واحد يتافق الناس على كل حرف فيه أفضل ، وتلك ربما كانت أكبر فضائل عثمان ، ثم عرّفوا بعقرية حقيقة كيف يجمعون أحاديث الرسول ﷺ وأثاره جمعاً عميناً دقيقاً قائماً على أصول وقواعد . وأسماء مثل محمد بن إسماعيل البخاري ومسلم القشيري وإسحاق بن راهويه وأحمد بن حنبل ، ويحيى ابن معين - أسماء خالدة في تاريخ الإسلام ، وعلى القرآن والحديث قام الفقه الإسلامي كله الذي تناول كل كبيرة وصغرى في حياة المسلمين بالتشريع والتقنين ، إلا مسألة نظام الحكم فقد تركوه لما يعرف بالشورى ، والشورى مبدأ إسلامي مقرر من أيام رسول الله ﷺ ، وهو نفسه وضع لها نظاماً وسار عليه ورعاها في كل تصرف من تصرفاته ، وكذلك كان الحال

مع أبي يكر وعمر ، وعصرهما - كما قلنا - استمرار للعصر النبوى ، فلما جاء عثمان و تعرضت الأمة لمشكلة سلامه الحكم واحتكموا إلى الشورى حّقاً وجدنا أنها بالصورة التي كانت موجودة بها لم تنفع ، وها نحن أولاء نرى ما حدث في أيام عثمان ، فقد كان خيرة أهل الشورى موجودين ، وكانوا قادرين على حل تلك الأزمة ، ولكن المشكلة الكبرى في الشورى أنها كانت بيد رئيس الدولة ، هو الذي يختار أهل الشورى ، وهو الذي يجمعهم ، وهو الذي ينتقى أو لا ينتقى برأيهم ، وعثمان لم يقرر جمع أهل الشورى وعرض الخلاف الكبير الذي وقع بينه وبين الأمة عليهم ؛ لأنـه - في الحقيقة وأسباب عائلية - لم يشاـنـ أن ينتقـى برأـيـ الشـورـىـ ، وـفـضـلـ كـمـاـ رـأـيـناـ - أن يظلـ الأمـرـ بيـنـهـ وـبـيـنـ النـاسـ عـلـىـ الصـورـةـ المـحـزـنـةـ التـىـ رـأـيـناـ ، وـقـرـرـ أـنـ اللهـ - سـبـحـانـهـ - هوـ الـذـىـ أـلـبـسـهـ ثـوـبـ الـخـلـافـةـ ، وـكـلـ شـيـءـ بـطـبـيـعـةـ الـحـالـ بـيـدـ اللهـ ، وـلـكـنـ النـاسـ - أـوـ أـهـلـ الشـورـىـ بـتـعـبـيرـ أـدـقـ - هـمـ الـذـينـ اـخـتـارـوـهـ ، وـكـمـ اـخـتـارـوـهـ فـإـنـ لـهـمـ الـحـقـ فـىـ أـنـ يـعـزـلـوـهـ ، وـهـذـاـ حـقـ مـنـ حـقـوقـ الـأـمـةـ لـوـ أـنـ الشـورـىـ كـانـتـ فـىـ رـأـيـهـ بـالـفـعـلـ أـسـاسـ الـحـكـمـ فـىـ إـلـسـلـامـ ، أـمـاـ أـنـ يـتـوـبـ كـمـ رـأـيـناـ تـوـبـةـ كـلـامـيـةـ بـيـنـ أـيـدـىـ الـمـسـلـمـيـنـ وـقـوـلـهـ : «ـ وـلـكـنـ أـتـوـبـ وـأـنـزـعـ وـلـأـعـوـدـ لـشـيـءـ عـاـبـهـ الـمـسـلـمـوـنـ فـإـنـيـ - وـالـلـهـ - الـفـقـيرـ إـلـىـ اللـهـ الـخـائـفـ مـنـهـ »ـ (ـ الطـبـرـىـ ٤ / ٣٧٦ـ)ـ فـأـمـرـ شـخـصـىـ صـرـفـ ، وـالـمـسـلـمـوـنـ رـفـضـوـهـ ، وـلـكـنـ أـهـلـ الشـورـىـ لـمـ يـجـتـمـعـوـاـ ؛ـ لـأـنـ اـجـتـمـاعـهـمـ ظـلـ بـيـدـ الـخـلـيفـةـ

يفعله أو لا يفعله ، فكانت النتيجة أن زادت الأحوال سوءاً وانتهى الأمر بمقتل عثمان .

وذلك هي المسألة التي كان لابد أن يتناولها الفقهاء بالبحث ووضع القواعد لها كما وضعوا القواعد لكل شيء في حياة المسلمين ، ولو أنهم تناولوا هذا الموضوع الأساسي بنفس الدقة العلمية القانونية التي تناولوا بها غيرها من المسائل لكان لدينا أساس شرعي ملزم فيما يتعلق بنظام الحكم وحقوق رئيس الدولة وواجباته وحقوق الرعية وواجباتها .

ولكن المحن الذي يستوقف النظر حقّاً أنهم تركوا هذا الموضوع جانباً دون أن يتدخلوا فيه ، ولا يمكن القول بأنهم خافوا ، فما كانوا بأهل خوف ، ويكتفى أن نذكر أزمة أحمد بن حنبل مع الاعتزاز وأنصاره من رجال الدولة ، ولا أظن أننا ننتهي إلى نتيجة مقبولة إذا مضينا نبحث عن أسباب الانصراف عن التشريع السياسي ، فظل كل شيء هنا عائماً غير محدد بقواعد ، وتلك كانت المصيبة الكبرى التي حالت دون ضبط نظم الحكم في الإسلام وعند المسلمين بتعبير دقيق ، وكل ما نقرؤه لمفكري الإسلام في الموضوعات السياسية عائم وغامض وغير مضبوط ، وأدع هذا الموضوع لمفكري الإسلام : ليديروا الرأي فيه ، ويكتفى أن نقول - وهو مجرد رأي - : إننا لم نعرف الفكر السياسي المقتن المنظم إلا بعد أن اتصلنا بالغرب وأخذنا منه . والغرب لم يصل إلى ما وصل إليه لعقلية فكرية أو امتياز ذهني ، بل هو من بتجارب شتى يعرفها الذين يدرسون تاريخ

الفكر السياسي الغربي . وكنا في الحقيقة أولى منهم بالوصول إلى هذه النتائج ؛ لأن القرآن والسنة وتجارب عمر وعثمان وعلى تعتبر أنسنة سلية جداً لوضع نظام قانوني سياسي محكم .

ولكن الذي حدث هو أننا لم نضع هذا النظام ، فضل الفكر السياسي الإسلامي قائماً على تمنيات وأمال بأن يوفق الله أهـ الحكم إلى سبيل الرشاد . وبصفة عامة تستطيع أن تقول : ليس لدينا - نتيجة لذلك - فكر سياسي إسلامي جدير بهـ التسمية . وبين يدي الآن كتاب ممتاز عن الشورى وأثرها فيـ الديمocratic دراسة مقارنة - تأليف الدكتور عبد الحميد الأنصارى (القاهرة / مارس ١٩٨٠) ولكن مؤلفه لم يقرأ هذه الصفحات الأساسية من الطبرى ؛ لكي يرى أن الشورى لم تطبق عندنا تطبيقاً عملياً نافعاً عندما عرضت الحاجة إلىـ هذا التطبيق .

وذلك مناسبة لكي أقول : إننى لم آت بهذه الفقرات من تاريخ الطبرى لكي أقول : إنها في حاجة إلى تنقية ، بل أتيت بها لكي أثني علىـ الطبرى ؛ فإن الرجل أتناـ فىـ الحقيقة بنصـ ممتاز ، ولا يسعـنا إلاـ شكرـه ، وتنقـيةـ النـصـ يـرادـ بهاـ التعـليـقـ علىـ هـذاـ النـصـ ، وهـىـ هـنـاـ واجـبـ عـلـيـنـاـ نـحـنـ ، فـأـنـاـ أـرـىـ أـنـ أـىـ رـجـلـ مـنـاـ يـرـيدـ الـكتـابـةـ عـنـ الشـورـىـ لـابـدـ لـهـ أـنـ يـقـرـأـ صـفـحـاتـ الطـبـرـىـ هـذـهـ .. وـتـكـونـ كـتـابـتـهـ تـأـمـلاـ فـيـهـاـ وـتـعـلـيـقـاـ عـلـيـهـاـ .

ولكى أعطى القارئ فكرة عن بعد المسلمين عن الفكر السياسي أضرب له مثلاً بكتاب من أحسن ما كتب تقى الدين المقريزى فى موضوع النزاع والتخاصم بين بنى أمية وبنى هاشم . والمقريزى ليس أى مؤرخ ، إنما هو واحد من قلائل مؤرخي الإسلام فكرأ وفهمأ وشمولأ فى النظر ، وهو تلميذ ابن خلدون ، ومع ذلك فإن كلامه فى كتابه القيم هذا يدل دالة واضحة على بعده عن الفكر السياسي السليم ، فهو يحمل على بنى أمية حملة باللغة العنف ، ويتعجب من وصولهم إلى الخلافة مع بعدهم تماماً عن استحقاقها ، وهو فى هذا الكتاب لا يدع شيئاً من المثالب إلا وصف به بنى أمية ، وفي إحدى فقراته يقول : « قد عرفنا كيف كان أبو سفيان فى عداؤته للنبي ﷺ وفي محاربته وفي إجلابه عليه . » ثم يقول : « على أنه إنما أسلم على يد العباس رضى الله عنه ، وال Abbas هو الذى منع الناس من قتله .. إلخ » (ص ٢٧) وقد رأينا أن ذلك كله مشكوك في صحته ، وأن العباس لم يكن أحسن من أبي سفيان بالنسبة إلى الإسلام ، ولكن المقريزى هنا لم يفكر أو يتأمل ، وإنما هو يرى بل هو يتهم بنى أمية أنهم انتزعوا الخلافة من الحسن بن على بن أبي طالب بعد موت أبيه ، ونحن نسأل : وكيف وصلت الخلافة إلى الحسن بن على بالوراثة عن أبيه على ؟ وهل تزال الخلافة بالوراثة ؟

★ ★ ★

الفصل الخامس

مؤرخون القدامى ومواقفهم من بنى أمية

مراجعةنا القديمة - بصورة عامة - لا تنصف بنى أمية ، بل إن المؤلفين - في الغالب - لا يرضون عنهم ، ويررون أنهم ظلمة وجباررة ، ويذهب البعض إلى اتهامهم بالكفر ، حتى أولئك الذين يذكرون فتوحهم وما أضافوه إلى أرض الإسلام ، وهو يزيد في مجموعه على ما تم فتحه في العصر الراشدی ، حتى هؤلاء يشتدون في الحكم على بنى أمية ، ولا يخطر ببالهم أن يضعوا الحسنات إلى جانب العيوب ، والإيجابيات إلى جانب السلبيات ، ثم يكون حكمهم بعد ذلك على هذا الأساس ، ونحز في الحقيقة إذا وضعنا محاسن بنى أمية أمام عيوبهم ازداد قدرهم في نظرنا ، فهم - دون شك - أكبر الأمم الفاتحة في تاريخ الإسلام ، ولا نريد بذلك سعة الفتوحات فحسب ، بل نضيف إلى ذلك أن فتوح بنى أمية في مجموعها هي أبقى الفتوحات (بعد فتوح الرسول صلوات الله عليه وأبى بكر وعمر وعثمان) وأبعدها أثراً في اتساع نطاق العربية والإسلام ، فقد فتح الغزنويون في المشرق فتحاً ضاع ، والغالبية العظمى مما

فتح الأتراك العثمانيون في الغرب ضاع ، وما انتشر من الإسلام فيما فتحوه أقل بكثير مما كنا نتوقع ، ولم يستعرب منه شيء طبعاً ، أما بنو أمية فكانوا عرباً فاتحين ، وقد نشروا الإسلام والعروبة في كل ما فتحوا ، ولو لا ظروف طارئة حالت بين استعراب إيران وردمتهم إلى الفارسية لكان شرق الدولة الإسلامية كله اليوم عربياً ، كما كان الحال مع غربها ، وما اتصل بهذه الفتوح فيما بعد من بلاد إفريقيا الغربية والاستوائية ، ثم إن العروبة والإسلام لم يخسراً مما فتح بنو أمية إلا الأندلس ، وكانت لذلك ظروفه التي لا يسأل عنها بنو أمية ، وهم يظلون - رغم ما حدث للأندلس - أعظم الفاتحين العرب والمسلمين على الإطلاق .

غير أن الفضل العظيم لا يدخل في الحساب عند قدماء مؤرخينا؛ لأن غالبية هؤلاء المؤرخين مغرضون قبل أن يمسكوا بالقلم ، والغرض هنا عاطفي عام ، فهم كارهون لبني أمية لما فعلوه برجال من العلويين ، ذرية على بن أبي طالب - رضي الله عنه - وإذا نحن استبعدنا ضرورات التجرد العلمي قلنا إنهم محقون عاطفياً ، فهذه ذرية المصطفى - صلوات الله عليه - ونحن لا نطيق أن يمس أحد رسولنا وذريته بأدنى شيء ، ولكننا عندما ندخل دائرة الواقع التاريخي تخف في نظرنا بشاعة هذه الجرائم ، فإن الخلافة خرجت من أواخر عصر عثمان عن نطاقها الديني الإسلامي الذي وضعها فيه أبو بكر وعمر ، ومعاوية -

إلى حد ما - كان محقاً عندما طلب معاقبة قاتل عثمان ، فهذه جريمة بشعة ، ولا يمكن - من الناحية الشرعية الإسلامية - أن تمر هكذا ، دون أى تحقيق ، ولم يكن المطلوب أن يسلمهم الخليفة معاوية ، بل كان المطلوب أن تضع الدولة يدها عليهم وتعاقبهم . وهذه مسؤولية رئيسية من مسؤوليات الحكم فى الإسلام ، ولكن الدولة عندما تولى على لم تفكر فى هذا الموضوع بالصورة التى أرادها بنو أمية ، وكان رأى على هو أن يقضى أولاً على خروج الزبير وطلحة عليه ، بل هي حتى لم تضعه موضع العناية ، وما دامت الدولة قد تراجعت - ولو مؤقتاً - عن واجبها فى هذه القضية فقد أعطت أولياء القتيل الحق فى أن يطالبوا بدمه ، وهذه المطالبة هى الباب الذى دخل منه بنو أمية باب السياسة .

وأنا - بصفتى مسلماً ومؤرخاً معاً - أسأل نفسي دائماً : لماذا لم يفتح على باب التحقيق فى أمر قتل عثمان ؟ والسؤال هذا يصدر عن قلب يحب علياً وأله ؛ لأن الصحابة كانوا إذ ذاك موجودين وقدارين على القيام بهذا التحقيق . ولم يكن من العسير العثور على قتلة عثمان ، فهذه جريمة خطيرة ارتكبت فى وضح النهار ، وكان لابد من تكليف جماعة من أهل الشورى التحقيق فى الأمر ، وحتى إذا لم تضع هذه الجماعة يدها على القتلة فإنها تكون قد قامت بواجبها على الأقل ، نحن لا نرى ما يمنع من أن يشترك معاوية أو من ينوبه عن نفسه فى لجنة

التحقيق حتى يرى أن الأمر جاد ، فقد كان معاوية نفسه صحابياً ، وما نظنه كان يفكر في البداية في الخلافة ، ولكن تطور الأحداث في عصر على وتصرف على نفسه أدى إلى ذلك ، وسترى أن النصوص هنا مضطربة جداً ، وأن الوصول إلىحقيقة ما جرى من خلالها يكاد يكون مستحيلاً ، ونلاحظ منذ البداية أن علياً لم يعط الشورى حقها الذي كان لها أيام الرسول ﷺ وأبى بكر وعمر ، وأنه كان يتصرف في الغالب من وحي نفسه ، ويبدو أن خروج طلحة والزبير وعائشة عليه قد فاجأه وسأله وأضعف مركزه منذ البداية ، فرأى أن يقضى عليه قبل كل شيء ، وسنروى له كلاماً واضحاً في هذا المعنى .

و سنرى أن هذه العوامل كلها ، و خروج على من المدينة في طلب طلحة والزبير وعائشة كان من أكبر أسباب ضعف مركزه؛ لأن المدينة كانت عاصمة دولة الإسلام ، ولها جلالها الذي كان جديراً بأن يجعل الأمة كلها تلتف حول على ، كما سبق أن التفت حول أبي بكر عند الردة ، وهو نفسه أحس بذلك عندما استقر في الكوفة و وجد نفسه وسط رجال لم يعرفوا قدره ؛ لأن المسلمين فيها كانوا من المتأخرین ومن لم يعرفوا قدر الصحابة أو عظم مكانتهم ، وقد رأينا ما فعلوه في عثمان والكوفة .

على أي حال لم تكن منذ ميلادها إلى زوالها مدينة بالمعنى الصحيح للمدينة ، إنما هي كانت محطة تنزل فيها القبائل المهاجرة ريثما تعرف إلى أين تهاجر ، وال موجودون فيها اليوم

قد لا يكونون فيها غداً : رحلوا إلى مهاجرهم ولن يعودوا إليها ، وفي الغالب يحل فيها غيرهم من نفس القبائل ، ولا يحس الإنسان بهذا التغير الحاسم ، وقد شكا على بن أبي طالب من نتائج هذه الظاهرة ، وأما أهل الكوفة الباقون فيها بصورة دائمة فكانوا أهل الخدمات من الصناع والتجار ومن لا تستغنى عنهم المدن ، وربما كان سبب عدم تنبه على بن أبي طالب إلى هذه الحقيقة هو أنه كان عظيم الثقة في نفسه ، ثم إنه كان محاطاً دائماً برجال من أنصاره المخلصين ، ولكنه وقع شيئاً فشيئاً - وخاصة بعد معركة الجمل - في أيدي رجال من محترفي السياسة من زعماء البدو القبليين من أمثال القعاع بن عمرو ، وسُعر بن مالك ، وهند بن عمرو ، والهيثم بن شهاب ، والحارث بن سريج ، ومن إليهم من لم يعرفوا قدره أبداً ، وهؤلاء جميعاً لم ينفعوه في شيء بل أضروا به ضرراً بليغاً ومن هؤلاء ظهر الخوارج من حسبيوا أنفسهم أصدق تديننا على .

ولدينا عن الأحداث التي وقعت خلال هذه الفترة الخطيرة من تاريخ الإسلام نصوص كثيرة جداً ، بعضها لا يستحق الثقة مثل الإمامة والسياسة للدينوري ، ومن أسف أن هذه المراجع كانت عظيمة الأثر في الصورة التاريخية فيما بعد ، والسبب الأساسي في ذلك هو أن نصوص المرجعين المطولين الجديرين بالثقة هنا ، وهو الطبرى (ج ٤ ص ٦٠ وما بعدها) ومعركة صفين لنصر بن مزاحم المنقري مطرولة جداً ، وهي متضاربة

ومتناقضة ، ومن العسير علينا - كما سترى - أن نخرج منها
بخط واضح لسير الحوادث ...

وقد قرأت هذه النصوص مرة بعد أخرى ، وفي فترات
مختلفة ، فلم أخرج بنتيجة ، ورغم الصبر وطول البال وإخلاء
نفسى فى بعض المناسبات من كل عاطفة - وخاصة عاطفى
الهاشمية ومحبتي المتأصلة فى نفسى لعلى بن أبي طالب - فلم
ينفعنى ذلك فى كثير ، وظللت إلى يومنا هذا غريباً عن
الحوادث ، وظلت هى غريبة عنى ، وإليك الخبر التالى الذى
يرويه الطبرى عن رواته (٤ / ٤٥٥) : كتب إلى السرى عن
شعيب عن سيف (ابن عمر) عن محمد وطلحة قالا : بلغ علينا
الخبر وهو بالمدينة باجتماعهم (ي يريد طلحة والزبير والستة
عائشة) إلى البصرة ، وبالذى اجتمع عليه ملؤهم (من قتال
على) وببلغه قول عائشة ، وخرج على يبادرهم فى تعبيته التى
كان تعبى بها إلى الشام ، وخرج معه من نشط من الكوفيين
والبصرىين متخففين فى سبعمائة رجل ، وهو يرجو أن يدركهم
فيحول بينهم وبين الخروج ، فاقىء عبد الله بن سلام فأخذ
بعناه ، وقال : يا أمير المؤمنين ، لا تخرج منها ، فواه الله لئن
خرجت منها لا ترجع إليها ولا يعود إليها سلطان المسلمين أبداً ،
فسبوه ، فقال (على رضى الله عنه) : دعوا الرجل ، فنعم الرجل
من أصحاب رسول الله ﷺ ، وسار حتى انتهى إلى الربذة فبلغه
ممرهم (ي يريد أنهم مرروا بالربذة وساروا في الطريق إلى
العراق) .

وهذا كلام يضم أشياء لم نسمع بها من قبل ؛ فإن عليا - كما نرى من الخبر - كان يريد أول الأمر الخروج إلى الشام ، وهذا - فيما نرى - كان الطريق الأمثل له ، فقد رفض معاوية الطاعة له، وكان لابد من القضاء عليه بأسرع ما يمكن حتى تنتهي هذه الفتنة . وهذا عبد الله بن سلام - وهو من خيرة الصحابة - ينصح عليا بـألا يترك المدينة ، ويقول : إنه إذا خرج منها فلن يعود إليها ، ولن يعود إليها سلطان من المسلمين أبداً ، وهذا أيضاً كان رأياً صائباً ، وكان من الممكن لعلى - بصفته أمير المؤمنين - أن يبعث إلى الشام من قواه بقوة ضاربة حاسمة فتقضى على معاوية في أقل وقت ممكن ، ولكن عليا لم يسمع بكلام عبد الله بن سلام ، ولا بد أنه كان هناك كثيرون آخرون على رأيه ، وإنما رأى أن يتبع طلحة والزبير وعائشة ؛ لكي يقضى عليهم ، بل لكي يردهم عن الخروج ، ومن هذه الفكرة أتاه بلاء عظيم ، ثم إننا نرى أن القوم الذين أرادوا أن يأخذوا عليا إلى الكوفة سبوا عبد الله بن سلام ، فكانهم كانوا أصحاب أغراض من وراء خروج على إلى الكوفة ، ولكن أغرب شيء في تصرف على - رضي الله عنه - هو عدم تفكيره في الكلام الحكيم الذي قاله عبد الله بن سلام ، وكأنه كان يتصور أنه لا يلبث أن يأخذ طلحة والزبير وعائشة ويعيدهم إلى المدينة ثم يفرغ معاوية .

ويأتينا الطبرى بعد ذلك بخبر غريب يضم فقرة نحن

جدieron بأن نطيل التأمل فيها . والطبرى يقول هنا .. رواية عن رواته ورداً على أسئلة وجهها إليه اثنان من أهل الكوفة خرجا للعمرة فبلغهما مقتل عثمان . ولقيا عليا في الربذة فوجها إليه بعض الأسئلة (سيرد ذكرها في الإجابة) فقال على : « أى بنى ، أما قولك : لو خرجت من المدينة حين أحبط بعثمان فوالله لقد أحبط بنا كما أحبط به ، أما قولك : لا تباع حتى تأتى بيعة الأمصار فإن الأمر أمر أهل المدينة ، وكرهنا أن يضيع هذا الأمر ، وأما قولك حين خرج طلحة والزبير (أى لماذا خرجمت في طلبهم) فإن ذلك كان وهنا على أهل الإسلام ، والله ما زالت مقهوراً مذولتاً منقوصاً لا أصل إلى شيء مما ينبغي ، أما قولك : اجلس في بيتك فكيف لي بمن قد لزمته أو من تريده ؟ (يريد من تريده أن يكون ؟) أتريدني أن أكون مثل الضبع ويقال دباب دباب (أى تنادي لخروج من مخبئها) ليست هنا حتى يحل عرقوبها ثم تخرج ، وإذا لم أنظر فيما لزمته من هذا الأمر ويعيني فمن ينظر فيه ؟ فكف عنك أى بنى » .

وهذا كلام ما قرأته إلا زاد حبى لعلى بن أبي طالب وحزنى على ما أصابه : فقد كان والله رجلاً على إيمان بالغ وصدق عميق . ولكن يبدو أنه لم يكن يثق كثيراً فيمن معه ، وربما كان أفضل له لو وثق . وهذه الثقة كانت أمراً يحتاج إلى سياسة ، وعلى الذي عانى الكثير - كما رأينا - منذ تولى ، كان يريد أن يثبت مكانه دون اللجوء إلى السياسة ، وكان أفضل له لو لجا إلى

السياسة فى تلك المعركة التى خاضها مع معاوية ورجاله، وكانوا أهل سياسة قبل أى شئ آخر .

ولو أنه أقام فى المدينة وتصرف منها - كما قال عبد الله بن سلام - لأنته الجنود من كل مكان ، بدلاً من أن يذهب هو إليها ، فإن مقام رئيس الدولة فى عاصمتها يخلع عليه مهابة وجلاً وقوة ، والأخبار تدل على أن قبائل العرب بدأت تقبل على علىٰ عندما قرر الخروج لحرب خصمه ، فقد روى نصر بن مزاحم المنقري أن علياً عندما مر بالربذة - فى طريقه إلى الكوفة - أتته جماعة من طيء ، فقيل لعلى : هذه جماعة من طيء منهم من يريد الخروج معك ومنهم من يريد التسليم عليك ، قال : جزى الله كلاً خيراً ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرًا عظيماً ، ثم دخلوا عليه فقال على : ما شهدتمونا به ؟ قالوا : شهدناك بكل ما تحب ، قال : جزاكم الله خيراً؛ فقد أسلمتم طائعين ، وقاتلتم المرتدين ، ووافيتم بصدقاتكم المسلمين ، فنهض سعيد ابن عبيد الطائي فقال : يا أمير المؤمنين ، إن من الناس من يعبر لسانه عما في قلبه ، وإنى - والله - ما كل ما أجد في منه يعبر عنه لسانى ، وسأجهد وبالله التوفيق ، أما أنا فسانصح لك في السر والعلانية ، وأقاتل عدوك في كل موطن ، وأرى لك من الحق مالا أراه لأحد من أهل زمانك ؛ لفضلك وقرباتك ، قال : رحمك الله ! قد أدى لسانك عما يجن ضميرك ، فقتل معه بصفين ، رحمة الله .

وبعد قليل نقرأ عند الطبرى أن قبيلة أسد هى الأخرى عرضت أن تسير مع على . قال الطبرى راوياً عن أصوله : فلما نزل بفید (فى منتصف الطريق من المدينة إلى الكوفة وفى محاذاة المدينة) أتته أسد وطىء فعرضوا عليه أنفسهم ، فقال : فى المهاجرين كفاية ، والسؤال الآن : لماذا رفض على أن تسير معه طىء وأسد ؟ ولو أنه أرسل إلى اليمن وغيرها لأنته ، فقد كان مركزه عظيماً جداً فى عالم الإسلام ، ولم يكن فى أمة الإسلام من يعدله بل يقاربه ، ولو أنه قر فى المدينة وقاد معركته منها لكان النصر حليفه دون شك . ثم لماذا قال : فى المهاجرين كفاية ؟ وأين الأنصار ، وهم أعز رجاله وأحب الناس فيه ؟ ولكنه كان يسير بالفعل فى طريق مجھول لكثريين من معاصريه ، قال الطبرى رواية عن أصوله : ولما أراد علىٌ الخروج من الربذة إلى البصرة قام إليه ابن لرفاعة بن رافع فقال : يا أمير المؤمنين ، أى شيء تريد ؟ وإلى أين تذهب بنا ؟ قال : أما الذى نريد وننوى فالإصلاح مما إن قبلوا منا وأجابونا . قال : فإن لم يجيبوا إليه ؟ قال : ندعهم بعذرهم ونعطيهم الحق ونصبر . قال : فإن لم يرضوا ؟ قال : ندعهم ما تركونا . قال : فإن لم يتركونا ؟ قال : امتنعنا منهم . قال : فنعم .

وقام الحجاج بن غزية الانصارى فقال : لأرضينك بالفعل كما أرضيتني بالقول ، وقال :

دراكها دراكها قبل الفوت

(أى أدركوها قبل أن تخرج من أيديكم) .

وانفر بنا واسم بنا نحو الصوت

لا وألت نفسى إن هبت الموت

(ومعنى : لا وألت نفسى : لاسلمت نفسى) .

والله لأنصرن الله عز وجل كما سمنا أنصاراً .

وهذا كله كلام غير مفهوم . بل إننا إذا فهمنا منه شيئاً فهو
أن عليّاً لم يكن في مسيرة هذا واضحًا لنفسه ولا للآخرين .
ثم إننا نسأل : ما الذي أراد على قوله : فالإصلاح إن قبلوا منا
وأجابونا إليه ؟ هل يريد الصلح ؟ وعندما يقال له : فإن لم
يتركونا ؟ قال : امتنعوا منهم ، فيقول الرجل : فنعم إذن ، فإذا
كان على مستعدًا لأن يمتنع عن طلحة والزبير وعائشة إذا لم
يتركوه فلماذا لم يكتب إليهم بذلك وهو مستقر في دار خلافته
بالمدينة وينتظر رأيه ؟

وبقية كلام الطبرى تدل على أن الناس في كل مكان كانوا
مع على ، وأن الجميع كانوا معترفين به أميراً للمؤمنين ، وإن
كان الكثيرون منهم يطالبون علياً بأن يخرج قتلة عثمان ، وكان
هو مستعداً لذلك ، ولكنه - لأمر ما - كان يرى أن أول ما ينبغي
عليه هو القضاء على فتنة الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله

وعائشة بنت أبي بكر - رضي الله عنهم - ولا ندري ما الذي كان يخافه منهم والناس كلهم معه إلا معاوية ؟ حتى معاوية نراه صامتاً تماماً في هذه المرحلة من الخلاف ، وما نظن أنه صمت وثبت مكانه إلا أنه خاف على نفسه وعلى بنى أمية بعد أن عزله على عن الشام وكل ولادة عثمان على غير الشام ، والنصوص تقول : إن أمر الزبير وطلحة وعائشة لم يكن بشيء ، وإن علياً لو قر مكانه في المدينة واجتهد في القضاء على معاوية لانتهى الأمر .

بل إننا نرى من حديث الطبرى ونصر بن مزاحم أن خروج على إلى الكوفة والبصرة جعل الناس يتصورون أنهم أمام فتنـة حـقة ، ثم إنه عندما قرر المسير لم يشاور أحداً ولا هو عنـىـ بأن يفهم الناس سبب مسـيرـه فـدخلـ - هو والمسلمون - في فـتنـةـ خطـيرـةـ حقـقاًـ .



الفصل السادس

حيرة الناس عند مقتل عثمان .. وكان لابد من وضع نظام للخلافة

رأينا أن محمد بن جرير الطبرى كان يعتمد في تلك المناسبة الخطيرة - مناسبة فتنة عثمان والخلافة - على رجال بعيدين عن الثقة والتدقيق من أمثال السرى بن يحيى ، وشعيب بن إبراهيم الكوفى ، وسيف بن عمر الأسى ، وحتى عندما كان يعتمد على رجال من أهل العلم والتدقيق والثقة مثل الواقدى لا يقول لنا من أى كتبه أخذ الخبر !! .

مثال ذلك قوله : « قال محمد - يريد محمد بن عمر الواقدى . وحدثنى إبراهيم بن سالم عن أبيه عن يسر بن سعيد ، قال : وحدثنى عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة قال : دخلت على عثمان - رضى الله عنه - فتحدثت عنده ساعة ، فقال : يا بن عياش ، تعال ! فأخذ بيدي فأسمعني كلام منْ على باب عثمان ، فسمعنا كلاماً ، منهم من يقول : ماذا تنتظرون به ؟ ومنهم من يقول : انظروا عسى أن يراجع ! فبينما أنا وهو واقفان إذ مر

طلحة بن عبید الله ، فوقف فقال : أین ابن عدیس ؟ فقيل : ها هو
ذا ، قال : فجاء ابن عدیس ، ففاجأه بشیء ، ثم رجع ابن عدیس
فقال لأصحابه : لا تتركوا أحداً يدخل على هذا الرجل ، ولا
يخرج من عنده . قال : فقال لى عثمان : هذا ما أمر به طلحة بن
عبید الله ، ثم قال عثمان :

اللهم اكفى طلحة بن عبید الله ، فإنه حمل على هؤلاء
وأليهم ، والله إنني لأرجو أن يكون منها صفرأ ، وأن يسفك دمه !
إنه انتهك مني ما لا يحل له . سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا
يحل دم امرئ مسلم إلا في إحدى ثلات : رجل كفر بعد إسلامه
فيقتل ، أو رجل زنى بعد إحسانه فيرجم ، أو رجل قتل نفساً
بغير نفس » .. ففيم أقتل ؟ .. (تاريخ الطبرى ٤ / ٣٧٨ - ٣٧٩)
وهذا في الحقيقة خبر غريب جداً - خاصة وهو مروي عن
الواقدى ، وأقل ما يدل عليه هو أن القضية لم تكن بين على
وعلمان كما نظن ، وإنما هناك في الحق أناس آخرون . وإننا
أسأل هنا - مجرد سؤال - : أ تكون لهذا علاقة بخروج طلحة بن
عبید الله والزبير بن العوام من المدينة بعد بيعة على ، وذهبهما
مع عائشة إلى البصرة ؟ وإنما - كما قلت - أسأل هنا مجرد
سؤال؛ لأنني أعرف أن أحداً من المسلمين لا يطلب الحقيقة هنا ،
وهي مؤلمة أيّاً كانت ، وليس من واجب المؤرخ دائمًا أن يعثر
على الحقيقة؛ لأن واجبه الأول هو عرض القضية بوضوح ،
والقارئ يستنتج أو يحكم بعد ذلك بما يشاء . واتباعاً لهذا

المذهب واسترسالاً مع الخبر الذي سبق أن رويته أقول : إن الطبرى يروى عن الواقدى أنه سأله بعد بيعة طلحة والزبير- بعد بيعتهم لعلى - فقيل له : إنهم فى نفر من أصحابهما ، فقال على : أما إنهم لن يدعوا (أى لن يلبثوا) أن يخرجوا يقولون : طالب بدم عثمان ، والله يعلم إنهم قتلة عثمان . (٤٤٠ / ٤) (بالكلام والتحريض) وفي رواية أخرى يرويها الطبرى عن غير سيف بن عمر نجد الزبير فى حالة من عدم الثقة فى نفسه تدعو إلى العجب ، حتى إنه قال لابنه عبد الله : ما بي فى هذه الحرب بصيرة ، فقال له ابنه عبد الله : قد خرجمت على بصيرة ، ولكنكرأيت رأيات ابن أبي طالب وعرفت أن تحتها الموت فجربت ! فأغضبه حتى أرعد وغضب وقال : ويحك ! إنى قد حلفت له ألا أقاتلته . فقال له ابنه : كفر عن يمينك بعطق غلامك سرجس ، فأعتقد وقام فى الصف بينهم معهم ، وكان على « قد قال للزبير : أتطلب منى دم عثمان وأنت قتله ؟ سلط الله على أشدنا عليه اليوم ما يكره . وقال على : يا طلحة ، جئت بعرس (أى امرأة) رسول الله ﷺ تقاتل بها وخبأت عرسك فى البيت ؟ أما بايعلتني ؟ قال : بايعلتك وعلى عنقى اللج (أى السيف) ، فقال على لأصحابه : أياكم يعرض عليهم (أى على الناس) المصحف وما فيه ، فإن قطعت يده أخذه بيده الأخرى .. (أى أن عليا ترك طلحة والزبير ومضى يبحث عن أنصار مخلصين) «الطبرى ٤ / ٥٠٩» .

ومهما نقرأ في الطبرى أو نصر بن مزاحم المنقري أو ابن الأثير فإننا لا نخرج إلا بانطباعات ثلاثة :

أولها : أن أحداً من خصوم على - بما فيهم السيدة عائشة - لم يكن يعرف لماذا خرج على على ؟ وماذا يريد منه ؟ .

ثانياً : أن علياً كان يعرف أنه الخليفة أمير المؤمنين ، وكان مصراً على أن يقوم بمسئوليته ك الخليفة وأمير للمؤمنين وبطريقه المباشرة الصريحة التي خرج بها من صحبته لرسول الله ﷺ وتأمله لأعمال أبي بكر وعمر .

ثالثاً : أما قتلة عثمان فلم يكن أحد يعرف على وجه التحقيق من هم ؟ وكانت الأمة ترى أن كل أهل الشورى مسؤولون عما وقع ، ولم يكن أحد إطلاقاً يرى أن علياً له يد في الموضوع ، وكان الرجل منذ بداية الاضطراب على عثمان قد التزم حياداً وبعداً عن الخليفة ، فهو لا يراه إلا إذا دعاه الخليفة أو اضطرته الظروف ، وكأنه كان يرى أن المشكلة نفسها في عثمان وإصراره العجيب على التمسك بالخلافة ، وزعمه أن الله قد اختاره لها وأن خروجه منها يعد مخالفة لأمر الله ، ولم يخطر بباله أن الأمة التي ولته لها أيضاً الحق في أن تعزله ؛ لأنه ليس خليفة على نفسه بل على الأمة .

وهذا الوضع - فيما نحسب - هو الذي كان يخيف الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله ، لا لأنه كانت لهما يد في قتل عثمان ،

بل لأنهما أثناء الفتنة تكلما كثيراً، و قالا كلاماً كثيراً في حق عثمان ، وهذا الكلام كان له - دون شك - أثر في حماس الناس ضد عثمان ، وهو ما لم ينفردا بذلك ، بل فعل ذلك أيضاً عمرو بن العاص ، ولكن عمراً لم يكن في المدينة ، ومن ثم فقد قال في العقبة ومواضع أخرى كلاماً كثيراً سيئاً لعثمان ، وقد اعترف بذلك ، أما مطالبة الناس علياً بإخراج قتلة عثمان فمطالبة منطقية ؛ لأنه كان الخليفة ، وكان هو لا يعارض فيها ، بل يصر عليها ، ولكن موقف طلحة والزبير حيره حتى إنه شك في أن لهما يداً في موت عثمان كما رأينا ، وعندما خرجا إلى مكة وقالا: إنهم لا يباعون علياً ؛ لأن بيعتهم صدرت وهم تحت الإرهاب ، وكانوا أحراراً في أن يقولوا ما يريدان ، ولكن لماذا يخرجان من المدينة إلى مكة ومنها إلى البصرة ، وهناك يطالبان بدم عثمان ؟ لقد كان لذلك التصرف أثره البعيد في زيادة حيرة الناس ، وقد أصبحت الحيرة فتنة عندما لحقت السيدة عائشة بطلحة والزبير ، وقالت : إنها تطالب بدم عثمان ، مع أنها لو قابلت علياً وطالبته بدم عثمان لكان أوقع ، ولكنها لم تكن تحب علياً منذ وقف منها الموقف المعروف في حادث الإفك ، وهي في غضبها على عليٍّ كانت ترى أن الزبير بن العوام ابن اختها كان أحق بالخلافة من عليٍّ ، وهو رأي لم يوافقها عليه أحد من المسلمين .

ولكن ما الذي جعل عائشة - رضى الله عنها - ترى هذا الرأي رغم ما نعرفه من رجاحة نظرها وعمق فهمها للأمور ؟

السبب - فيما أعتقد - أن أحداً لم يتتبه إلى أن الخلافة اختراع لأبي بكر وعمر ، وقد اخترعها أبو بكر ؛ لأنها كانت الحل المنطقى لمستقبل أمة الإسلام بعد موت الرسول ﷺ وكان عالم الإسلام - وأهل المدينة بصورة خاصة - قد أصيّبوا بذهول عند موت رسولهم ﷺ ومن الخطأ أن نظن أنهم كانوا يرون أنه لا يموت ؛ فإن كل إنسان وكل مخلوق لابد أن يموت ، والقرآن قال مرة بعد أخرى ما معناه أن الرسول ﷺ بشر وأنه يموت كغيره .

ولكن مفاجأة الموت شلت أذهان الناس ، فوقعوا في حيرة كبرى ، وأبو بكر هو الوحيد الذي فكر في مستقبل الأمة ، وعندما تأكد من أن رسول الله ﷺ يموت ابتعد عن الأمة لكي يستطيع التفكير والتصرف ، وذهب إلى منازل زوجه وهم آل حارثة في حي السنح شمال شرقى المدينة ، وهناك فكر وتصرف في هدوء ، وعاد وفي ذهنه فكرة الخلافة التي تتمشى تماماً مع روح الإسلام ، وعرف كيف يقنع الناس بها في مناقشة تقيفة بنى ساعدة .

وخرج من الاجتماع وهو خليفة رسول الله ﷺ وحاكم أمة الإسلام ، وعلى بن أبي طالب - وكانت سنّه إذ ذاك تصغر سن أبي بكر بثلاثين سنة - سلم بحق أبي بكر في الخلافة ، وفعل كل المسلمين فعله ؛ لأن أبي بكر كان قد تشرب فكر رسول الله ﷺ تماماً ، وأصبح في ذاته استمراً لفكرة الرسول ﷺ وتصرفيه ،

وقد عرف كيف يواجه حركة الردة في حزم وشجاعة وسرعة ،
وما من شك في أنه لو لا أهل الردة وما رأى أبو بكر من ضرورة
حربهم لأنّه خلافة أبي بكر صورة أخرى : فإن الرجل لم يكن
صاحب عنف ، ولكن مواجهة الخارجين اضطرته إلى أن ينشئ
أداة عسكرية لمواجهة الردة ، وبعد أن نجح في مواجهة الردة
نجد أن هذه القوة العسكرية التي كانت تحت يده قد غيرت من
طبيعة حكمه فأصبح رجلاً ذا سلطان عسكري يخيف أعداءه .

وبعد نظام الحكم يتحول إلى دولة بعد أن بدأت غنائم الحرب تتجمع في يد الخليفة . وعلى بن أبي طالب كان يرى أن يوزع الخمس - وهو نصيب الدولة - على المحاربين الذين قاموا بالفتح أولاً ، أما عمر فلم ير بأساً في توزيع الأموال ، أما الأرضى المفتوحة فقد رأى أن الحكومة - أى الهيئة الإدارية للأمة الإسلامية - ينبغي أن تحافظ بها ويعود خراجها على أجيال الأمة ، ورأى أبو بكر أن توزيع الغنائم ينبغي أن يتم على أساس التساوى فى الأنسبة بين المسلمين جميعاً ؛ لأن هذه أرزاق ، والتسوية فيها أسلم ، فلما جاء عمر رض هذا النظام ، ورأى أنه لا يستطيع التسوية فى الأنسبة بين قدماء المسلمين ، ومن لم يسلمو إلا مضطرين ، وقال : لا أرى أن أسوى بين من قاتل مع رسول الله صل ومن قاتل ضده .

وكان يرى أيضاً أن يفضل آل رسول الله ﷺ على غيرهم في لأنصبة . وكان عمر يعيش في غاية من التقشف، ولكنه كان

حاسماً وشديداً في الحق ، وكان يخاف على الصحابة من الافتتان بالأموال الكثيرة التي صارت إليهم ، ومن افتتان الناس بهم . فحرم عليهم الهجرة من المدينة إلى الأمصار فشقق على رجال مثل عبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبد الله والزبير بن العوام وعبد الله بن عباس ، وكان صريحاً في آرائه ، فعندما سُئل عن السبب في عدم توليته عبد الله بن عباس الحكم في بعض الولايات قال : لا والله لا أستعمله ليستحل الفيء على التأويل . ولكنه أنشأ الدواوين ، أى سجلات المحاربين ؛ لكي يكون دقيقاً وعادلاً في تقسيم أموال الغنائم والفيوه عليهم ، وقام بدور المشرع أكثر من مرة : ففي عام الرمادة عندما اجتاحت المجاعة الحجاز استحل عدم معاقبة السارق للطعام ليأكل ، واستشار علياً في عقوبة الزاني وأخذ برأيه ، ودفع بالعرب في ميادين الفتوح ، وأنشأ الولايات ، ورسم للمسلمين بخلقه وتصرفه صورة ل الخليفة تكاد تكون مستحبة التقليد ، وارتفع بمستوى المسلمين إلى درجة جعلتهم بالفعل خير أهل الأرض ، وعندما مات بعد اثنى عشرة سنة من الحكم حزن عليه الأمة حزناً بالغاً ، ولكن بعض الصحابة تنفسوا الصعداء وأحسوا أن الوقت قد جاء لكي يستمتعوا بما حرمهم منه عمر رضي الله عنه - واختار - وهو في سكرات الموت - ستة من الصحابة أهل الشورى ؛ ليختاروا خليفة من بينهم ، وجعل بينهم ابنه عبد الله بن عمر شاهداً لا مشاركاً في الرأي أو الخلافة .

ولا شك أن عبد الرحمن بن عوف عندما وجه جماعة الشورى نحو عثمان وأبعدها عن على بن أبي طالب كان يظن أنه يعرف ما سيجيء ، ولكن الأيام أرته أنه كان جد مخطئ حتى لقد سكت تماماً ولم نعد نسمع عنه .

ذلك أن عثمان بن عفان لم يكن في الغالب يحس أن الخلافة في أيامه أصبحت عبشمية - نسبة إلى بنى عبد شمس - فأصبحت الولايات ومسئولييات الدولة الكبرى في يد رجال من بنى عبد شمس وبنى أمية ، والأموال كلها أصبحت في يدهم ، ولم يكن عليه بأس في ذلك ، فلم يكن هناك ما يحرم على الخليفة أن يختار الولاية وأصحاب الوظائف والمسئولييات من آل بيته ، وكان يرى أن ثقته في الرجل تكفي لضمان سلامته تصرفه ، وفاته أن الرجل كان من الممكن أن يكون على خلاف ما ظن ، وسارت الأمور مع ذلك سيراً طيباً : لأن مخانم الدولة من الفتوح والفيوء كانت ضخمة ، وإيراد العرب المقاتلين كان وافراً، فلما وصلنا إلى منتصف ولايته وصلنا في الفتوح إلى بلاد الترك شرقاً والبربر في المغرب الأوسط غرباً . وهؤلاء قبائل ، وأولئك قبائل ، والمغانم من الجانبيين كانت قليلة ، وهذا التفت المقاتلون العرب إلى العطاء أو الرزق ، وهو النصيب الدائم للرجل من إيراد الدولة .

ولما كان معظم المحاربين من عرب قد أسلموا في العام الثامن والتاسع وما بعدهما فإن عطاء الواحد منهم كان قليلاً ،

فاتجهوا إلى الدولة ، ودخلوا في محاولات مع الخليفة لتغيير نظام الدولة ونظامها المالي خاصة ، فلم يفهمهم عثمان ولا هو وافق على أن يترك الخلافة لغيره ، وقال : إنها شيء أعطاه الله إياه ، وهو - مهما حدث - لا يرفض عطاء الله ، وحاول على وأبو ذر وأبو موسى الأشعري أن يثنوه عن رأيه دون جدوى ، فتركوه للجمهور يتصرف معه . وهنا نظن أن رجالاً مثل طلحة والزبير قالوا كلاماً كثيراً في مهاجمة عثمان ورجاله ، وأخيراً نجد نفراً من الجمهور الذين يسمونهم أنصار عثمان بالرعامع يقتلونه . وهذا - كما قلنا - تظهر شخصية عبد الله بن سبا أو ابن السوداء ، وتلقى مسؤولية الفتنة عليها ، ويضاف إليها رجال من أمثال خالد الخافقى ، وعبد الله بن أبي بكر ، وقترة وسودان الكوفيين ، فقتلوا عثمان ثم نهبوا ما وجدوه في بيته المال وفروا ، وكان ذلك في الغالب بعد ظهر يوم الجمعة ١٨ من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين . بعد ذلك بأسبوع تم انتخاب على بن أبي طالب ، وقد أبى أن تكون بيعته في جماعة من الصحابة ، وأصر على أن تكون بيعته في المسجد ، فمضى إلى المسجد ، وهناك أعلنت بيعته ، ولم يختلف عنها أحد أول الأمر .

وهذا كان تصرف على إسلامياً صرفاً .

وكان على علىٌ - وقد رأى ما وقع لعثمان - أن يكون أول ما ينظر فيه أن يجتمع مع الصحابة لوضع قواعد لتولي الخلافة .

وأهمها :

- أن يتقرر بصورة نهائية أن الأمة هي التي تختار الخليفة، وهي التي تعزله إذا لم ترض عنه .
- أن تحدد للخلافة مدة لا تتجاوزها - خمس أو ست سنوات مثلاً - ثم يعود الأمر إلى الأمة ، فإذا جددت البيعة أو اختارت خليفة جديداً .
- ما هي حدود سلطة الخليفة ؟ وهل هو يستطيع أن يحكم في كل القضايا أو في بعضها وينفذ أحكامه بنفسه ؟ وهل له أن يشرع ؟ وكيف ؟ وإذا لم يكن فكيف يتم التشريع ؟ وهل لابد أن يوقع الخليفة على كل قانون حتى يكون نافذاً ؟
 -
 - كيف يتم اختيار كبار الموظفين ؟ وكيف يكون تعيينهم ؟
 - وكيف تحدد رواتبهم ؟ وما هي وسائل الرقابة عليهم ؟
- هل تكون أموال الدولة بيد الخليفة أو لا بد أن يختار هو أو الناس مسئولاً عنها ؟ وأين تحفظ أموال الدولة ؟
- هل يمكن أن يكون في أمة الإسلام أكثر من خليفة في نفس الوقت ؟ وهل من الضروري أن يبایع كل المسلمين لنفس الخليفة ؟ وما الموقف منمن يرفض أن يبایع ؟

وهكذا . وهذه كلها مشاكل عرضت في أيام رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر ، باستثناء مسألة مدة الحكم ، فهذه لم توجد أيام رسول الله ﷺ ؛ لأنه كاننبياً ورسولاً وإماماً للجماعة ، وكان القرآن الكريم عنده بحراً واسعاً يجد فيه القواعد كلها

بذكاء نادر وموهبة لا تصدق ، ولما جاء أبو بكر ثم عمر سارت الأمور دون مشاكل مستعصية على الحل . إنما جاءت المشكلة الكبرى أيام عثمان وهي مسألة الأموال ، وكذلك مدة الخلافة ، وحق الأمة في اختيار الخليفة ، وتحديد مدة حكمه وسلطاته ، وما إلى ذلك مما ذكرناه .

وهذا هو الذي جعل السننوري يصفها بالخلافة الناقصة .

وكان ينبغي على على أن يبدأ بذلك كله ؛ ليكمل اختراع أبي بكر ولا تجمد الخلافة كما جمدت في يد عثمان ، ولو فعل أحد ذلك لما وقعت الأمة في الحيرة التي أتينا بصورة منها ، وهذه كلها مسائل أساسية كان لابد من وضع قواعد لها حتى لا تتعرض الأمة لمشاكل من نوع مشكلة عثمان ، وهذه القواعد هي التي نسميها في مجموعها اليوم بالدستور ، وأنت ترى أن الدستور هو أهم شيء في نظامنا السياسي ولا مفر منه ، ونحن أنفسنا تعرضنا للخطر الأكبر الذي تتعرض له الأمم دون دستور ، وهو الواقع بين براثن الحكم الملكي المستبد ، ومعاوية نفسه لم يكن أول الأمر يفكر في أن يكون خليفة ، ولو أن عليا تركه مكانه كما نصحه المغيرة بن شعبة لما فكر في طلب الخلافة ، ولكن عليا كان يرى أنه ليس أقل من أبي بكر أو عمر ، وهو ليس مضطراً إلى المداهنة ، وما دامت الأمة لا تريد ولاة عثمان فليذهب ولاة عثمان ، ولاشك في أنه ما كان ليدع قتلة عثمان دون عقاب ، ولكن خوف طلحة والزبير وإنكارهما بيعتبرهما وهروبهما إلى البصرة غير رأيه .

الفصل السابع

كان لابد من وضع دستور لتنظيم تطبيق الخلافة

يظن بعض السادة القراء أن هذا الذى أكتبه تاريخ ، أى شيء مضى وانقضى ، ولكن الحقيقة أن المشاكل التى عرضناها مشاكل دائمة وحاضرة ، وهذا لا يمنعها من أن تكون تاريخاً ، فال التاريخ يشمل الزمان كله ؛ ولهذا فإنى أرجو القارئ أن يطيل باله علىَّ ويصبر معى ، فأنما هنا أعالج مسائل راهنة وحية وإذا لم يكن من الممكن العثور على أجوبة أو حلول لها ، فلا أقل من التفكير فيها ، والتفكير هنا إيجابي ونافع ، وهو أكثر فائدة من التفكير فى الفوازير مثلاً .

والتفكير هو الهدف الأساسى من هذه الفصول ، فالحق أن نوع حياتنا الذى نعيشه اليوم يصرفنا عن التفكير بشكل خطير ، وليس فى الدنيا أخطر من العيش بدون تفكير . والتفكير له أصوله وقواعد ، فمن أصوله أن يقرأ الإنسان ، ونحن - مع الأسف - نكتب دون أن نقرأ ، فقد كتب السيد المستشار محمد سعيد العشماوى مقالاً طويلاً جداً فى العدد ٦٥٤ من مجلة أكتوبر (بتاريخ ٧ من مايو ١٩٨٩) بعنوان « فقه الخلافة »

والمقال يشغل خمس صفحات كاملة من المجلة ، وهو تعليق على الترجمة العربية لرسالة الدكتور عبد الرزاق السنهورى عن الخلافة ، وهذه الرسالة - سواء فى أصلها الفرنسي أو ترجمتها العربية - هى أضعف ما كتب السنهورى وأقله قيمة ، وهو نفسه كان يقول ذلك ، فقد كتبها متعجلاً ودون أن يقرأ الأصول وأصدرها بمناسبة صدور كتاب الشيخ على عبد الرزاق عن الخلافة .

وإذا كان هناك من يعرف السنهورى أيام صدور هذا الكتاب (فيما بين ١٩٣٥ و ١٩٤٠) فاعتقد أنه أنا ، فقد عملت أربعة شهور من تلك الفترة سكرتيراً للسنهورى ، وكان إذ ذاك عميداً لكلية الحقوق بجامعة القاهرة ، وكانت - عقب تخرجى في كلية الآداب سنة ١٩٣٤ - لم أجد إلا عملاً يسمى فنى مكتبة في مكتبة جامعة القاهرة ، وهو عمل أشبه بعمل الفراش ، فتركته وعملت مترجمأً من الفرنسية إلى العربية في بنك لتسليف الزراعي، وكان إذ ذاك بنكاً دولياً ، ثم أضيفت إلى سكرتارية مدير البنك محمود باشا شكري ، وقد فاتني أن أستقيل من عملى في مكتبة الجامعة قبل التحاقى بالعمل في البنك ، وأراد أستاذى عبد الحميد العيادى أن يستعيدينى إلى الجامعة فكلم في شأنى السيد عبد الرحيم مصطفى أمين عام الجامعة إذ ذاك ، فقال له : ليس لدى إلا سكرتارية الدكتور السنهورى ، وقبلت في الحال ، مع أن الفارق بين راتب البنك وراتب الجامعة كان

أربعة جنيهات ، وقد أسعدهي العمل مع السنهورى ، فقد كان إذ ذاك عالماً شاباً ، ولكنه كان ماكينة عمل ، فكان يعمل فى الصباح ويخرج بعد أن يقول لي : إنه سيعود إلى العمل فى الثانية بعد الظهر ، فكنت أنتظر وكانت أرض الجامعة إذ ذلك مزارع ، وكان فيها مطعم لا يطبع إلا الفاصلolia البيضاء يقدمها لي مع رغيف وخصایة ، وكانت أقضى نحو عشرين دقيقة في غسل الخص ، ثم أكله على مهل ، وفي تلك الأيام كنت أقرأ كتاب السنهورى هذا ، فلما رأني قال لي : لا تقرأ هذا الكتاب ، ولم يكن بحاجة إلى أن يقول لي ذلك ، فقد كنت إذ ذاك أعد الماجستير ، والراجع كلها تحت يدي ، وقد تبيّنت أن السنهورى كتب الكتاب دون أن يقرأ الأصول ، وضاعقنى ذلك جدًا ، فتركت الكتاب ، وعندما قلت للسننورى ذلك ونحن نسير من الجامعة إلى قلب القاهرة في المساء - ولا أنسى أبداً حذاءه من القماش الأبيض الذى كان يرتديه دائمًا تلك الأيام - وقلت له : إننى تركت الكتاب ، أحسست أنه لم يعجبه أن أقول إننى تركته : لأنه لم يعتمد فيه على الأصول اعتماداً كافياً ، بل هو اكتفى في القراءة عن الخلافة بما ورد في كتاب المختصر في تاريخ البشر لأبى الفدا ، وهو مختصر جدًا ، وعندما سأله الأستاذ الفرنسي : وأين دستور الخلافة ؟ قال له : القرآن وها هو ذا ، وقلب الأستاذ صفحات القرآن وقال له : يا بنى ، هذا كتاب ! قال له : أجل ، هذا كتاب ، ولكنه يتضمن الدستور ، دستور كل شيء في الإسلام ، قال له

الأستاذ : إذن فاستخرج منه ما يخص الخلافة وهذا يكفي ، وانتظر أياماً فلم يأته السنهورى بشيء فقال له : هذا إسلام وأنت حر فيما تقول ، وأنت دكتور على أى حال ، فإن أردت دكتوراه على هذا الكتاب أعطيناك ، فهذا اللقب الثانى لا يقدم ولا يؤخر ، ولكن لا تقل لي : إن القرآن كله هو دستور الخلافة .

ثم يجيء المستشار محمد سعيد العشماوى ويكتب عما يسميه فقه الخلافة ، وقد تكلم الفقهاء عن الخلافة ، ولكنهم لم يضعوا للخلافة فقهها ؛ ومن ثم فليس هناك ما يمكن أن يسمى فقه الخلافة .

وإذن فهذا الكلام كله لا معنى له ، فإذا عرفنا أن المقال كله تعليق على الترجمة العربية لكتاب الخلافة للسنهورى عرفنا أنه لا معنى له أكثر وأكثر .

وأعم عبارة في كتاب الخلافة للسنهورى هي التي وردت في ص ٥٩ و ٦٠ من الترجمة العربية ، وقد أوردها السيد المستشار محمد سعيد العشماوى في مقاله ، وهي : « إن مسائل القانون العام لم تحظ من الفقهاء المسلمين بنفس العناية التي بذلوها لمسائل القانون الخاص ، وإن القواعد المنظمة لحريات الأفراد وحقوقهم العامة تتراوحتها كتب الفقه الإسلامي بطريقة استطرادية ، دون أن تضع لها نظريات عامة تناسب أهميتها العملية ، ودراستها تحتاج إلى بحوث ومؤلفات خاصة تدخل في نظام سلطة التشريع . انتهى كلام السيد المستشار ، وهذا هو

الذى قلته فى الفصل الماضى ، ومع ذلك فإن سيادة المستشار يكتب هذا كله عما يسميه فقه الخلافة بدلاً من أن يستخدم تخصصه فى القانون فى البحث عن حقوق الأفراد وواجباتهم فى الإسلام ، وهذا ما كان يمكن أن نسميه فقه الخلافة . فإذا كانت المسألة ، هي أن يكتب السيد المستشار أى كلام ويسميه أى تسمية فهو حر فى أن يفعل ما يريد ، ولكننا نحن أيضاً أحرار فى أن نقول : إن مثل هذا الكلام كله لا شيء ، والغريب أن السيد المستشار ينتقد كتاب السنهورى ، ويقول : ومع أن الكتاب والبحث والرسالة هى عن الخلافة الإسلامية فقد خلت من التعريف العلمي لها ، وبذلك تركت الموضوع بلا تحديد ، والدراسة بلا تعريف . والسياسة بلا عنوان ، والخلافة بغير بيان ،

وفي الإشارة إلى تعريف أورد السنهورى تعريفاً للخلافة للتفازانى (صعود ابن عمر) ويقول السيد المستشار فى أسلوبه العربى الركيك : إنه من خير فقهاء الدرجة الأولى بأنها - أى الخلافة - رئاسة عامة فى أمر الدين والدنيا ، خلافة عن النبي ﷺ (ص ٨٣ من ترجمة كتاب السنهورى) كما أشار إلى رأى التفازانى كذلك فى كتاب تقريب المرام شرح تهذيب الكلام « إن الخليفة يمثل الله ويمثل الأمة فى الوقت نفسه (ص ٧٢ هامش ٣ من ترجمة كتاب السنهورى فى الغالب) ونظراً لأن الدكتور السنهورى لم يذكر تعريفه هو للخلافة ، ولا أبدى

الرأى فى تعريفى التفتازانى ، بل إنه كررهما وألح عليهم و قال :
فإن مفاد ذلك أنه وإن لم يثبتهما فإنه لا يستنكرهما .

وهذا التعريفان خاطئان ، وهما يكذسان فكرة خلافة الله أو
الحق الإلهى المقدس للملوك والخلفاء ، وأبو بكر الصديق نفسه
- أول خليفة في الخلافة الكاملة - (على رأى الدكتور
السنهورى) أنكر أنه خليفة النبى ، وقال : إنما أنا خالقتهُ (أى
تلاه فى الزمن) ولست خليفته (أى الذى حل محله وأخذ مكانه
وعليه التزاماته) هذا فضلاً عن أنه لم يبدر عن أحد من الخلفاء
الراشدين ما يفيد أنه يمثل الله أبداً فيما عدا قوله لعثمان بن
عفان عندما أرادوا خلعه من الخلافة قال فيها : إنه « خليفة الله »
وهو تعbir قصداً به إلى المجاز ، ولم يرم إلى الحقيقة ، وقد
فهمها الناس فى وقته على المعنى المجازى الذى يفيد نسبة كل
شيء إلى الله ، كأن يقال : أرض الله ، ومال الله ، وبيت الله ،
وهكذا . دون أن يفيد معنى الحق الإلهى المقدس في الحكم .

وهذا كله كلام غير دقيق ، فقد رأينا أن عثمان لم يقل قط :
إنه خليفة الله ، وإنما قال : إن الله أعطاه الخلافة ، فهو على ذلك
عطية من الله ، وعطية الله لا يردها المخلوق ، ثم كيف يشبهه
 الخليفة الله بمال الله ، وأرض الله ، وبيت الله ، وهذه كلها جمادات
لا تتصرف ، في حين أن الخليفة حاكم حتى يتصرف وله
سلطان ؟

ومقال السيد المستشار كله على هذا النحو تعليق غير دقيق على ترجمة غير دقيقة لكتاب غير دقيق؛ ومن ثم فإننا لا نخرج منه بشيء، ومن هنا فإننا ندع هذا المقال وكتاب السنهورى ونعود إلى ما كنا فيه من قراءة المراجع ومحاولة استخراج الحقائق منها، وليس غرضنا في الحقيقة هو أن يعرف القارئ حقيقة ما جرى لعثمان وما حدث بعد موته، وإنما المراد هو أن يعرف كيف يفكر المسلم في كل ما يجري أمام عينيه، فالمفاتيح - كما قلنا مرة بعد أخرى - ليس هو الماضي فقط، بل هو الزمان كله.

و قبل أن أترك مقال السيد المستشار أذكر لك عبارة عجيبة تدل على ما فيه من خواء وفراغ، قال: «ومما ينافقه هذا الاتجاه في التسوية بين الخلافة والحكومة أن الترجمة - يقصد ترجمة كتاب السنهورى عن الخلافة إلى العربية - أشارت في أكثر من «وضع» - يريد موضعًا - أن الخلافة عند السنهورى ليست دولة ولا نظام حكم، إنها مبدأ وحدة الأمة (ص ١٧ من الترجمة) فكيف ينحل مبدأ وحدة الأمة إلى مجرد شروط غير قابلة للتحقيق للوزراء والمدراء حتى لو كانوا منفذين لشيء أو أمر لا مفهومين بالتصريف؟ وكيف يسوغ أن تكون شروط الرياسة العامة شروطًا لأى موظف محلى أو أى عامل إداري؟ وما هي الفوارق؟ وما دواعيها؟

وهذا كلام يدل على انعدام الفهم للموضوع كله، وقد قلنا:

إن الخلافة اختراع مثل اكتشاف نيوتن للجاذبية الأرضية ، وكان لابد من وضع القوانين للجاذبية وما يتصل بها حتى يكون لها هذا الدور العظيم في تاريخ الحضارة البشرية ، وكان لابد كذلك من وضع القوانين المنظمة للخلافة - كما قلنا - حتى لا تظل مجرد كلمة ، والخلافة أيام أبي بكر كانت أباً بكر نفسه ، وفي أيام عمر كان عمر . وال المسلمين جميعاً كانوا راضين عن أبي بكر وعمر ، فلما جاء عثمان أصبحت الخلافة عثمان ، والأمة لم ترض عن عثمان ، وقالت له ذلك ، فأما كبار الصحابة - وعلى رأسهم على بن أبي طالب - فنصحوه بالتخلي عن العثمانية أو الأموية ، ولكنه زعم أن الله سبحانه وتعالى اختاره - كما هو - للخلافة ، وقال : إنها قميص ألبسه الله إياه ، وهو لن يغير من نفسه أو من القميص ، ولن يذهب ، والأمر انتهى بمقتله ، وأحياناً يسأل الإنسان نفسه :

وهل كان من الممكن أن يكون هناك حل آخر ما دامت المناقشة أصبحت في النهاية بين من يسمونهم بالغوغاء ، و الخليفة كان يحكم لصالح غوغاء بني أمية ؟

والآن فلنفرض أن الفقهاء كانوا قد وضعوا للخلافة القواعد التي ذكرناها : تحديد المدة ليعود الأمر إلى الأمة كل خمس أو ست سنوات ، فإما جددت ، وإما لم تجدد ، وتحديد مدى السلطة فلا يكون لل الخليفة الحق في أن يحاكم مواطناً مسلماً ويحكم عليه بما يريد ، بل تكون هناك هيئة قضائية هي التي تتولى

ذلك، وكذلك تحديد مدى سلطان الخليفة على أموال الأمة ، فلا يتصرف فيها على هواه ، ثم هل يجوز أن يكون في عالم الإسلام أكثر من خليفة في الوقت نفسه ؟ وماذا يكون العمل مع رجل - أو جماعة - ترفض البيعة ؟ وإذا نحن عدنا إلى أيام الرسول - صلوات الله عليه - وجدنا الإجابة عن هذه الأسئلة كلها .

فهو بشر ورسول وإمام للأمة ، وهذه أصول لا يملك خلالها الرسول شيئاً ، فهذه إرادة الله الذي خلقه وأعده : لكي يكوننبياً ورسولاً وإماماً ، ولكن الرسول لم يكن يتدخل في أمور الدنيا إلا على سبيل الاجتهاد ، وكان مستعداً دائماً للتخلي عن رأيه في هذه المسائل إذا هي لم تعجب الأمة ، وهو هنا لم يكن حاكماً بالمعنى الذي رأه عثمان ، ثم إن رسول الله لم يجد بأيّاً في أ يوجد في الأمة ملك على ناحية من النواحي مادام هذا الملك وهو الجندي وأخوه صاحباً عمان - سائرين على أصو الإسلام مؤديين للصدقات ، ومadam الناس راضين عنهم .

أما الأموال فلم يكن في يد رسول الله منها شيء إلا الضروري الذي تمس إليه حاجاته وحاجات أهله ، وهنا نجد أن رسول الله ﷺ كان طبيعياً جداً وبعيداً عن التكلف . فقد كان يأكل ما حضر ، فإذا لم يجد إلا الخل والزيت أكل الخل والزيت شاكراً الله ، وإذا وجد لحمًا نهش منه في لذة حتى يشبع ويشرك الله ، ولا معنى - إذن - للقول بأن رسول الله ﷺ خرج من الدين ولم يشبع من خبز الشعير زهداً فيه . حقاً إنه كان مستعداً للزهد فيه ، ولكن الواقع أن خبز الشعير كان موجوداً دائماً .

إن محمدًا ﷺ كان رجلاً متنقلًا ، فهو في خدمة الرسالة أولاً وقبل كل شيء ، فهو هنا اليوم ، وهناك غداً ، فلماذا يأمر نساءه بأن يطبخن أي طعام ؟

ثم إن رسول الله كان حريصاً على لا يضع قواعد للحكم؛ لكيلا يقييد حرية المسلمين من بعده . فماذا فعل مثلاً مع الثلاثة الذين تخلفوا عن الخروج معه للغزو في غزوة تبوك ، وهم مستطיעون ؟ هل أودعهم السجن ؟ بلـى ، ولكن أي سجن ! لقد خاصمهم وأمر الناس أن يخاصموهم ، فامتنع الناس من الكلام معهم ، حتى نساؤهم لم يسمح لهم باقتراب منهن ، فأصبحوا طلقاء سجيناء . وهذا أقسى السجن وأشدـه ألمـاً : لأن المسجون لا يعدـم إنسـانـاً يعطـف عـلـيـه ويـهـمـس فـى أـذـنـه : لا بـأـسـ عـلـيـكـ ! سـوـفـ تـنـتـهـى هـذـهـ المـدـةـ وـتـعـوـدـ إـلـىـ الـحـرـيـةـ ! ولكن هـؤـلـاءـ المـخـالـفـينـ حـرـمـواـ حـتـىـ مـنـ هـذـهـ الـكـلـمـةـ أوـ أـمـثـالـهـ ، فـأـصـبـحـواـ فـيـ أـقـسـىـ سـجـنـ فـىـ الدـنـيـاـ حـتـىـ كـادـواـ يـجـنـونـ ، وـعـنـدـمـاـ اـنـتـهـتـ مـدـةـ الـعـقـوبـةـ التـىـ قـرـرـهـ اللـهـ - سـبـحـانـهـ - وـنـزـلـ الـعـفـوـ عـنـهـمـ عـلـىـ رـسـولـ اللـهـ لـمـ يـصـدـقـواـ الـخـبـرـ إـلـاـ عـنـدـمـاـ سـمـعـوهـ مـنـ رـسـولـ اللـهـ ﷺ.

ومـاـذاـ فـعـلـ رـسـولـ اللـهـ بـأـبـيـ لـبـابـةـ بـنـ عـبـدـ الـمـنـذـرـ الـذـىـ خـالـفـ أـمـرـ رـسـولـ اللـهـ وـأـشـارـ بـيـدـهـ وـهـوـ يـتـحدـثـ إـلـىـ بـنـىـ قـرـيـظـةـ إـشـارـةـ يـفـهـمـ مـنـهـاـ أـنـ الرـسـولـ قـاتـلـهـ إـذـاـ لـمـ يـسـتـسـلـمـوـاـ اللـهـ ؟ـ وـلـمـ يـكـنـ رـسـولـ اللـهـ قـدـ ذـكـرـ مـنـ ذـلـكـ شـيـئـاـ ،ـ فـلـمـ تـبـيـنـ خـطـأـهـ ذـهـبـ فـرـبـطـ نـفـسـهـ فـيـ أـحـدـ أـعـمـدـةـ الـمـسـجـدـ -ـ وـكـانـتـ كـلـهاـ نـخـلـاـ -ـ وـأـصـرـ عـلـىـ أـنـ

يُبَقِّى هكذا حتى يغفر له الرسول ، ومع أن الرسول ﷺ قال : أما لو جاءنى فاستغرت له ، فاما إذا فعل ما فعل فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه ، فلما تاب الله عليه وأبلغ رسول الله بذلك كان أبو لبابة مقيداً تجاه باب بيت أم سلمة أم المؤمنين ، فاستأذنت رسول الله فى أن تبشره ، فاذن لها ، وسار الناس إليه ليطلقوه ، فقال : لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يطلقنى بيده . فلما مر رسول الله ﷺ عليه خارجاً إلى الصبح أطلقه . فانظر كيف كان رسول الله يعاقب الناس أو قل يترك الناس ليعاقبوا أنفسهم ، ويظلوا كذلك حتى يكون الله هو الذى يتوب عليهم ، ويصر الناس برغم ذلك حتى يكون تنفيذ التوبة على يد الرسول ﷺ .

وطبعاً ، لم يكن أحد بعد رسول الله يستطيع أن يفعل ذلك ، ولكن الذى يستوقف نظرنا هو الأسلوب الإنسانى الرفيع الذى كان الرسول يتبعه . وهذا ما كان الناس يستطيعون اتباعه فيه . أما أن يأمر معاوية بقتل حجر بن عدى مجرد أنه كان يرفض أن يسمع لعن على بن أبي طالب من على المنبر فتلك كانت مخالفة لروح الإسلام . وهذا كان ينبغى أن يتدخل الفقهاء ويضعوا القواعد التى تحدد - بالقانون - سلطان الخليفة ، أما أن يقال : إن مالك بن أنس قال : إن طلاق المكره لا يقع ؛ لأنك مكره ، ويطبق ذلك على بيعة معاوية فليس هذا بتشريع ، وأمثال هذه العبارات هى التى جعلت الناس يقولون : إن مالكا

قال : إنه يجوز لل الخليفة أن يقتل ثلث الأمة لينقذ الثلث ! وأمثال هذه الأحكام غير الصحيحة هي التي جعلت أنكَد آل عثمان وهو السلطان سليم الأول يأو وظ يتولى الخلافة بعد أن قتل أباه وأخا حميي وكل إخوته ، لقد قتل هذا الرجل صدره الأعظم في دقيقة لكلمة حق قالها . ثم يقولون لنا : آه لو عاش هذا الرجل فوق الأربعين لفتح إنجلترا ! ونحن نقول : لا والله ما ننتمني لو فتحنا إنجلترا على يد هذا الدموي ؛ لأن الأمر في هذه الحالة ما كان ليكون فتحا بل حمام دم ، والإسلام لا يعرف حمامات الدم . إن الأتقياء يقولون : إن الله سلط على هذا الرجل - سليم الأول - أبشع مرض في الدنيا حتى كان لحم ظهره يسقط قطعاً حتى مات ، وخلفه ابنه سليمان المسمى بالقانوني ، وكان هو الآخر هباباً برغم سمعته ، فقد أنزل بنا كوارث ، ويكتفى أن نذكر أنه تولى بعد هزيمة ليبانتو بسنوات ، وهزيمة ليبانتو وقعت لأن سفن الأسطول العثماني كانت شراعية تقاتل سفن أوربا التي كانت تسير بالبخار ، وأبسط ما كان هذا الرجل يستطيع أن يفعله هو أن يبعث رجالاً يدرسون حكاية البخار هذه ويدخلها في تركيا ، أما أن يقول أحد مؤرخي الأتراك : إن الذي هزم الإسلام في معركة ليبانتو كان البخار لا الأوروبيون فدفاع تافه وغير مقبول .

★ ★ ★

الفصل الثامن

عليينا أن ننبه القراء إلى ضرورة البحث عن حقائق الأمور

أعتقد أن ما قلته إلى الآن عن النصوص الأولى لفتنة عثمان فيه كفاية ، فأننا لم أشأ أن أحقيق هذا الحادث أو أبحث عن الحقيقة فيه ، وإنما أردت أن أقول للقارئ : إننا - مع الأسف الشديد - لا نقرأ القراءة الكافية قبل أن نكتب . وبين يدي الآن كتاب اسمه « الحسين بن علي » تأليف توفيق أبو علم ، والكتاب صغير ولكن كله **نُفُولٌ** ، وهذه هي الطبعة الثالثة ؛ لأن مثل هذا الكتاب يباع بسهولة تامة ؛ فإن الناس كلهم يحبون الحسين . رضي الله تعالى عنه - لأن يزيد الأموي أمر بقتله فقتل ، ولكن لا المؤلف ولا غيره سأل نفسه : ولماذا قتل الحسين ؟ والجواب : لأنه اتجه إلى العراق لطلب الخلافة .

ثم نسأل : وبأى حق طالب بالخلافة ؟ إنه كان حقًا شابًا نقىًّا عاقلاً هادئاً ، ولكن أكان له الحق في طلب الخلافة ؟ يقولون : أجل ، كان له الحق ، ونسأله : ولماذا ؟ والجواب : لأنه

ابن على بن أبي طالب - كرم الله وجهه - وسائل : وهل هذا كان يكفي لترشيحه للخلافة ؟ يجيبون : نعم ، ولم لا ؟ ألم يكن يزيد بن معاوية خليفة ، وطبعاً الحسين خير منه ؟ والسؤال : لماذا ؟ والجواب الذى يجرى على كل لسان : لأنه كان أفضل من يزيد ، وهذا حق ، ولكن هل هذا يكفى لكي يكون خليفة ؟ والجواب الذى أجيبه أنا ولن تجده فى كتاب الأستاذ توفيق أبو علم : لا .. هذا لا يكفى .. وأنا أقول ذلك لأننى أقرأ النصوص فلا أجد فيها دليلاً واحداً على أن الحسين - رضى الله عنه - كان من الممكن أن يكون خليفة قوياً وقدراً على القيام بمسئولييات الخلافة .

والكتاب الذى أحدثك عنه كله كلام جميل أو ما نسميه نحن « إنشاء » ، فأنت تقرأ فيه مثلاً أن رسول الله ﷺ عندما أخذ الحسين بين يديه لأول ولادته أذن في أذنه ، وتعليقًا على ذلك يقول الأستاذ توفيق أبو علم : أرسل رسول الله ﷺ في ضمير الفتى هذا النداء : ليظل أنشودة نفسه اللاشعورية ، وبذلك أقام في نفسه معبداً ينبع بأحساس التقوى ، وفي ضميره شعوراً يفيض بأحساس الفضيلة ، ثم لا نختلف عليه ، كما أقام في نفسه إذ أرسل هذه الكلمة (الأذان) الهادئة مشعلاً يضيء عليه ، فلا تخالطه ظلامية أو دجنة في سبيل حياته المطمئنة ..

وهذا كلام لطيف ، ولكنه غير بلاغي ؛ لأن البلاغة هي مطابقة الكلام للمعنى المطلوب ، وليس هنا معنى مطلوب ، أو إننا نحن

لا نعرف أى معنى مطلوب هنا ، والذى يقرأ هذا الكلام يقرؤه
محبة فى الحسين لا لكتى يفهم شيئاً .

وإذا أردت الحق - ونحن نبحث هنا عن الحق - فهذا ...
يا سيدى كلام فارغ ؛ لأن الكلام الفارغ هو الكلام الذى لا يتكون
إلا من الفاظ خالية من المعنى أو الفائدة .

واقرأ السطور التالية ، وقل لى إن كنت تجد لها وصفاً غير
أنها كلام فارغ !! فى تاريخ البلاذرى عن محمد بن يزيد المبرد
النحوى بسندہ قال : انصرف النبى ﷺ إلى منزل فاطمة فرأها
قائمة خلف بابها ، فقال : ما بال حبيبتي ها هنا ؟ فقالت : إن
ابنيك خرجا عدوة وقد غم على قبرهما ، فمضى رسول الله ﷺ
يقفو آثارهما حتى صار إلى كهف جبل فوجدهما نائمين وحية
مطوقة عند رأسيهما ، فأخذ حجراً وأهوى إليها ، فقالت : السلام
عليك يا رسول الله ، والله ما نمت عند رأسيهما إلا حراسة لهما !
فدعها لها بخير ، ثم حمل الحسين على كتفه اليمنى والحسن على
كتفه اليسرى ، فنزل جبرايل فأخذ الحسين ، فكانا بعد ذلك
يفتخران فيقول الحسن : حملنى خير أهل الأرض ، ويقول
الحسين : حملنى خير أهل السماء ، وفي ذلك يقول حسان بن
ثابت .

فجاء وقد ركب اعاتقيه فنفع المطيّة والراكبان
(ص ٢٧ من الكتاب) .

وَقُلْ لِي : بِمَاذَا تَخْرُجُ مِنْ هَذَا الْخَبْرِ ؟
لَا شَيْءٌ ، بَلْ إِنَّهُ لَا يَصْدِقُ حَتَّىٰ بَيْتُ الشِّعْرِ فِي نِهايَةِ الْخَبْرِ
لَيْسَ شِعْرًا الْبَتَّةَ .

وأحب أن أقول للسيد توفيق أبو علم : لا يضايقك أن أقول :
إن كتابك عن الحسين كلام فارغ ، فمعظم ما تقرأ من الكتب عن
الحسين وأخيه الحسن كلام فارغ ، و(برافو) عليك أن
استطعت أن تطبع هذا الكلام الفارغ ثلاث مرات ، وكفى إلى هنا
عن عثمان وعلى والحسن والحسين .

وننتقل إلى موضوع آخر من موضوعات التاريخ الإسلامي
الحافلة بما يسىء إلينا ، ولا بد من أن نفتح عيوننا عندما
نقرؤها : لأن المسألة هنا ليست مسألة الخطأ أو الكذب في
الخبر ، بل إن هذه الأخبار تضر بعقولنا : لأننا تعودنا قراءة
الأخبار والحكایات الكاذبة الفارغة وقبولها ، مما يؤدي بعقولنا
في النهاية إلى الهيافة والهشاشة ، ويعطى القارئ فكرة سيئة
عن الإسلام والمسلمين .

يقول الفخرى في كتاب الآداب السلطانية متحدثاً عن الوليد
أين يزيد بن عبد الملك بن مروان عاشر خلفاء بنى أمية (١٢٦ هـ / ٧٤٣ م) : وقد بلغ من استهتار الوليد بالمعاصي أن قال له
أخوه هشام يوماً : والله لا أدرى إن كنت على الإسلام أم لا . مما

يحكى عن الوليد أنه استفتح فالأ فى المصحف فخرج ﴿وَاسْتَفْتَحُوا
وَخَابَ كُلُّ جَبَارٍ عَنِيدٍ﴾ (ابراهيم - الآية : ١٥) .

فاللقاء وجعله هدفاً وأخذ يرشقه بسهامه وهو يقول :

تَهْدِنِي بِجَبَارٍ عَنِيدٍ نَعَمْ أَنَا ذَاكَ جَبَارٌ عَنِيدٍ
إِذَا مَا جَاءَتِ رَبِّكَ يَوْمَ بَغْثٍ فَقُلْ: يَارَبُّ، حَرَقْنِي الْوَلِيدُ

(الفخرى : الأدب السلطانية ، ص ١٢١ - ١٢٢)

وأنا أقول : من الممكن أن يكون هناك خليفة مستهتر أو جريء أو وقح أو سكير أو ما شئت ، أما أن يكون هناك خليفة كافر فمن المستحيل !

ومن المستحيل علينا أن نقبل هذا الخبر ؛ لأنه ليس إساءة إلى الوليد بن يزيد فحسب ، بل إهانة لعقولنا أيضاً . ومهما كانت كراهية الواحد منا لبني أمية فإن الأمر ينبغي ألا يصل بنا إلى احتقار عقولنا وإهانة أنفسنا ، وعند طبع كتاب الفخرى ينبغي أن ننبه القارئ في الهاامش إلى أن مثل هذا الخبر مستحيل وغير مقبول .

وبمناسبة تعيين عبد الملك بن مروان للحجاج بن يوسف الثقفي يقول اليعقوبي (ج ٢ ص ٢٧٣) : كتب إليه عبد الملك كتاباً بخطه يقول : يا حجاج ، فقد وليتك العراقين صدقة (العراقان هما العراق وفارس) فإذا أتيت الكوفة فطأها وطأة

يتضائل منها أهل البصرة ، وإياك هو يبني الحجاز ؛ فإن القائل هناك يقول ألفاً ولا يقطع بهن حرفًا ، وقد رميت الغرض الأقصى فارمه بنفسك وأرد ما أردته بك والسلام ، (يريد منه أن يكون عنيفًا مع أهل العراق ولينا مع أهل الحجاز ؛ لأن أهل الحجاز يتكلمون كثيراً ولا يعملون شيئاً . وقد رميت العراق بأكبر ما عندي - وهو أنت - فارمه بنفسك وحقق لى ما أريد) .

ويستمر اليعقوبي في رواية الخبر فيقول : فلما قدم الكوفة صعد المنبر متلثماً بعمامته متذبذباً قوسه وكنانته . فجلس على المنبر ملياً لا يتكلم حتى هموا أن يحصبوه ، ثم قال : « يا أهل العراق ! يا أهل الشقاق والنفاق والمراء ومساوي الأخلاق ! إن أمير المؤمنين قتل كنانته ، فعجمها عوداً عوداً ، فوجدني أمرها عوداً وأصلبها مكسراً ، فرمأكم بي ، وإنه قدنني عليكم سوطاً وسيفاً ، فسقط السوط ، وبقي السيف » وتكلم بكلام فيه توعيد وتهديد ، ثم نزل وهو يقول :

أنا ابن جلا وطلع الثناء متى أضع العمامة تعرفوني والخبر مشهور جداً ووارد في كل كتبنا ، وبعضهم يزيد عليه تفاصيل غير معقولة ، فيقول ابن قتيبة الدينوري في كتاب الإمامة والسياسة (ج ٢ ص ٢٥ - ٢٦) : إنه بعد أن قال الحاج هذا الكلام حصبه الناس ، فلما أكثروا عليه خلع عمamته فوضعها على ركبته ، فجعلت السيوف تبرى الرقاب ، فلما سمع

الخارجون الكائنوں علی الابواب وقیعہ الداخلين ورأوا تسارع الناس إلى الخروج تلقوهم بالسيوف .

فَرَوُّعُوا الناس إلى جوف المسجد (أخذوا في الفرار وتعقبهم الجن) ولم يتركوا خارجاً يخرج ، فقتل منهم بضعة وسبعون ألفاً حتى سالت الدماء إلى باب المسجد وإلى السكك .

والخبر مشهور جداً حتى لا تكاد تجد من يشك فيه ، وعندما تقرؤه عند الطبرى مثلاً فإنك تجده يقع هناك فى صفحات .

ولكننا نقول : إن صلب الخبر معقول ، أما التفاصيل فلا ؛ فالحجاج هدد أهل الكوفة ، وهذا معقول . أما أن يقول لهم إنكم أهل الشقاوة والنفاق والمراق وسوء الأخلاق ، فصدقنى ؛ إننا نحن الذين نعرف الحجاج نستبعد ذلك .

فقد كان الحجاج في حقيقة أمره رجلاً مسلماً مؤمناً ولا يمكن أن يصدر عنه هذا الكلام في مخاطبة ناس كان عليه الآن أولاً أن يستدرجهم وأن يهدئ خواطرهم ، فهو لاء ليسوا كفرا ولا أعداء الإسلام ، إنما هم ناس لا ترضيهم سياسة بنى أمية ، فالمطلوب - إذن - هو إفهامهم سياسة بنى أمية أولاً والتقرب إليهم ، أما القول بأن الحجاج قتل منهم فوق السبعين ألفاً فكلام غير مقبول ، وأين هو المسجد الذي يسع سبعين ألفاً ؟

لقد كان الحجاج رجل دولة ، أي رجلاً يخدم الدولة ، وكان المطلوب منه أن يسترضي أهل الكوفة لا أن ينزل بهم مذبحة ،

ثم إن الحجاج كان - رغم ما يقال لك - رجلاً تقىّاً له دور في تدوين المصاحف ، وكان رجلاً معمراً هو الذي بنى مدينة واسط ، وهناك أخبار تدل على أنه كان رجلاً لطيفاً إذا لم يكن هناك ما يدعو إلى الغضب ، وهو لم يكن مجرد رجل قاس يريق الدماء كالجنون ، بل كان رجل سياسة ، وله أثر كبير ودور عظيم في حرب الترك ونشر الإسلام ، وكان رجلاً مصلياً صائماً مزكياً ، ولكنه - كما قلت لك - رجل دولة لا يتسامل مع الخارجين على الدولة ، ولم يكن كل الذين حضروا في المسجد خارجين على بنى أمية ، بل كان فيهم ناس كثيرون بعيدون عن السياسة مثلك ومثلك وقد أتوا للصلوة ، فما معنى قتلهم ؟

أساس الخبر إذن سليم ، أما التفاصيل فهي في كل كتاب على صورة ، وكل ما يرمي إليه المؤرخون هو تشويه سمعة بنى أمية ، ونحن اليوم لا نريد تشويه سمعة بنى أمية ، بل نحن نريد الحقائق ؛ فإن بنى أمية لم يكونوا بالسوء الذي نتصوره ، وهل يمكن أن يكون عبد الملك بن مروان بن الحكم رجلاً شريراً ثم يفتح تلك الفتوح كلها ؟ لقد كان يحارب الخارجين عليه الذين كانوا يريدون قتله والحلول في الخلافة محله مثل عبد الله بن الزبير ومصعب بن الزبير والمخтар بن عبيد الثقفي ، ولم يكن فيهم في الحق من يساويه ، وإذا كان قد أقام الحجاج على العراق . فهو لم يقمه ليسفك الدماء بل ليهدئ الأحوال ، ويرد الناس إلى العقل ، وهو - من غير شك - كان

أصلح للخلافة من عبد الله بن الزبير الذى كان بخيلاً قصير النظر ، وفى يوم من الأيام دخلت فى طاعته مصر وال العراق واليمن إلى جانب الحجاز ، ولم يبق مع عبد الملك إلا الشام ثم مصر ، وإذا كان قد انتصر فى النهاية فلأنه كان أفضل وأقدر وأحكم من غيره ؛ ولذلك كان ابنه الوليد بن عبد الملك قد أتم فتح المغرب وفتح الأندلس ، وأقام قتيبة بن مسلم على خراسان ، ففتح بلاد ما وراء النهر ، وقام بأربع حملات تعد من مفاخر تاريخنا الإسلامي . وأقام محمد بن القاسم على الهند ، فما معنى الحملة عليه وإنكار فضله للعداء الذى كان بينه وبين منافسيه السياسيين من العلوين . وماذا كنا نطلب منه ؟ أن يتنازل عن الخلافة لخصومه ؟ وهل كان هؤلاء الخصوم أحسن منه ؟

وتحت عنوان « مثالب بنى أمية » يقول المقرizi فى كتاب « النزاع والتناقض فيما بين بنى أمية وبنى هاشم » (تحقيق كاتب هذا المقال ونشر دار المعارف ١٩٨٩ فى ص ٣٧ وما بعدها) : فقد عرفنا كيف كان أبو سفيان فى عداوته للنبي ﷺ وفي محاربته وفي إجلابه عليه وفي غزوه إياه ، وعرفنا إسلامه كيف أسلم وخلاصته كيف خلص ، على أنه أسلم على يد العباس (وقد أثبتنا أن ذلك غير صحيح) والعباس هو الذى منع الناس من قتلته وجاء به رديفاً (أى خلفه على الدابة) إلى النبي ﷺ وسأله أن يشرفه ويكرمه وينوه به ، وتلك يد بيضاء ، ونعمة غراء ، ومقام مشهور ، وخير غير منكور ، فكان

جزاء ذلك من بنيه أن حاربوا عليا ، وسموا الحسن ، وقتلوا الحسين ، وحملوا النساء على الأقتاب (أى نساء بيت الرسول ﷺ والأقتاب جمع قتب ، والقتب الرجل الصغير على قدر سنام البعير ، حواسر ، والحاسرة من النساء هي من أقت عنها ثيابها ، وهى المكشوفة الرأس والذراعين) وكشفوا عورة على ابن الحسين حين أشكل عليهم بلوغه ، كما يصنع بذرارى المشركين إذا دخلت ديارهم عنوة ، وبعث معاوية بن أبي سفيان إلى اليمن بسر بن أبي أرطأة (وكان من كبار أعداء بنى هاشم وأنصار بنى أمية) فقتل ابني عبيد الله بن العباس ، وهم غلامان لم يبلغوا الحلم ، فقالت أمهما عائشة بنت عبد الله بن عبد المدان ترثيهم :

يا من أحس بُنَيَّ اللذين هما
كالدرتین تشظى عنهم الصدف
أنحى على ودجى طفلٍ مرهفة
مطروحة وعظيم الإثم يقترف

وقتلوا لصلب على بن أبي طالب ولصلب عقيل بن أبي
طالب تسعه : ولذلك قالت نائحتهم :

يا عين جودى بعبرة وعوبل
واندبى - إن ندبت - آل الرسول
تسعة منهم لصلب على
قد اصيروا وتسعة لعقيل
هذا وهم يزعمون أن عقلاً أعن معاوية على علىّ ، فكانوا
كاذبين ، فما أولاهم بالكذب ، وإن كانوا صادقين مما أجازوه
خيراً إذ ضربوا عنق مسلم بن عقيل صبراً ، وقتلوا معه هانئ بن
عروة ؛ لأنه آواه ونصره .

وأكلت هند كبد حمزة ، فمنهم آكلة الأكباد ، ومنهم كهف النفاق ، ونقرروا بالقضيب بين ثنيتي الحسين ، ونبشوا قبر زيد ابن الحسين بن على بن أبي طالب (الإمام الرابع من أئمة الزيدية) ، وهو الذي تنسب إليه فرقة الزيدية (وصلبوه وألقوا رأسه في عرصه الدار تطأه الأقدام وتنقر دماغه الدجاج ، وقال شاعر بنى أمية :

صلينا لكم زيداً على جذع نخلة ولم نر مهدياً على الجذع يصلب

وقتلوا يحيى بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبي طالب وأسموا قاتله ثائر مروان (أى الآخذ بثار مروان ، الثائر) ، الذي لا يبقى على شيء حتى يدرك ثأره ، وناصر (الدين) ، وضربوا على بن عبد الله بن العباس بالسياط مرتين على أن تزوج بنت عميه الجعفرية التي كانت عند عبد الملك بن مروان (الملقب بالسجاد لتقاه) وعلى أن حملوه قتل سليمان ، وسموا أبا هاشم بن محمد بن على (وهو عبد الله بن محمد بن على بن أبي طالب) ويكنى أبا هاشم ، ويقال : إن سليمان بن عبد الملك دس له شيئاً فمات منه ؛ لأنه كان يخشى منه كمنافس سياسي ، ويقال : إنه عندما أحس باقتراب أجله اجتهد في الوصول إلى الحمية حتى يتنازل عن حقه في الخلافة إلى محمد بن على بن عبد الله بن العباس (وقد درج المؤرخون على اعتبار هذا التنازل أو هذه الوصية أساساً شرعياً لادعاء العباسيين الحق في الخلافة) وضرب سليمان بن حبيب بن المهلب أبا جعفر

المنصور بالسياط قبل الخلافة ، وقتل مروان الحمار (وهو آخر خلفاء بنى أمية) الإمام إبراهيم بن محمد بن على ، أدخل رأسه في جراب نورة (والنورة هي الحجر الجيري ، أو أخلاط من أملاح الكالسيوم والباريوم تستخدم لإزالة الشعر ، والمقصود أنهم أدخلوا رأسه في جراب مملوء بالجير وتركوه حتى اختنق) حتى مات .

وقتلوا يوم الحرة عون بن عبد الله بن جعفر ، وقتلوا يوم لف (وهو يوم كربلاء) مع الحسين أبا بكر بن الحسين بن فخر (بن أبي طالب) .

إلى آخر هذه الجرائم (ص ٣٤ من النزاع والتناقض) وهذه كلها إن صدقت فهي جرائم سياسية ، أي أن جميع هؤلاء المقتولين كانوا منافسين سياسيين لبني أمية يريدون انتزاع الخلافة منهم ، والسياسة تعمي البصر ، وتضلل الذهن ، وتتملا القلب قسوة ، وتجعل الإنسان يرتكب جرائم لا توصف ، وفي العادة لا يكون صاحب الخلافة أو صاحب السلطان رجلاً واحداً، بل يكون وراءه ومهله ناس أصحاب مصلحة في أن يظل السلطان في يده ، وحتى لو مال هو إلى الصلح والتفاهم فإن الذين حوله لا يرضون ولا يتأنرون عن قتله ، وما دام الإنسان قد دخل السياسة وطلب السلطان فهو المسئول عما يصيبه ، وقد سبق أن ذكرنا أن بنى أمية إذا لم يكونوا أصحاب حق في الخلافة مما هو الأساس الشرعي لمطالبة العلوبيين بالخلافة ؟

وهل إذا مات على بن أبي طالب ورث الحق في الخلافة أولاده :
الحسن ثم الحسين ثم زيد ، وهكذا ؟ كل ذلك نشأ - كما قلنا - من
أن أحداً لم يضع للخلافة تشريعاً ، بل الكل هنا يجمعون على
حق أبناء على بن أبي طالب في الخلافة .

ثم : هل نحن واثقون من أن كل العلوين كانوا أفضلاً
 وأنهم لو كانوا قد تولوا الخلافة لما اقترفوا مثل هذه الجرائم
إليك فاقرأ أخبار واحد من أولئك العلوين « إبراهيم بن الحسن
ابن زيد فولد إبراهيم وله عقب ومحمد بن إبراهيم فمن ولد
محمد هذا ؟ محمد بن الحسن بن محمد بن إبراهيم بن الحسن
ابن زيد بن الحسن بن على بن أبي طالب قام بالمدينة ، وكان من
أفسق الناس : شرب الخمر علانية في مسجد النبي ﷺ نهاراً ،
وفسق فيه بقيمة لبعض أهل المدينة ، وقتل أهل المدينة بالسيف
والجوع ، وكان قيامه أيام المعتمد ، وقتل أهل المدينة ، ولم يصل
طوال مدته فيها جمعة ولا جماعة » .

(ابن حزم - جمهرة أنساب العرب ص ٣٩)

فهذا يا سيدى علوى ، وهذا ما فعل !

أقول : إن المشكلة هنا مشكلة عدم وجود دستور للخلافة
وحق الأمة في انتخاب الخلافة ضاع بعد أيام عمر ؛ لأن الخلافة
أيام أبي بكر كانت أباً بكر ، وأيام عمر كانت عمر ، أما أيام

عثمان فقد أصبحت عثمان وآل عثمان ، وهذا هو ما أنكرته الأمة ،
ولكن أحداً لم يصح ذلك الخطأ تصحياً شرعياً بوضع
دستور ، فأصبحت المسألة مسألة عنف وقسوة وغدر وغش ،
وهذا هو ما ينبغي أن نذكره دائماً ؛ حتى لا نصيب الإسلام بأذى
ونلحق به شرور الناس .



الفصل التاسع

الجاحظ والفكر السياسي

لأشك في أن الجاحظ - أبا عثمان عمرو بن بحر - هو أستاذ العرب الأول ، فقد كان ناثراً مبدعاً في تاريخ أدبي يكثر فيه النثر الجيد ، وكان يكتب في أسلوب عربي بديع واضح وجميل، لا سجع فيه ، ولا تضييع لوقت القارئ أو إفساداً لعقله ، وكان واسع الاطلاع جداً ، فهو لا يكاد يترك موضوعاً مما يهم الناس إلا كتب فيه كتابة ممتازة ، فهو أستاذ عصره ، وأستاذ الناثرين من بعده ، ونحن عندما نصفه بأنه المعلم الأول (للعرب) فنحن لا نقلد ما قيل في أرسطو أو غيره ، وإنما نحن نقول الحق ؛ فإن الرجل كان أستاداً ، وكان يكتب بقلم أستاد ، ويصدر عن فكر أستاد ، ويشعر بمسؤوليته كمفكر مسئول عن تثقيف شعبه ..

وقد عاش في النصف الأول من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، أى في ظل العباسيين (٧٧٥ - ٨٦٨) وكان لابد - لكي يعيش - من أن يؤيدهم سياسياً ، ومن هنا فإننا

نجده يحمل على بنى أمية حملة عنيفة . بل هو يصفهم بالثابتة ، ويريد بذلك أنهم جماعة ثبتت دون أصل ، ووصلت إلى الخلافة دون حق ، وهنا نجد الجاحظ لا يتعرض لمسألة تشريع الخلافة ، وحتى لو خطط بباله الكلام في هذا الموضوع فما كان ليتكلم ؛ فإن الأمويين إذا كانوا قد وصلوا إلى الخلافة بالغدر واللؤم والخبث فإن السلامـة - إذن - في البعد عن هذا الموضوع .

وقد كتب الجاحظ رسالة عن بنى أمية حمل عليهم فيها بكل عنف ، وهذا لا يدهشنا ، ولكن الذي يدهشنا ويجعلنا نعجب بذكائه وقدرته على الخروج من المأزق مدخله إلى الموضوع ببراعة نادرة - فإن عثمان كان من بنى أمية وهو الذي مكن لبني أمية من الخلافة ، فإذا كنت حاملاً على بنى أمية ، فكان لابد من أن تشير - ولو مجرد إشارة - إلى تمسك عثمان بالخلافة تمسكاً لا يؤيده فيه شيء أو أحد ، وكان لابد من أن نقول : إن هذا التمسك كان سبب مقتله ، ولو أنه تنازل عن الخلافة لما أصابه ضرر ، ولكنه تمسك وألح في ذلك ، وكان الذين يناقشوته ناساً من عامة الناس ، أي ناساً بدون ثقافة أو فكر منظم ، إنما هم كانوا - كما رأينا - جنداً غاضبين بسبب قلة المال ، وكانوا يعتقدون أن بنى أمية - خلف عثمان - يسرقون أموال الدولة ويحرمونهم منها ، أو كانوا كذلك لا يرضون عز مذهب عمر في التفريق بين المسلمين في الأعطية .

ومن هؤلاء الناس يمكن أن يصدر أى شيء ، وقد قتلوا عثمان ؛ لأنهم جهله ، ولأنهم لم يعرفوا قدر الصحابة . ومهما كان الأمر فإن عثمان يتتحمل بعض المسئولية .

ولكن الجاحظ أذكى من أن يضع على عثمان بعض المسئولية ، فعثمان صاحبى جليل وحبيب إلى رسول الله ﷺ ، ولا يرضى مسلم على أن يوجه إليه نقد ، وقد يكون الجاحظ قد رأى أننا - مهما أنكرنا من مسئوليته عن مقتله - فلا بد أيضاً من أن نرى أنه أخطأ - ولو خطأ يسيراً - عندما رفض أن يستقبل عندما ضاق الناس وضاقوا به ، وهو - لاشك - مسئول عن ولاته من بنى أمية وما كانوا يفعلون بالناس . وقد تكون هناك مبالغات ، ولكن لا بد أن نقول : إن الكثير من بنى أمية - وخاصة المروانيين منهم - كانوا بعيدين عن الرسول ﷺ ؛ فقد دخلوا الإسلام في العام الثامن للهجرة وما بعده ، ثم إن رسول الله ﷺ أبعد أباهم مروان بن محمد عن المدينة ، فنشأ أولاده على كراهة بنى هاشم ، ثم إن معاوية بن أبي سفيان كان لا يحب بنى هاشم ، وليس أدل على ذلك من أنه قتل حُبْر بن عدى مجرد أن هذا الرجل كان شهماً ، وقد أنكر أن يسب على بن أبي طالب - كرم الله وجهه - من على المنابر . لا شك في أن الجاحظ كان يعرف ذلك كلـه ، ولكنه كان أذكى من أن يلقي على عثمان - رضي الله عنه - أى مسئولية ؛ ولهذا فهو يمر على ذلك كلـه مروراً سريعاً ، ويقف عند على بن أبي طالب وبنيه ، ويطلق

لنفسه العنان في إظهار العطف عليهم والحزن على ما أصابهم ، فهذا شيء يحمد الناس له . وكلنا - إذا جئنا إلى العاطفة - علويون وحسينيون وحسينيون ، والجاحظ هنا يستعمل كل بلاغته وذكائه ، ويقول مثلاً : « ولكن الناس كانوا على طبقات مختلفة ومراتب متباينة ، من قبائل (أى بدو) ومن شاد على عضده (أى ناصر لعثمان) ومن خاذل عن نصرته ، والعاجز ناصر بإرادته ومطيع بحسن نيته ، وإنما الشك هنا فيه وفي خاذله ، ومن أراد عزله والاستبدال به ، فأما قاتله والمعين على دمه والمريد لذلك منه فضلًا لا يشك فيهم ، ومُرَأءٌ لا امتراء في حكمهم ، على أن هذا لم يعد منهم الفجور ، إما على سوء تأويل ، وإما على تعمد للشقاء . ثم ما زالت الفتنة متصلة ، والحروب متراوفة ، كحرب الجمل ، ووقائع صفين ، وكيوم النهروان ، وقبل ذلك يوم الزابوقة (ويوم الزابوقة هو يوم الجمل) وهو الموقع القريب من البصرة الذي وقعت فيه الواقعة وفيه أسر ابن حنيف (هو عثمان بن حنيف بن واهب الأنصارى ، وكان من أكابر العلويين وقد قتله بنو أمية) وقتل حكم بن جبلة (بن حسين العبرى من بنى عبد القيس ، صحابى من عمال عثمان على السندي ، وكان ممن عاجوا على عثمان من أجل عبد الله بن عامر وغيره من عماله ، وانضم إلى على فيما بعد) إلى أن قتل أشقاها (يريد عبد الرحمن بن ملجم) على بن أبي طالب - كرم الله وجهه - فأسعفه الله بالشهادة وأوجب لقاتلته النار واللعنة .

إلى ما كان من اعتزال الحسن - عليه السلام - الحكم والحروب وتخلية الأمور عند انتشار أصحابه وما رأى من الخلل في عسكره ، وما عرف من اختلافهم على أبيه وكثرة تلونهم عليه . فعندما استوى معاوية على الملك واستبد على بقية الشورى وعلى جماعة المسلمين من الأنصار والمهاجرين في العام الذي سموه عام الجماعة - وما كان عام جماعة - بل كان عام فرقه وقهراً وجبرية وغلبة ، والعام الذي تحولت فيه الإمامة ملكاً كسررياً ، والخلافة غصباً قيصرياً ولم يعد ذلك أجمع الضلال والفسق .

ثم ما زالت معاصيه من جنس ما حكينا . وعلى منازل ما رتبنا حتى رد قضية رسول الله ﷺ رداً مكتشوفاً ، وجحد حمه جداً ظاهراً في ولد الفراش وما يجب للعاهر مع اجتماع الأمة على أن سمية ما كانت لأبي سفيان فراشاً (أى زوجة) وأنه إنما كان بها عاهراً ، فخرج بذلك عن حكم الفجار إلى حكم الكفار، وليس قتل حجر بن عدى (ابن الأديب الكندي ، قتله معاوية سنة 51 هجرية ، وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك) وإطعام عمرو بن العاص خراج مصر ، وببيعة يزيد الخليع (يريد يزيد ابن معاوية بن أبي سفيان) والاستئثار بالفيء ، واحتياط الولاة على الهوى ، وتعطيل الحدود بالشفاعة والقرابة من جنس جحد الأحكام المنصوصة والشرائع المشهورة والسنن المنصوبة . وهذا كله كلام جميل جداً من ذلك الرجل الأديب البليغ ،

ولكنه لا يقول الحق دائمًا؛ لأن الحق هو أن مسؤولية الكثير من هذه الأفعال تقع على كتف عثمان نفسه، فإن بني أمية فعلوا أمثال ذلك كله في أيامه. فتصور أن رجلاً مثل أبي بكر بن العربي يقول في كتابه «العواصم من القواسم» : إننا لا ينبغي فقط أن نقول كلمة في حق معاوية؛ لأنه كان من الصحابة ، ولا يجوز لمسلم أن ينتقد صحابيًّا . ولنا في ذلك رأى آخر . فنحن نرى أن نحترم كل صحابي بقدر ما أفاد أو قبس من نور رسول الله ﷺ ، وبعض الصحابة مثل أبي بكر وعمر كان خلقهم كله اقتباساً من الرسول ﷺ؛ ولهذا فإننا نحترم كل تصرف لهما وكل كلمة قالاها ، ولكن ما رأيك في عبد الرحمن بن عوف الذي قصد بالفعل أن يخرج عليًّا من الخلافة عندما سأله : هل تتبع خط الرسول وأبي بكر وعمر ؟ فقال على : إنني أتبع خط الرسول ﷺ ، ولكن أبي بكر وعمر صحابيان مثلـي ، والله - سبحانـه - أرسل نبيًّا واحداً هو محمد ﷺ ، ولم يبعث ثلاثة أنبياء؛ فأنا أتبع الرسول وسنته . وأنظر فيما فعل أبو بكر وعمر ، فما رأيت من الصواب في عملهما فعلته ، وإلا فإنـي أجهـد برأـيـي ، وعـمر نـفـسـه لم يـعـجـبـهـ الكـثـيرـ من آرـاءـ أبيـ بـكـرـ فـتـرـكـهـ وـاسـتـشـارـ النـاسـ وـأـخـذـ بـالـشـورـيـ .

وأنا أقول ذلك؛ لأن تحديد الفكر وتحريمه على الناس لا يأتي بخير أبداً . وهذا هو السبب في أن الفكر السياسي عندنا أصيـبـ بشـلـلـ؛ فقد كان الناس - ولا يزالون - يقدـسـونـ جـمـيعـ

الصحابة حتى إنهم لم ينتقدوا منهم أحداً ، ولم يحاول أحد أن يضع تشريعاً للخلافة كما قلنا . والجاحظ - كما سنرى - لا يوافق على ذلك . ونحن - فيما يتعلق بالماضي - نميل إلى الكذب ؛ ظنناً منا أن ذلك يزيد من مجد العرب . فقد قرأت كتاباً يقول في كتاب : «إن البيروني قال : إن الأرض تدور حول الشمس وتدور حول نفسها . وهذا كلام لم يقله البيروني ، وإنما قاله مفكر إيطالي هو كوبيير نقوس . والبيروني قال كلاماً آخر لا يقل عبقرية عن كلام هذا الإيطالي . فلماذا نصغر من قدره ونسرق من الإيطالي ونضيف إليه ؟ وإن ماضينا - كما هو ملىء بالمفاحر ، فلماذا نصغر أنفسنا ونكذب ؟

وأنا أكتب هذه الفصول لكي أقول ذلك للناس ، فليس هناك أحسن ولا أحلى من الصدق . وإذا كنا لم نأخذ أفكار التشريع السياسي إلا من أهل الغرب ولم نعرف الدستور إلا عن طريقهم فكيف يسألني صديق قائلاً : ألم يأخذ أهل الغرب الدستور عنا ؟ وأنا أقول له : يا سيدى ، إنهم لم يأخذوا الدستور عنا ، بل نحن الذين أخذناه عنهم ، وهم أنفسهم قضوا فوق المائة عام يفكرون ويعملون حتى انتهوا إلى ضرورة وضع دستور ، أى قانون أساسى يحدد مدة الحاكم الأعلى ، ويضع حدود سلطاته وحقوق المواطنين ، ويحدد مصارف المال العام . ولفظ الدستور نفسه ليس لفظاً عربياً بل فارسي ، ومعناه فى الأصل : قالب الطوب الذى يصنع بمقاييس محددة ، فأخذه المشرعون العرب

في القرن الماضي واستعملوه بمعنى القاعدة التي ي العمل القانون الأساسي بمقتضاهما . والدفتر الذي تكتب فيه ، وفي الاصطلاح المعاصر مجموعة القواعد الأساسية التي تبين شكل الدولة ونظام الحكم فيها ومدى سلطتها إزاء الأفراد (المعجم الوسيط ٢٩٢ / ١) والجمع : دساتير . وإذا كانا قد أخذنا منهم الدستور فقد أخذوا هم مثا أشياء كثيرة جداً ، وإنذا فلا معنى للكذب ، ونحن - والحمد لله - بخير ، وفضلنا عظيم .

ثم يقول الجاحظ في أسلوبه البليغ المنعدم النظير : وفي باب ما يستحق من الإكفار جحد الكتاب ورد السنة إذا كانت السنة في شهرة الكتاب وظهوره ، إلا أن أحدهما (وهو القرآن طبعاً) أعظم وعاقب الآخرة عليه أشد . فهذه أول كفارة كانت من الأمة . ثم لم تكن إلا فيمن يدعى إمامتها والخلافة عليها (يريد أن هذا أول كفر وقع من الأمة ، ولكنه وقع من معاوية الذي ادعى الإمامة والخلافة) على أن كثيراً من أهل ذلك العصر قد كفروا بترك إكفاره (أي بتركهم تكفيرون معاوية) وقد رأيت عليهم نابتة عصرنا ومبتدعة دهرنا فقالت : لا تسبوه ؛ فإن له صحبة ، وسب معاوية بدعة ، ومن يبغضه فقد خالف السنة ، فزعمت أنه من السنة ترك البراءة من جحد السنة .

وهذا كلام عظيم جداً من الجاحظ ، فهو يقول أولاً : إن معاوية جحد السنة ، ومن جحد السنة فلا بد من تكفيه . وهذا رأى جرىء جداً منه في أيامه . ثم إنه يسمى بنى أمية

وخلفاءهم والمعصبين لهم بالنابتة ، وهى كلمة تجىء هنا فى معنى الطارئة ، أى الذين طرأوا على المجتمع الإسلامى ، وفرضوا أنفسهم عليه دون حق . وإذا كان الجاحظ لم ينتقد تصرف عثمان بن عفان فى بعض تصرفاته بسبب خوفه من أهل عصره فإنه قال كلاماً عظيماً آخر ، وهو هنا أبراً وأحکم من أبي بكر بن العربي الذى دعا فى كتاب « العواسم من القواصم » إلى تكميم الأفواه وتجميد العقول تماماً . والجاحظ هنا يؤيد ما قلناه فيه من أنه المعلم الأول ، وهو بالفعل معلم العرب الأول فكراً وأسلوباً وأصالحة وعقلاً . واقرأ الفقرة التالية من كلامه عن بنى أمية لتأكد من ذلك : « ثم الذى كان من يزيد ابنته ومن عماله وأهل نصرته ، ثم غزو مكة ورمى الكعبة واستباحة المدينة ، وقتل الحسين - عليه السلام - فى أكثر أهل بيته مصابيح السلام وأوتاد الإسلام بعد الذى أعطى من نفسه من تفريق أتباعه والرجوع إلى داره وحرمه أو الذهاب فى الأرض حتى لا يحس به ، أو المقام حيث أمر به ، فأبوا إلا قتله والنزول على حكمهم ، وسواء قتل نفسه بيده أو أسلمها إلى عدوه وخيار فيها من لا يبرد غليله إلا بشرب دمه ، أفحسروا قتله ليس بكافر !! وإباحة المدينة وهتك الحرمة ليس بحجّة ؟ !؟ كيف تقولون فى رمى الكعبة وهدم البيت الحرام قبلة المسلمين ؟ فإن قلتم : ليس ذلك أرادوا ، بل إنما أرادوا المتحرّز به والمتحصن بحيطانه أفما كان من حق البيت وحريمه أن

يحصروه فيه إلى أن يلقى بيده ؟ وأى شيء بقى من رجل أخذت عليه الأرض إلا موقع قدمه ؟ ! » .

وأنا أقدر أنك لم تقرأ أبلغ من هذا في الكتابة عن بنى أمية وما فعلوه بالحسين وآل النبي ﷺ والكعبة المشرفة والمدينة المنورة ، ولكن الجاحظ لا يقف عند هذا الحد في تحفير بنى أمية، بل هو يرى أن خلفاءهم أشد كفراً منهم . واقرأ الفقرة التالية لترى بлагة ذلك المعلم الأول ، بل لكي ترى كيف تكون البلاغة العربية على الإطلاق . قال في نفس الرسالة : « على أنه ليس من استحق اسم الكفر بالقتل كمن استحقه برد السنة وهدم الكعبة . وليس من استحق اسم الكفر بذلك كمن شبه الله بخلقه ، وليس من استحق الكفر بالتشبيه كمن استحقه بالتجويز (أي بتجويز أن يكون الله سبحانه شبيهاً بمخلوقاته والعياذ بالله) والناتبة في هذا الوجه أكفر من يزيد وأبيه ، ولو ثبت أيضاً على يزيد أنه تمثل بقول ابن الزبعرى (هو عبد الله ابن الزبعرى بن قيس بن عدى ، وكان من أعداء الإسلام يهجو المسلمين والإسلام قبل إسلامه) :

جزع الخزرج من وقع الأسل	ليت أشياخى ببدر شهدوا
ثم قالوا : يا يزيد لا تسل	لاستطالوا واستهلاوا فرحا
وعدلناه ببدر فاعتدل	قد قتلنا الفر من سادتهم

كان تجويز النابتى لربه وتشبيهه بخلقه أعظم من ذلك وأقطع . على أنهم مجتمعون على أنه ملعون من قتل مؤمناً متعمداً أو متاؤلاً . فإذا كان القاتل سلطاناً جائراً أو أميراً عاصياً لم يستحلوا سبه ولا خلعه ولا نفيه ولا عيبه ، وإن أخاف الصلحاء ، وقتل الفقهاء ، وأجاع الفقراء ، وظلم الضعفاء ، وعطل الحدود والشغور ، وأشرب الخمور ، وأظهر الفجور .. . ثم يقول بعد فقرة من ذلك ، وهذا أبلغ ما تقرأ في العربية :

« فأحسب تحويل القبلة كان غلطًا وهدم البيت كان تأويلاً ، وأحسب ما رروا من كل وجه أنهم كانوا يذعنون أن خليفة المرء في أهله أرفع عنده من رسوله إليهم باطلًا ومصنوعاً مولدًا وأحسب وشم أيدي المسلمين (ووشم الشيء : كواه فأثر فيها بعلامة ، وكذلك كان بنو أمة يفعلون مع المسلمين ؛ ليتأكدوا من أداء الضريبة حتى أبطل ذلك عمر بن عبد العزيز) ونقش أيدي المسلمين وردهن بعد الهجرة إلى قراهن (وهذا محرم في الإسلام ؛ لأن الهجرة كانت مرتبة من مراتب التحضر في الإسلام ، وكان رسول الله ﷺ يدعو إلى الهجرة ، أى الاستقرار وترك البداوة) وقتل الفقهاء وأئمة الهدى والنصب لعترة النبي ﷺ لا يكون كفراً ، فكيف تقول في جمع ثلاث صلوات فيهن الجمعة ؟ ولا يصلون أولاهن حتى تصير الشمس على أعلى الجدران كالملا المغضفر ، فإن نطق مسلم خطط بالسيف وشك

بالرماح ، وإن قال قائل : اتق الله ، أخذته العزة بالإثم ، ثم لم يرض إلا بمن قاتله على صدره ويصلب حيث تراه عياله » .

ومن غريب الأمر أن الجاحظ - رغم هذا الذكاء وبعد النظر - لم يكتب حرفًا في ضرورة تشريع الخلافة ، وعذرها هنا معروف وإن لم يكن مقبولاً ، فقد كان الرجل يكتب في العصر العباسى ، وكان هو نفسه عباسيًا ، والعباسيون قد غصبوا الخلافة كما فعل بنو أمية . فكيف يستطيع الرجل أن يقول كلمة في هذا المعنى ، ولو أنه قالها لخبط بالسيف وشك بالرماح ، ولم يكن بنو العباس أحسن من بنى أمية لا في السياسة العامة ولا في معاملة العلوين ، وتلك هي المصيبة الكبرى ، فنحن - مع الأسف الشديد - عشنا دائماً في ظل الاستبداد السياسي ، ولم يؤذن لنا قط أن نقول كلمة حق ، وكان أهل الغرب في مثل حالنا حتى قامت الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ ، فالحق أن هذه الثورة أطلقت عقال الألسنة ، وفتحت الأبواب على مصاريعها للحرية . وقد قضى الفرنسيون أكثر من قرن حتى وصلوا إلى الحرية السياسية الحقيقة عندما قامت الجمهورية الثالثة بعد حرب ١٨٧١ مع ألمانيا ، والجمهورية الثالثة هي التي قررت حق الشعوب الكامل في وضع النظام السياسي الذي يرون أنه يحقق للوطن أكبر جانب من الخير ، ومن هنا فإننى أرجو القارئ ألا يستهين بالثورة الفرنسية ، حفأ إن الإسلام قرر قواعد

الحرية السياسية في أيام الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - ولكن المسلمين ابتداء من العصر الأموي حرموا الناس من حقوقهم السياسية ، وكذلك العباسيون وكل دول الإسلام إلى العصر الحديث ، والعبرة في التاريخ بالحقائق الواقعة إلى جانب المبادئ المعلنة .

ويكفي هذا عن بنى أمية ونتقل إلى بنى العباس .

قال الطبرى برواية سنه فى الكلام على أبي جعفر المنصور:

« وذكر العباس بن الفضل بن سلام الأبرشى قال : كنت وأنا وصيف (يريد خادماً صغيراً) وغلام آخر نخدم المنصور داخلاً فى منزله ، وكانت له حجرة فيها بيت وفسطاط وفراش ولحاف يخلو فيه . وكان من أحسن الناس خلقاً ما لم يخرج إلى الناس ، وأشد احتمالاً لما يكون من عبث الصبيان ، فإذا لبس ثيابه تغير لونه وتربد وجهه واحمرت عيناه ، فيخرج فيكون منه ما يكون ، فإذا قام من مجلسه رجع بمثل ذلك ، فنستقبله في مشاه فربما عاتبناه . وقال لى يوماً : « يا بنى إذا رأيتني لبست ثيابى أو رجعت من مجلسى فلا يدلون منى أحد منكم ؛ مخافة أن أعره (أصيبه) بشيء » (الطبرى ٨ / ٦١ - ٦٢) ومعنى ذلك أن هذا الرجل - أبو جعفر المنصور - كان إذا خرج

ليمارس شئون الحكم تحول إلى إنسان دموي غاضب لا يؤمن على شيء إذا غضب ، أما فيما عدا ذلك فقد كان في الحقيقة رجلاً لطيفاً حسن الخلق ، وهذه حقيقة ينبغي أن نعرفها حتى يصدق حكمنا على رجال السياسة والسلطان في تاريخنا ؛ فهو لاء الناس - نتيجة للسلطان المطلق الذي كان في أيديهم - كان لكل منهم خلقان : خلقه العادى ، وخلق الحاكم ، فاما خلقه العادى فكما رأينا خادم المنصور يصفه فيقول : إنه كان لطيفاً محبباً حتى أنه كان من أكثر الناس احتمالاً لما يكون من عبث الصبيان ، فإذا خرج للحكم لم يؤمن حتى على خدمه ، وهو نفسه كان يأمر غلمانه بأنه إذا لبس ثيابه وخرج للعمل فلا يقترب منه أحد منهم فربما أصابه بشيء ، والحقيقة هي أن الحكم المطلق هو الذي كان يغير أخلاق أولئك الناس ، فإن الواحد منهم كان مستعداً لأن يأمر بقتل عشرة آلاف إنسان إذا غضب أو إذا خاف على ملكه ، فإذا لم يكن هناك خوف على الملك فإن الواحد منهم يكون لطيفاً طيب الخلق كثير الاحتمال ، والمنصور هذا قتل المئات بل الآلاف ، وقتل آبا مسلم الخراسانى بصورة بشعة ؛ لأنه خاف منه على سلطانه ، أما فيما عدا ذلك فقد كان صبوراً مأموناً ، ونحن نقرأ مثلاً أن أحمد بن طولون والى مصر قتل الآلاف ، وكان في سجنه المطبق - وهو قبو تحت الأرض - أربعون ألف محبوس .

ومع ذلك فقد كان رجلاً تقىً مؤمناً، يقيم الصلوات في
أوقاتها، ويتصدق بسخاء، وقد أنفق الآلاف في إنشاء مسجد
ابن طولون المشهور. وفي وصف أبي العباس السفاح أخي
المنصور يقول الفخرى في كتاب الآداب السلطانية (ص ١١٢) :
« إنه كان كريماً حليماً، وقوراً عاقلاً، كاماً، كثير الحياء،
حسن الأخلاق » ويقول عنه السيوطي في تاريخ الخلفاء (ص ١٧١) : « وكان السفاح أsex الناس، ما وعد عدة فآخرها عن
وقتها، ولا قام من مجلسه حتى يقضيها ». .

وهذا الرجل هو الذي قال عن نفسه في أول خطبة له خطبها
على منبر الكوفة : « أنا السفاح المبيح، والثائر المبيد » وقد
كان بالفعل هذا وذاك .



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل العاشر

أكذوبة العباسة أخت الرشيد مع جعفر البرمكي

وهذا عبد الله الملقب بالسفاح له أمر غريب ، فقد كان سفاحاً مخيفاً فعلاً ، وقد قتل المئات بل الآلوف ، ومع ذلك فقد كانت فيه خصال كثيرة طيبة ، وإليك الخبر التالي العجيب الذي آتاك به من كتاب « مروج الذهب » للمسعودي (٢١٥ / ٢ - ٢١٨) عن علاقة السفاح بامرأته ، وكانت تسمى أم سلمة : « وكانت قد تزوجت من عبد الله بن الوليد بن المغيرة المخزومي فمات وتزوجت بعده من عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك الأموي فمات . »

فيينا هي ذات يوم إذ مر بها أبو العباس ، وكان جميلاً وسيماً ، فسألت عنه ، وأرسلت إليه مولاً لها تعرض عليه أن يتزوجها ، وقالت مولاتها : قولى له : هذه سبعمائة دينار أو وجه بها إليك . وكانت تملك كثيراً من المال والجسم والجواهر ، فاتته المولا فعرضت عليه ذلك . فقال السفاح : أنا مملق لا مال عندي ، فدفعت إليه المال ، وأقبل إلى أخيها وطلب منه أن

يُزوجها منه ، فزوجه إياها ، فأصدقها خمسمائة دينار ، وأهدى من يلوذ بها مائتى دينار . وزُفِّتْ إِلَيْهِ فِي ثِيَابِ مُوْشَاهَة بالجواهر ، وحظيت عنده حتى صار لا يقطع أمراً إلا بمشورتها حتى أفضت الخلافة إليه .

فلما كان ذات يوم في خلافته خلا به خالد بن صفوان ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، إنني فكرت في أمرك وسعة ملكك ، وقد ملكت نفسك امرأة واحدة ، فإن مرضت ، مرضت ، وإن غابت غبت ، وحرمت نفسك التلذذ باستظراف الجواري ومعرفة أخبار حالي وتمتع بما تشهي منها ، فإن منها - يا أمير المؤمنين - من مولدات المدينة من تفتن بمحادثتها . وجعل خالد يجيد في الوصف ويجد في الإطناب بحلاؤه لفظه وجودة وصفه ، فلما فرغ من كلامه قال أبو العباس : ويحك يا خالد ! ماصك مسامعي والله كلام أحسن مما سمعته منك ، فأعد على كلامك فقد وقع مني موقعاً ، فأعاد عليه خالد أحسن مما ابتدأه ، ثم انصرف . وبقي السفاح مفكراً فيما سمع منه ، فدخلت عليه زوجته أم سلمة ، فلما رأته مفكراً مغموماً قالت له : إنني لاتنكرك يا أمير المؤمنين ، فهل حدث أمر تكرهه أو أتاك خبر فارتعدت له ؟ قال : لم يكن من ذاك شيء ، قالت : فما قصتك ؟ فجعل ينزوئ عنها ، فلم تزل به حتى أخبرها بحديث خالد ، فقالت : فما قلت لابن الفاعلة ؟ قال : سبحان الله ! ينصحنى فتشتمينه ! خرجت من عنده فأرسلت إلى خالد جماعة من المغاربة وأمرتهم ألا

يتركوا منه عضواً صحيحاً . قال خالد : فانصرفت إلى منزلي وأنا على السرور بما رأيت من أمير المؤمنين واعجابه بما ألقى إليه ، ولم أشك أن صلته ستائيني . فلم ألبث حتى صار إلى أولئك البخارية وأنا قاعد على باب داري ، فلما رأيتمهم قد أقبلوا نحوى أيقنت بالجائزة واصلة حتى وقفوا علىَّ فسألا عنى . فقلت : هأنذا خالد ، فسبق إلى واحد منهم بهراوة كانت معه ، فلما أهوى بها علىَّ وثبتَّ فدخلت منزلي وأغلقت على الباب واستترت ، ومكثت أياماً على تلك الحال لا أخرج من منزلي ، ووقع في خلدي أنى أتيت من قبل أم سلمة ، وطلبني السفاح طلباً شديداً ، فلم أشعر ذات يوم إلا بقوم هجموا علىَّ وقالوا : أجب أمير المؤمنين ، فأيقنت بالموت . فركبت وليس علىَّ لحم ولا دم . فلما وصلت إلى الدار أو ما إلىَّ بالجلوس ، ونظرت فإذا خلف ظهرى باب عليه ستور قد أرخت وحركة خلفها ، فقاً يا خالد ، لم أرك منذ ثلاث ، فقلت : كنت علياً يا أمير المؤمنين قال : ويحك ! إنك وصفت لي في آخر دخلة من أمر النساء والجواري ما لم يخرق مسامعي كلام أحسن منه فاعده علىَّ ! قلت : نعم يا أمير المؤمنين : أعلمتك أن العرب اشتقت اسم الضرة منضر ، وأن أحدهم ما تزوج من النساء أكثر من واحدة إلا كان في جهد ، فقال لي : ويحك لم يكن هذا في الحديث ، فقلت : بل والله يا أمير المؤمنين ، وأخبرتك أن الثلاث من النساء كأنهن القدْرُ يغْلِي عليهن ؟ قال أبو العباس : برئت

من قرابتى من رسول الله ﷺ إن كنت سمعت هذا الكلام منك فى حديثك ! قال : وأخبرتك أن الأربع من النساء شر صحيح لصحابهن يُشَيِّبُهُ وَيُهَرِّمُهُ وَيُسْقِمُهُ ! قال : ويلك ! ما سمعت هذا الكلام منك ولا من غيرك قبل هذا الوقت ! « إلى آخر هذه الحكاية ، وهى فى الحقيقة طرفة لطيفة فكهة ، وهى تدل على أن العباس كان له - كما قلنا - خلقان : خلق عادى إذا كان بعيداً عن السياسة ، فإذا دخل فى السياسة فالوليل لعدوه !

ومما يدلك على استهانة ملوك العرب بالدماء هذا الخبر الذى يرويه الطبرى فى كلامه عن أبي جعفر المنصور ثانىخلفاء بنى العباس (١٣٦ - ٧٥٤ هـ / ٧٧٥ م) وذكر - أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن داود بن معاوية بن بكر - وكان من الصحابة - أن المنصور ضم رجلاً من أهل الكوفة يقال له الفضيل بن عمران ، إلى ابنه جعفر ، وجعله كاتبه ، وولاه أمره ، فكان منه بمنزلة أبي عبد الله من المهدى . وقد كان أبو جعفر أراد أن يباعع لجعفر بعد المهدى ، فغضبت أم عبد الله حاضنة جعفر للفضيل بن عمران ، فسعت به إلى المنصور ، وأوامات إلى أنه يبعث بجعفر ، قال : فبعث المنصور الريان مولاه وهارون بن غزوان مولى عثمان بن نهيك إلى الفضيل ليقتلاه وهو مع جعفر بمدينة الموصل ، وقال : إذا رأيتما فضيلاً فاقتلاه حيث لقيتماه ، وكتب لهما كتاباً منشوراً ، وكتب إلى جعفر يعلمه ما أمرهما به ، وقال : لا تدفعوا الكتاب إلى جعفر

حتى تفرغا من قتله ، قال : فخرجا حتى قدمما إلى جعفر وقعدا على بابه ينتظران الإذن ، فخرج عليهما فضيل فأخذاه وأخرجا كتاب المنصور فلم يعرض لهما أحد فضربا عنقه مكانه ، ولم يعلم جعفر حتى فرغا منه ، وكان الفضيل رجلاً عفيفاً دينياً ، فقيل للمنصور : إن الفضيل كان أبرا الناس مما رمى به وقد عجلت عليه ، فوجه رسولاً وجعل له عشرة آلاف درهم إن أدركه قبل أن يقتل ، فقدم الرسول قبل أن يجف دمه ، فذكر معاوية بن سويد مولى جعفر أن جعفراً أرسل إليه فقال : ويلك ! ما يقول أمير المؤمنين في قتل رجل عفيف دين مسلم بلا جرم ولا جنائية؟! قال سويد : فقلت : هو أمير المؤمنين يفعل ما يشاء ، وهو أعلم بما يصنع ، فقال : يا ماصب بظر أمه ، أكلمك بكلام الخاصة وتكلمني بكلام العامة ! خذوا برجله فالقوه في دجلة ، قال : فأخذت ، فقلت : أكلمك فقال : دعوه ، فقلت : أبوك إنما يسأل عن فضيل ، ومتى يسأل عنه وقد قتل عمه عبد الله بن عبد الله بن على ، وقد قتل عبد الله بن الحسن وغيره من أولاد رسول الله ﷺ ظلماً ، وقتل أهل الدنيا من لا يحصى ولا يعد ، وهو قبل أن يسأل عن فضيل جزازاته تجب خصي فرعون أى قاتل يقتل الآلوف ، قال : فضحك وقال : دعوه إلى لعنة الله » (الطبرى ٨ / ٩٩ - ١٠٠) .

فها نحن أولاء أئم خليفة هو أبو جعفر المنصور يقتل رجلاً بريئاً فاضلاً دون جريرة . ويعلق على ذلك رجل مسلم فيقول :

هو أمير المؤمنين يفعل ما يشاء ، وهو اعلم بما يصنع ، فهل هذا إسلام ؟ وهل حقاً أن لا أمير المؤمنين أن يفعل ما يشاء بأرواح المسلمين ؟ بل إن نفس الخبر يقرر أن المنصور قتل العشرات من أبناء رسول الله ﷺ دون ذنب أو جريرة ، فهل هذا حق ؟ والطبرى الذى يروى هذه الأخبار فقيه ، فتصور أنه لا يعقب على ذلك بكلمة دفاع عن الإسلام !! .

ومن الأخبار التى ينكرها الضمير العربى ولا يصدقها قط قول الطبرى (ج ٨ ص ٢٩٤) : وقد حدثنى أحمد بن زهير - أحسبه عن عمه باهر بن حرب - أن سبب هلاك جعفر والبرامكة أن الرشيد كان لا يصبر عن جعفر وعن اخته عباسة بنت المهدى وكان يحضرهما إذا جلس للشرب ، وذلك بعد أن أعلم جعفرأ قلة صبره عنه وعنها ، وقال لجعفر : أزوجكها ليحل لك النظر إليها إذا حضرتها مجلسى ، وتقدم إليه ألا يمسها ، ولا يكون منه شيء مما يكون للرجل إلى زوجته ، فزوجها منه على ذلك ، فكان يحضرهما مجلسه إذا جلس للشرب ، ثم يقوم من مجلسه ويخليهما فيتملان من الشراب وهما شابان ، فيقوم إليها جعفر فيجامعاها فحملت منه وولدت غلاماً ، فخافت على نفسها من الرشيد إن علم بذلك ، فوجّهت بالمولود مع حواضن له من مماليكها إلى مكة ، فلم يزل الأمر مستوراً عن هارون حتى وقع بين عباسة وأحدى جواريها شر ، فأنهت أمرها وأمر الصبي إلى الرشيد ، وأخبرته بمكانه ومع من هو من جواريها وما معه من

الحلى التي كانت زينته بها أمه ، فلما حج الرشيد هذه الحجة (سنة ١٨٧هـ) أرسل إلى الموضع الذي قالت الجارية إن الصبي به من يأتيه بالصبي وبمن معه من حواضنه ، فلما أحضروا سأله اللواتي معهن عن الصبي ، فأخبرنوه بمثل القصة التي أخبرته بها الرافعية على عباسة ، فأراد - فيما زعم - قتل الصبي ، فتحوب من ذلك (أى وجد ذلك حراماً فتوقف) .

وكان جعفر يتخذ للرشيد طعاماً كلما حج بعسفان في قوله إذا انصرف شاصاً من مكة إلى العراق ، فلما كان في هذا العام اتخذ الطعام جعفر كما كان يتذمّر ثم استزاره ، فاعتل عليه الرشيد ولم يحضر طعامه ، ولم يزل جعفر معه حتى نزل منزله من الأنبار ، فكان من أمره وأمر أبيه ما أنت ذاكره إن شاء الله تعالى (الطبرى ٢٩٤ / ٨) .

فأنت تقرأ هنا خبراً مهيناً حقاً للمسلمين ، وأنت إذا تأملته وجدته لا يستقيم ، فما الذي يجعل الرشيد يتمسك بأن يحضر جعفر مجلسه مع أخته العباسة ؟ وإذا كان لا يريد أن تكون هناك علاقة بين الاثنين فلماذا عقد بينهما الزواج أصلاً ؟ ثم كيف يتركهما معاً وينصرف فيعرضهما إلى مظنة الجماع ، وهو أمر معقول بين رجل وامرأة عقد له عليها فعلأً ؟ الحقيقة هي أن الخبر غير أصيل بل غير ممكن ، وإذا كان الرشيد قد غضب على جعفر والله فلابد أن تكون هناك أسباب أخرى أهم من تلك العلاقة غير المعقولة بين جعفر وال Abbasة .

وقد أنكر ابن خلدون هذا الخبر في مقدمته (طبعة د . عبد الواحد وافي ج ١ ص ٣٠٠ - ٣٠١) فقال : وهيهات ذلك من منصب العباسة في دينها وأبويها وجلالها ! وإنها ابنة عبد الله ابن عباس ليس بينها وبينه إلا أربعة رجال هم أشراف الملة من بعده ، وال Abbasة بنت محمد المهدى بن عبد الله أبي جعفر المنصور بن محمد السجاد بن على أبي الخليفة ابن عبد الله ترجمان القرآن ابن العباس عم النبي ﷺ ، فهي ابنة خليفة ، وأخت خليفة ، ومحفوفة بمالك العزيز والخلافة النبوية وصحبة الرسول وعمومته وإماماة الملة ونور الوحي ومهبط الملائكة من سائر جهاته ، وهي قريبة عهد ببداوة العروبة وسذاجة الدين البعيدة عن عوائد الترف ومراتع الفواحش ، فain يطلب الصون والعفاف إذا ذهب عنها ؟ وأين توجد الطهارة والزكاء - بالزاي بمعنى الصلاة والاستقامة - إذا فقد من بيتها ؟ أو كيف تلحم نفسها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربي بمولى من موالي العجم بملكة جده من الفرس أو بولاء جدها من عمومة الرسول وأشراف قريش وغايتها إن أرادت أن ترتفع بمكانهم مكافأة على ما كان منه ومن أبيه أن ترقיהם إلى منازل الأشراف ؟ وكيف يجوز للرشيد أن يصهر إلى موالي الأعاجم على همته وعظم إبائه ، ولو نظر المتأمل في ذلك نظر المنصف وفاس العباسة بابنة ملك من عظماء ملوك زمانه لاستنکف لها من مثله مع مولى من موالي دولها وفي سلطان قومها

واستنكره ولجَّ فِي تكذيبه ، وَأين قدر العباسة والرشيد من الناس؟ وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجانهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسيير من المال فلا يصل إليه ، فغلبواه على أمره ، وشاركته في سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه ، فعظمت آثارهم وبعد صيغتهم ، وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم واحتازوها عن سواهم من وزارة وكتابة وقيادة وسيف وقلم ، ويقال : إنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيساً من بين صاحب سيف وصاحب قلم زاحموا فيها أهل الدولة بالمناقب ، ودفعوهم عنها بالراح لمكان أبيهم يحيى من كفالة هرون ولـى عهد وخليفة ، حتى شب في حجره ودرج من عشه وغلب على أمره وكان يدعوه يا أبت ، فتوجه الإيثار من السلطان إليهم ، وعظمت الدالة منهم ، وانبسط الجاه عندهم ، وانصرفت نحوهم الوجوه ، وخضعت لهم الرقاب ، وقصرت عليهم الآمال ، وتخطرت إليهم من أقصى التخوم ، وأفاضوا في رجال الشيعة وعظام القرابة بالعطاء ، وطوقوهم المتن ، وكسبوا من بيوتات الأشراف المعدم ، وفكوا العانى ، ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم وأسدوا لعفافتهم (طلاب المعروف) الجوائز والصلات ، واستولوا على القرى والضياع من الضواحي والأمصال فيسائر الممالك حتى آسفوا البطانة وأحددوا الخاصة ، وأغصوا أهل الولاية ، فكشفت لهم

وجوه المنافسة والحسد ، ودبّت إلى مهادهم الوثير من الدولة عقارب السعاية ، حتى لقد كان بنو قحطبة أخواه جعفر من أعظم الساعين عليهم ، لم يعطفهم - لما وقر في نفوسهم من الحسد - عواطف الرحم ولا وزعنهم عواطف الرحم .

وقارن ذلك عند مخدومهم نواشئ الغيرة والاستنكاف من المجد والأنفة ، وكامن الحقوود التي بثتها منهم صفات الدالة .

وانتهى بها الإصرار على شأنهم إلى كبار المخالفه ..
قصتهم في يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبي طالب أخي محمد المهدي الملقب بالنفس الزكية الخارج على المنصور . ويحيى هذا هو الذي استنزله الفضل بن يحيى من بلاد الدليم على أمان الرشيد بخطه . وبذل لهم فيه ألف ألف درهم - على ما ذكره الطبرى - ودفعه الرشيد إلى جعفر وجعل اعتقاله بداره وإلى نظره ، فحبسه مدة ، ثم حملته الدالة على تخلية سبيله والاستبداد بحل عقاله حرمة لدماء أهل البيت بزعمه ، ودالة على السلطان في حكمه . وسأله الرشيد عنه لما وشى به إليه ، ففطن وقال : أطلقته ، فأبدى له وجه الاستحسان وأسرها في نفسه . فأُوجد السبيل بذلك على نفسه وقومه حتى ثل عرشهم ، وأكفيت عليهم سماؤهم ، وخسفت الأرض بهم وبدارهم ، وذهبت سلفاً ومثلاً لآخرين أيامهم . ومن تأمل أخبارهم ، واستقصى سير الدولة وسيرهم وجد ذلك محقق الأثر ممهد الأسباب .

وابن خلدون على حق في كل ما قال ، فإنه يستبعد قطعاً أن يكون الرشيد قد أطلق العنان لأخته لتجلس إليه مع جعفر، وحل ذلك بعقد الزواج بين الاثنين ، واشترط عدم الخلوة ، فهذا كله كلام شعبي يقال في الأسواق ، وما كان ينبغي قط للطبرى أن يرويه على هذه الصورة ؛ ففيه - كما ترى - مهانة بلية لامرأة جليلة من آل البيت .

ولكننا نسأل : وكيف كان الرشيد يبيح لنفسه الحرية في أن يعطي وزرائه من البرامكة هذا السلطان كله لو كان هناك قانون أساسى أو دستور يحدد حقوقه وحرياته ؟ وهل يجوز اليوم أن يرتكب رئيس دولة هذه الأخطاء وهناك دستور يحدد كل شيء ؟ والغريب مع ذلك أن الرشيد بعد أن ارتكب هذه الجناية الفظيعة - جنائية قتل جعفر والقضاء على البرامكة وأولادهم ومصادرتهم أموالهم دون تحقيق - الغريب أنه بعد أن فعل ذلك لم تتحسن الأحوال المالية في الدولة ، وإذا كان الرشيد قبل نكبة البرامكة يطلب المال القليل فلا يصل إليه فإنه بعد ذلك كان يطلب أقل من القليل فلا يجده . والسبب في ذلك هو أن البرامكة - برغم كل ما كان يقال عنهم - كانوا رجال مال ممتازين ، وإذا كانوا قد تصرفوا بتسلل مع الرشيد فإنهم كانوا - من الناحية المالية - في غاية المهارة ، والدولة العباسية كانت تعانى منذ قيامها أزمة مالية لم ينقذها منها إلا البرامكة ، فلما ذهب البرامكة ظهر الإفلاس المطلق .

ومما يؤكد ما قلناه من أن هذه حكايات أسواق اندست في
 كتب التاريخ هذا الخبر الذي يرويه أبو محمد عبد الله بن مسلم
 ابن قتيبة في كتاب «الإمامية والسياسة» ونحن نعرف أن هذا
 الكتاب مشكوك في مادته؛ فقد أدخل الرواية فيه أخباراً غريبة
 وأجزاء من كتب أخرى، ولكن الخبر التالي في ظاهره الأصالة،
 أى أننا نرى أن ابن قتيبة رواه فعلاً في كتابه قال: قال سهل
 (بن هارون): قلت لبعض من أثق بوفائه، وأعتقد صدق إخائه
 من خصيانت القصر المتقدمين عند أمير المؤمنين (الرشيد)
 المتمكنين من كل ما يكون لديه: ما الذي نعى جعفر البرمكي
 وذويه عند أمير المؤمنين؟ وما كان من ذنبه الذي لم يسعه
 عفوه ولم يأت عليه رضاه؟ فقال: لم يكن له جرم ولا لديه
 ذنب، كان والله جعفر على ما عرفته عليه وفهمته عنه من
 اكتمال خصال الخير ونراحت النفس من كل مكروه ومحذور، إلا
 أن القضاء السابق والقدر النافذ لا بد منه، كان من أكرم الخلق
 على أمير المؤمنين، وأقربهم منه. وكان أعظمهم قدرًا وأوجبهم
 حقًا. فلما علم ذلك من حسن رأى أمير المؤمنين فيه وشديد
 محبته له استأذنته أخته، وهي بنت المهدى، وشقيقته فى
 إتحاف جعفر ومهاداته، فاذن لها، وكانت قد استعدت له
 بالجواري الرائعات والقينات الفاتنات، فتبعت له كل جمعة
 بكرة يفضها، إلى ما يصنع له من الوان الطعام والشراب
 والفاكهه وأنواع الكسوة والطيب. كل ذلك بمعرفة أمير المؤمنين

ورأيه ، فاستمرت بذلك زماناً ومضت به أعواماً ، فلما كانت
جمعة من الجمع دخلها جعفر القصر الذى استعدت به ، ولم
يرع جعفر إلا بفاختة ابنة المهدى فى القصر كأنها جارية من
الجوارى اللاتى كن يهدىن إليه ، فأصاب منها لذته وقضى
 حاجته .



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الحادى عشر

لقد ظلمنا الأئميين وأمسأنا إلينه لأنّه عربي !

أتابع روایة نص کتاب « الإمامة والسياسة » الذى بدأته فى مقالى الماضى ، قال ابن قتيبة : فأصاب منها لذته وقضى حاجته ، ولا علم له بذلك ، فلما كان المساء ، وهم بالانصراف ، أعلمته بنفسها وعرفته بأمرها ، وأنطلعته على شديد هواها ، وإفراط محبتها له ، فازداد بها كلفاً ، وبها حباً ، ثم استغفها من المعاودة إلى ذلك ، وانقبض عما كان يناله من جواريها ، واعتذر بالعلة والمرض . فأعلم جعفر أباه يحيى ، فقال له : يا بني ، أعلم أمير المؤمنين بما كان معجلاً ، وإنما فاذن لي فأعلمك ، فإني أخاف علينا يوم سوء إن تأخر هذا ، وبلغه من غيرنا . وإعلامك له في هذا الوقت يسقط عننا ذلك الذنب ، فهي أحق بالعقوبة منك .

قال جعفر : لا والله لا أعلمته بذلك أبداً ، فالموت على أيسر منه ، وأرجو الله ألا يطلعه أحد ، فقال له يحيى : لا تظن هذا يخفى عليه ، فأطعنى اليوم وأعلمك ، فقال جعفر : والله لا أفعل

هذا أبداً ، ولا أتكلم به والله أستعين . فلم يرع الرشيد إلا أن رفعت إليه جارية من جواريهارقة ، وأعلمت ذلك فيها ، فاستحق ذلك عند الرشيد باستغفاء جعفر عما كان من إتحافها ، واعتذاره بالعلة من غير مرض ينبهه ، فغفل عنه الرشيد ، ولم ير لذلك جفوة ، ولا زاد له إلا كرامة ، ولا لديه إلا حرمة ورفعة ، حتى قرب وقت الهلاك ، ودنا منقلب الحتف والله أعلم (الإمامية والسياسة ١٧٣ - ١٧٢) .

وهذه المرة نحن لسنا أمام العباسة ، بل أمام اخت أخرى لهارون الرشيد هي فاختة ، وكانت شقيقة الرشيد ، وهذه الأخرى - كما تزعم هذه القصة - وقعت في جعفر هذا ورغبت فيه حتى احتالت بهذه الحيلة العجيبة التي رأيتها في القصة . وصاحب القصة معجب به يثنى على فضائله وآخلاقه للرشيد حتى إن فاختة هذه رأت أنها إذا كان ولابد أن تجتمع بهذا الرجل فليس أمامها إلا أن تحتال لذلك ، فاستأذنت أخاها في أن تتحف جعفراً بالهدايا ، ثم مضت ترسل إليه الجواري الرائعات أسبوعاً بعد أسبوع ، وهو كلما وصلته واحدة وقع بها ، ثم دست نفسها ذات جمعة مكان جارية : ليقع بها دون أن يعلم ، ولابد أنها هي الأخرى كانت رائعة الجمال حتى ظن جعفر أنها إحدى بديعات الجواري اللاتي كن يُرسَّلنَ إليه ، والإنسان منا يتعجب : إذا كانت أخوات الرشيد بهذا الجمال فما الذي وقف بهن عن الزواج وجعلهن يتهاون على جعفر هذا كأنه الفتى الذي ليس بعده

فتى ، ولا تراه امرأة إلا وقعت فيه ؟ وهذا أمر مستبعد ، فما ذكر أحد من المؤرخين أنه كان بهذا الجمال ، ولكن راوية هذا الخبر يعجب بجعفر ، ويرى أنه أتى من باب سوء الحظ ، فما كان ليمثال شيئاً من اخت الرشيد لولا احتيالها عليه ، بل إن هارون الرشيد نفسه لم يغضب عليه بسبب ما وقع لفاختة ؛ لأنهرأى أن الرجل برىء من الذنب ، فما كان يعرف أن هذه اخت الرشيد إلا بعد أن وقع ما وقع .

هذه - إذن - حكايات أشبه بحكايات ألف ليلة تناقلها الناس في الأسواق ، ثم اندست في كتب المؤرخين فرواهما الطبرى وابن قتيبة وغيرهما ، وقد اجتهد ابن خلدون في الدفاع عن العباسة ، ولكنه تمسك بمسألة الأصل ، وقال إن العباسة ما كانت لتخطئ هذا الخطأ لأصولها الرفيع ، فهي حفيدة ابن عباس ، وأخت هارون أمير المؤمنين ، وهذا دفاع غير قاطع ؛ لأن المرأة قد تكون من أشرف الأصول ، ولكنها تنزل مع ذلك ، وإنما يكون الدفاع من جهة المعقولة ، فما الذي يجعل هارون يزوج اخته العباسة من ذلك الرجل ، ثم يشترط عليهم عدم الخلوة ؟ ومادامت قد أصبحت امرأته شرعاً فكيف يمكن منها ؟ ثم ما الذي جعل فاختة تدبر هذا التدبير كله إذا كانت امرأة بارعة الجمال تستطيع أن تتزوج من تريده من علية القوم دون أن تترامي بهذه الصورة المهيضة على مولى من موالى أخيها ؟ الحق أن هذه كلها حكايات مكذوبة تسيء إلينا وإلى خلفائنا دون أي مبرر لذلك ، وكان

أولى بالمؤرخين أن يتحاشوا مثل هذه الإساءة إلينا إذا كانوا على شيء من بعد النظر وصدق الإحساس بالعروبة والإسلام ، وإذا كان ولا بد أن يرووها فلينبهوا إلى أنها حكايات مما يجرى على ألسن العوام في الأسواق ويستبعدون صحتها .

وننتقل الآن إلى موضوع آخر من موضوعات التاريخ الإسلامي التي أفسدتها المؤرخون بسوء الرواية ، أو برواية الأخبار دون تحقق ودون نظر إلى ما فيه خير المسلمين . فننتقل إلى خبر الأمين والمأمون وما كان بينهما من حروب .

والقصة الشائعة تقول : إن محمداً الأمين - الذي خلف أبيه هارون الرشيد بعهد منه - كان رجلاً فاسداً قليلاً العقل سوء التصرف ، وإن العداوة وال الحرب والتنافس إذا كان قد وقع بينه وبين أخيه المأمون فإن المسؤولية تقع عليه وحده ، فهو الغادر الذي خالف عهد أبيه بأن تكون الخلافة أولاً لـ محمد الأمين ، فإذا مات انتقلت إلى أخيه عبد الله المأمون ، ومن بعده إلى أخيهما الثالث أبو القاسم المعتصم ، أما المأمون فقد كان بحسب ما تقوله كتب تاريخنا عاقلاً أميناً محافظاً على عهد أبيه حتى جاءت الخيانة من ناحية أخيه ، وعندما نقرأ ما بين أيدينا من نصوص فإننا نجد أن الحقيقة كانت بخلاف ذلك ، وأننا في الحقيقة نقرأ كلاماً موجهاً توجيهها خاصاً ، هدفه تشويه صورة الأمين خدمة لأخيه المأمون ، ولا بد أن نذكر أولاً - وهذا مهم جداً - أن الأمين عربي ، فهو ابن السيدة زبيدة العربية الهاشمية ، في

حين أن أخاه المأمون كان نصف عربي ، فإذا كان أبوه هو هارون الرشيد فإن أمه « مراجل » مولاة إيرانية ، والإيرانيون يعتبرونها أميرة فارسية ويتحمسون لها ، بالضبط كما فعلوا مع الحسين بن علي - رضى الله تعالى عنه - عندما زعموا أنه خليفة الأكاسرة الفرس ؛ لأن أمه أميرة فارسية تزوجها على بن أبي طالب رضي الله عنه .

وأمثال هذه التشويهات كثيرة في كتب التاريخ الإسلامي ، ومصدرها دائمًا هم الفرس ؛ لأن هؤلاء الفرس عز عليهم أن ينتصر العرب البدو الصحراويون على الأكاسرة ويزيلوا دولتهم و يجعلوا دولة العرب والمسلمين مكانها ، وهؤلاء الفرس لم يكونوا مخلصين للأكاسرة الساسانيين ، ولم يكونوا من المعجبين بهم بصورة مطلقة ؛ فإن الأكاسرة لم يكونوا في جموعهم ملوكاً منصفين أو عادلين أو محسنين ، ولكنها العصبية الفارسية على العرب . وهي ظاهرة تاريخية تنبه لها بعض الأذكياء من مفكري الإسلام ، منهم أبو محمد على بن أحمد بن حزم الأندلسي ، فقد قال ذلك صراحة في كتابه « الفصل في الأخبار والملل والنحل »

ونرجع الآن إلى كتابنا التاريخية لنرى كيف تصور لنا محمداً الأمين ومسئوليته عن الخلاف الذي وقع بينه وبين أخيه ، فنقرأ في تاريخ الطبرى (٨ / ٥٠٨) : ذكر عن حميد بن سعيد قال : لما ملك كاتبه المأمون وأعطاه بيعته وطلب الخصيـان

وأتباعهم ، وغالى بهم ، وصيّرهم لخلوته ليله ونهاره وقوام طعامه وشرابه ، وأمره ونهيه ، وفرض لهم فرضاً سماهم الجرادية ، وفرضًا من الحبشان سماهم الغرابية ، ورفض النساء الحرائر والإماء حتى رمى بهن ... قال حميد : ولما ملك محمد وجهه إلى جميع البلدان في طلب الملهين ، وضمهم إليه وأجرى لهم الأرزاق ، ونافس في ابتياع فره الدواب ، وأخذ الوحش والسباع والطير وغير ذلك ، واحتجب عن إخوته وأهل بيته وقواده واستخف بهم ، وقسم ما في بيوت الأموال وما بحضرته من الجوهر في خصيائه وجلساته ومحدثيه ، وحمل إليه ما كان في الرقة من الجوهر والخرائن والسلاح ، وأمر ببناء مجالس متنزهاته ومواضع خلوته ولهوه ولعبه بقصر الخلد والخيزانية وبستان موسى وقصر عبديه وقصر المعلى ورقه كلواذى وباب الأنبار وبتادرى والهوب ، وأمر بعمل خمس حراقات في دجلة على خلقة الأسد والفيل والعقارب والحياة والغرس ، وأنفق في عملها مالاً عظيماً ، فقال أبو نواس يمدحه .. إلخ .

فهل كان محمد الأمين فعلاً كذلك ؟ وإذا كان على هذه الصورة من قلة العقل وانعدام الكفاية فهل كان ذلك كله خافيأً على أبيه الرشيد فبائع لابنه بالخلافة دون أن يعلم حقيقة أمره فلم يكتشف هذا كله إلا بعد وفاة أبيه ؟

تعالوا ندرس محمداً الأمين بشيء من التروى ، لنرى إن كان

من الممكن أن يكون فعلاً على هذه الصورة أو أنها كانت صورة زائفة أذاعتها عنه دعاية خاصة لتشويه صورته والإساءة إليه؟ وقبل أن نمضي في هذا التحقيق نسأل : ما هي حكاية هذه الحرّاقات التي أمر الأمين بصنعها وإطلاقها في نهر دجلة . إن لفظ الحرّاقة يطلق على نوعين من السفن كما نقرأ في المعجم الوسيط (١٦٨/١) فهـى (ضرب من السفن فيها مرامي نيران ترمى بها العدو في البحر - وسفينة خفيفة) وحيث إن الأمين عمل هذه المراكب للتنزه في نهر دجلة فلابد أن المراد هنا هي السفن الخفيفة أي مراكب النهر التي تزين مقدماتها أو مؤخراتها بصورة أسد من الخشب أو الفيل أو العقاب أو الحية أو الفرس ، وهي - على هذا - ليست ضخمة أو كثيرة التكاليف كما يفهم مـ النص ، وإنما أشياء عاديـة وقليلـة التكاليف مما يستمتع بـ بعض الأغنياء . وهو على هذا لم ينفق في عملها مـالاً عظيـماً كما يقول نص الطبرـي ، أو كما يفهم من شعر أبي نواسـ فيها ، وأبو نواسـ على أي حال شاعـر تعجبـه هذه المناسبـات يقولـ فيها ما يشاءـ من الشـعر ، ولكن المؤرـخ لا يعتمدـ هذا على كلامـه أو يعول عليهـ .

والآن ، فلنلقـ نظرةـ علىـ محمدـ الأمـينـ منـ أولـ ولايـتهـ وينـبغـىـ أنـ نلاحظـ أنـ الأمـينـ والمـأـمونـ كانـاـ فيـ سنـ واحـدةـ تقـريـباًـ،ـ فإـنـهـماـ ولـداـ سـنةـ ٧٨٦ـ هــ /ـ ١٧٠ـ مــ،ـ وهـىـ السـنةـ الـتـىـ تولـىـ فـيـهاـ هـارـونـ الرـشـيدـ الـخـلـافـةـ،ـ وـعـبـدـ اللهـ المـأـمونـ ولـدـ قـبـلـ

أخيه محمد الأمين بستة أشهر ، فليس هنا - كما ترى - كبير أو صغير ، ولا يمكن أن يقال : إن هارون الرشيد تخطى الكبير وبابع للأصغر ، فإن ستة أشهر هجرية ليست بفارق سن يذكر ، وإنما الرشيد رأى أن ابنه العربي الصرير ، أى المولود من أب عربي هاشمى وأم عربية هاشمية أولى بالتقديم ففعل . ولكن الخطأ الحقيقى وسبب البلاء الأكبر كان ذلك العهد والميثاق الغريب الذى كتبه الرشيد بين الأخوين وأشهد عليه الناس ، فهذا فى الحقيقة ليس بنص ولایة عهد أو وثيقة تنظيم داخلى للدولة . وإنما هو كان فى الحقيقة تقسيماً للدولة قسمين بين رجلين ، ولا يجوز لأحد منهما أن يمس الآخر ، وإذا نحن قرأتنا مليياً وجدنا أنفسنا أمام أسوأ عهد من نوعه كتبه خليفة ، وهارون الرشيد يلام على صياغته على هذا النحو لوماً شدیداً ، ويمكن أن يقال : إنه كان هو نفسه أكبر أسباب الخلاف بين أبنيه ، فإن نص ولایة العهد لابنيه محمد الأمين ثم عبد الله المأمون لم يكن فى الحقيقة نص ولایة عهد ، بل كان فى الحقيقة تقسيماً للدولة بين الأخوين تقسيماً تاماً . فللمأمون كل أرض الدولة من الرى (وهي مكان طهران تقريباً ، وهى أول خراسان غرباً) إلى آخر حدود خراسان شرقاً ، وللأمين الباقى ، فإذا توفيالأمين ورثه المأمون فى كل ما بيده إرثاً شرعياً مقرراً .

وما دمت قد ذكرت لك أن الأخوين كانوا فى سن واحدة تقريباً فإنه - والاعمار دائمًا بيد الله - كان يستبعد أن يرث

أحدهما الآخر ، خاصة أنهما ولدا سنة ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م وتوفي أبوهما الرشيد سنة ١٩٣ هـ / ٨٠٨ م فكانت سنهما عندما توفي الأب ثلاثاً وعشرين سنة هجرية ، واثنتين وعشرين سنة ميلادية ، وهذه سن صغيرة جداً بالنسبة للمسؤوليات الجسمية التي حملها كل من الاثنين ، فإذا فكرنا أن كلاً منهما كان محوطاً برجال من صنائعه ممن يحسنون له كل ما يرون أنه من صالحهم - وليس من الضروري أن يكون من صالحه - تبيّن أن بذور الخلاف قد وضعت بالفعل بين الأميرين من يوم هذه البيعة المشؤومة ، خاصة أن كلاً من الشابين كان له وزير أنانى شرير لم يدخل وسعاً في تزيين الشر له ودفعه إلى الخلاف مع أخيه .

ولا يتسع المجال هنا لكتابتك بمنص ولالية العهد وتقسيمهما بين أبني الرشيد محمد (الأمين) وعبد الله (المؤمن) ثم أضيف إليهما بعد ست سنوات (أبو القاسم المعتصم) فهو نص طويل جداً . وهو عندك في تاريخ الطبرى تستطيع أن تقرأه (٨ - ٢٧٨ - ٢٨١) ولكن إليك فقرة واحدة منه فحسب ، وهي وحدها تدل على خطورة هذا العهد الذى أخطأ الرشيد وكتبه بين أبنيه ، تقول الوثيقة : .. فإن حدث بأمير المؤمنين (الرشيد) حدث الموت وأفضت الخلافة إلى محمد ابن أمير المؤمنين فعلى محمد إنفاذ ما أمره به هارون أمير المؤمنين في تولية عبد الله أخيه أمير المؤمنين خراسان وثورتها ومن ضم إليه أمير المؤمنين

بعرماسين (اسم موضع) وأن يمضى عبد الله ابن أمير المؤمنين إلى خراسان والری والکور التي سماها أمير المؤمنين .

حيث كان عبد الله أمير المؤمنين من معسکر أمير المؤمنين وغيره من سلطان أمير المؤمنين وجميع من ضم إليه أمير المؤمنين حيث أحب من لدن الری إلى أقصى عمل خراسان . فليس محمد ابن أمير المؤمنين أن يحول عنه قائداً ولا مقوداً ولا رجلاً واحداً من ضم إليه من أصحابه الذين ضمهم إليه أمير المؤمنين ، ولا يحول عبد الله ابن أمير المؤمنين عن ولايته التي ولاه إياها هارون من ثغور خراسان وأعمالها كلها ما بين عمل الری مما يلى همدان إلى أقصى خراسان وثغورها وببلادها وما هو منسوب إليها ، ولا يشخصه (أى يستدعيه إلى بلاطه) ولا يفرق أحداً من أصحابه وقواده عنه ، ولا يولى عليه أحداً ، ولا يبعث عليه ولا على أحد من عماله ولا على أحد من ولاته أمره بحذاراً (مراقباً) ولا محاسباً ولا عاماً ، ولا يدخل عليه في صغير من أمره ولا كبير ضرراً ، ولا يحول بينه وبين العمل في ذلك كله برأيه وتدبيره ، ولا يعرض من ضم إليه أمير المؤمنين من أهل بيته وصحابته وقضاته وعماله وكتابه وقواده وخدمه ومواليه وجنده بما يلتمس إدخال الضرر والذلة عليهم في أنفسهم ولا قربتهم ولا أحد بسبيل منهم ، ولا في دمائهم ولا في أموالهم ولا في ضياعهم ودورهم ورباعهم وأمتعتهم ورقيقهم ودوا بهم شيئاً من ذلك صغيراً ولا كبيراً . إلى آخر هذا الميثاق الذي يبدو من يقرؤه وكأنه تحد أو دفع إلى المعصية والخلاف .

فما معنى هذا التحفظ والاحتياط كله إلا إذا كانت القلوب حافلة بالشر ودوافع الغدر ؟ وإذا نحن علمنا أن هذا العهد يتضمن فقرة كاملة على المأمون تشرط عليه وتحفظ منه بقدر ما اشترطت على الأمين رأينا أن المسألة في ذاتها كانت مستحيلة .

ولماذا هي مستحيلة ؟

لأن أهم شيء في مثل هذه العهود هو حسن النية وسلامة السريرة ، وسترى بعد قليل أن القلوب كانت عامرة بالشر وسوء النية ، وسيبدو لنا بعد قليل أن الرشيد كان على علم ببواطن الأمور وإلا ما تحفظ هذا التحفظ كله .

وأسوء ما في الموضوع هو أن الرشيد كتب هذا العهد الدقيق بين شابين أو غلامين دون أي تجربة ، وسنرى بعد قليل أن وزراءهما ورجالهما كانوا من عقارب أهل السياسة والخدمة ، وأنهم سيلعبون بهما لعباً .

إذن فما الذي كان ينبغي عمله في مثل هذه الظروف ؟

إذا كان لأمير المؤمنين ابنان متقاربان على هذه الصورة فماذا كان ينبغي أن يفعله بدلاً من ذلك العهد الذي كتب وترك في أيدي غلامين ؛ ليكون كل منهما حرّاً كل الحرية في تصرفاته ورقيباً على نفسه في نفس الوقت ؟

الذي كان على الرشيد أن يعمله مكان هذا التعهد الذي لا معنى له هو أن يكون للدولة مجلس أعلى من ذوى الحل والعقد

والرأي والعلم من القواد والوزراء والعلماء والفقهاء هو الذي يتولى التوسط والفصل بين هذين الأخرين والتوسط بينهما إذا وقع شيء ولم يكن هناك معنى لكتابه مثل هذا العهد ، وإنما هو قانون للخلافة يكون بين أيدي رجال هذا المجلس ، وتكون بأيديهم أيضاً القوة العسكرية ، ويكون الخليفة المعين تحت إشراف هذا المجلس الذي يوجهه في كل أعماله ، ويرأس الخليفة وأهل بيته جميعاً فلا يكون عبد الله المأمون مستقلاً بنفسه في خراسان وكل ما يليها شرقاً مستقلاً بنفسه وكأنه سلطان ، ولا يكون هناك أي معنى لهذا التحفظ كله .

ومعنى هذا هو أنني أعود فأقول : إن الشيء الأساسي الذي نقص نظام الدولة عندنا هو القانون الأساسي أو الدستور الذي يحدد الحقوق والواجبات ، ويحفظ حقوق الحاكمين والمحكومين ، أما الحكم على هذه الصورة فهو استبداد مهما اشترطت على محمد الأمين للمحافظة على حق أخيه ، وسفرى أن المأمون - لظروف سنשרحها - كان يدبر لا نزاع الخلافة من أيدي أخيه من أول الأمر ؛ لأن المسألة لم تكن مسألة الأمين والمأمون فحسب ، بل كانت مسألة الفرس والعرب ؛ فإن عبد الله المأمون كان ابن جارية فارسية تسمى مراجل ، والفرس قالوا إنهم أخواله ، وكانت البيعة له بولاية العهد لأخيه وسنن ثلاثة عشرة سنة ، أي غلام ، ونشأ عبد الله بين أيديهم ، فقرر أصحاب الأمر منهم من حوله أن يستعملوه ؛ لينتزعوا الخلافة من أيدي العرب .

الفصل الثاني عشر

وتعصبنا للما'مون لأن الدعاية الفارسية أرادت ذلك !

الفكرة السائدة لدينا تقول : إن محمداً الأمين هو الذي بد
بخيانة العهد الذي كتبه أبوه هارون الرشيد بيته وبين أخيه
عبد الله المأمون ، وإنه هو الذي بدأ فعزل أخيه عبد الله المأمون
عن خراسان وعن خلافته في العرش ، والمأمون في هذه الحالة
رجل أمين معتمد عليه ، ولو لا غدر أخيه به لما وقعت الحرب
بينهما . فلننظر في النصوص لنرى حقيقة هذا الموضوع .

يقول اليعقوبي (٤٣٦ / ٢) دون سند — أي أنه هو
المستؤول عن ذلك الخبر : فأفسد قوم قلب محمد (الأمين) على
المأمون وأوقعوا بينهما الشر ، وكان الذي يحرضه على بن
عيسي بن ماهان والفضل بن الربيع ، وزيناله أن يبایع لابنه
بولاية العهد من بعده ، ويخلع المأمون ، ففعل ذلك وبایع لابنه
موسى لثلاث خلون من شهر ربيع الآخر سنة ١٩٤هـ ، وجمع
العهود التي كان قد كتبها الرشيد بينهما فحرقها ، وجرت
الوحشة بينهما ، وكتب محمد إلى المأمون يأمره بالقدوم عليه
في جميع القواد ، فكتب إليه يعلمه أنه لا سمع عليه في هذا ولا

طاعة ، فكتب إلى من بخراسان من القواد فأجابوه بمثل ذلك ، وقالوا : إنما يلزمنا لك الوفاء إذا وفيت لأخيك ، وأنت قد نقضت العهود ، وأحدثت الأحداث ، واستخففت بالآيمان والمواثيق (٢ / ٤٣٦) ..

والحقيقة أن هذين الشابين عندما خلا كل منهما إلى نفسه في ناحية لم يجد حوله إلا علماء السوء الذين يزين كل منهم له الغدر بأخيه ، وهذا لا يفهم من الطبرى واليعقوبى بقدر ما يفهم من ابن الأثير ، ويستوقف النظر أن اليعقوبى يذكر هنا (٢ / ٤٣١) فوق الخمسة والعشرين من أجزاء الفقهاء ، فلا فكر الرشيد فى أن يستشير فقيها ، ولا فكر فقيه منهم فى الإشارة عليه برأى ، ويبدو هنا بوضوح أن القطيعة كانت كاملة فى مسائل الحكم بين رجال الفقه والعلم من ناحية ، ورجال السياسة من ناحية أخرى ، وهذه ظاهرة يسأل عنها الأمويون ، فهم كانوا أول من ابتعد بالسياسة عن أهل الفقه والعلم والدين ، وجعلوا أمور السياسة كلها فى أيدي أنصارهم من رجال الحرب والسياسة ، بل كان للخدم والرقيق والجوارى أثر فى السياسة أكثر مما كان للفقهاء . وقد كان ينتظر أن يهدم العباسيون هذا الحائل المنيع بين السياسة من ناحية ، ورجال الفقه والعلم والدين من ناحية أخرى ، ولكنهم عندما صارت إليهم الخلافة بتعدوا هم الآخرون عن رجال العلم والدين ، وكان عمادهم على رجال السياسة وال الحرب ، بل الخدم والرقيق من أنصارهم طبعاً.

حتى هارون الرشيد - وهو أقرب رجال بنى العباس الأوائل إلى الدين - نجده لا يدخل واحداً من أهل الفقه في هذا العهد الذي كتبه بين ابنيه ، ما عدا الشهادة ، ومن ناحية أخرى نلاحظ أن رجال الدين والفقه يحرضون على الابتعاد عن السياسة وأهلها محافظة على دينهم وسمعتهم ، بل إنهم كانوا يرون أن اقتراب رجل العلم من السلاطين ومداخلتهم أمر يمس سمعته وأخلاقه ودينه ، وقد حاول ابن المقفع أن يهدم هذا الحاجز بين الدين والسياسة في كتابه « الصحابة » وأشار إلى أن الحاكم ينبغي أن يجمع أهل العلم ويستشيرهم ويحفظهم على كتابة قانون أساسي للدولة ، وأن يجعل للسلطان نصيباً في التشريع بحيث لا يصح مثلاً قانون إلا بموافقة السلطان ، فكره الفقهاء منه هذا الرأي وأنكروه إنكاراً شديداً ، لأن ما رأوه من أعمال الأمويير جعلهم يحرضون على المحافظة على الفقه والشريعة وعلم القضاة وأحكامهم ، لا القضاة أنفسهم ، بعيدة كل البعد عن السياسة ورجالها ، وبالفعل نجح الفقهاء في الاحتفاظ بالفقه والشريعة بعيدة عن سلطان الحكومات ، بل إن التعليم نفسه ظل بعيداً عن سلطان الدولة ، فمن يرد أن يتعلم كان له ذلك في الكتاتيب والمساجد ، ومن أراد مواصلة العلم استمر في الدراسة على أيدي كبار الفقهاء والعلماء حتى يحصل الواحد منهم على الإجازة التي تجعله أهلاً لتولى القضاء ، فإذا أراد السلطان اختيار قاض وإقامته في العاصمة أو في أي ناحية من نواحي

الدولة اختاره من أولئك الذين علمتهم الأمة وجعلتهم أهلاً للقضاء بعيداً عن أي سلطان من الدولة ، فإذا أصبح واحد منهم قاضياً لم يكن للسلطان دخل في أحکامه ، وإنما القاضي مستقل بنفسه في أحکامه ، لا رقيب عليه في ذلك إلا الله سبحانه وتعالى .

ويقال : إن هذه المحاولة من جانب ابن المفع كانت بعض السبب في موته مقتولاً على الصورة الأسيفة التي مات بها ، فإنهم كرهوه وكانوا بين من سعى عليه ودبر موته .

ونلاحظ أن وزير المأمون وصاحب رأيه كان فارسي الأصل ، وهو الفضل بن سهل الملقب بذى الرئاستين ، وهذا الرجل كان منذ البداية كارهاً للعرب ، وراغباً في نزع الخلافة من الأمين العربي وجعلها في المأمون الذي كان يراه فارسيًا أو نصف فارسي ، فإن أممه مراجل الفارسية ، وكان يصفه بأنه ابن أختهم ، أما الأمين فكان عربياً هاشمياً صرفاً ، فإن أبوه هارون الرشيد وأمه زبيدة بنت جعفر الأكبر بن أبي جعفر (المنصور) فهو هاشمي من الأب والأم ، ويقال : إنه لم يوجد فيبني هاشمي من طرقه إلا على بن أبي طالب ومحمد الأمين هذا .

والمؤرخون جميعاً يقولون : إن الأمين هو الذي بدأ بخيانته أخيه ومخالفة العهد الذي كان أبوه قد كتبه بينهما ، ولكن لطبرى يروى الخبر التالى (٨ / ٣٧٠) : « وذكر الحسن

الحاجب أن الفضل بن سهل أخبره قال : استقبل الرشيد (وهو مريض مرض الموت قريباً من طوس) وجوه أهل خراسان ، وفيهم الحسين بن مصعب قال : ولقينى فقال (الفضل بن سهل) لى : الرشيد ميت أحد هذين اليومين ، وأمر محمد بن الرشيد ضعيف ، والأمر أمر صاحبك (يزيد عبد الله المأمون) مد يدك ، فمديده فبائع للمأمون بالخلافة ، قال : ثم أتاني بعد أيام ومعه الخليل بن هشام فقال : هذا ابن أخي وهو لك ثقة ، خذ بيته ، ومعنى ذلك أنه حتى قبل أن يموت الرشيد كان الفضل بن سـ وهو وزير المأمون وصاحب رأيه وهو فارسي - يرى أن تكر الخلافة لصاحب المأمون ؛ لأن أمر محمد (الأمين) ضعيف فيما رأى ، بل هو بائع للمأمون بالخلافة ، وأخذ يدعى الناس ليبايعوا للمأمون قبل أن يموت الرشيد .

إذن فالبداية بخيانة العهد ومخالفة الميثاق كانت من ناحية المأمون ورجاله أولاً ، لا من ناحية محمد الأمين كما يظن معظم الناس .

ويستوقف نظرنا أن الرشيد الذي حرص على أن يكون قضاته شهوداً على العهد الذي كتبه بين ابنيه وأخذ موافقتهما عليه في بطن الكعبة لم يشاً أن يجعل للقضاة وأهل الفقه والعلم ووجوه الناس أى دخل في تطبيق هذا العهد ، مما يدل أنه مثله في ذلك مثل كل أهل الدول الحاكمة في تاريخنا ، لم يكونوا يريدون أن يكون للناس من غير وزرائهم وجندتهم

وخدمهم يد فى شئون الحكم ، ولا يمكن القول هنا بأن هذه الفكرة لم تخطر على بال الرشيد ؛ فهى بديهية ويستبعد أن تكون قد غابت عن ذهن الرشيد ، ولكن رجال الدول عندنا كانوا حريصين جداً على ألا يكون لأهل الرأى من أهل البلاد دخل فى الحكم أو السلطان ، وهذا كان من أكبر أسباب ضعف هذه الدول جمیعاً وسرعة تفككها وسقوطها ، وإليك الخبر كما يرويه الطبرى قال (٢٨٥ / ٨) : فلما فرغ أمير المؤمنين من ذلك كله فى داخل بيت الله الحرام وبطن الكعبة أمر قضاته الذين شهدوا عليهما وحضروا كتابهما أن يعلموا كل من حضر الموسم من الحاج والعمار ووفود الأمصار ما شهدوا عليه من شرطهما وكتابهما وقراءة ذلك عليهم ؛ ليفهموه ويعوه ويعرفوه ويحفظوه ويؤدوه إلى إخوانهم وأهل بلدانهم وأمصالهم ، ففعلوا ذلك وقرئ عليهم الشرطان جمیعاً في المسجد الحرام ، فانصرفوا وقد اشتهر ذلك عندهم وأثبتو الشهادة عليه ، وعرفوا نظر أمير المؤمنين وعنایته بصلاحهم وحقن دمائهم ولم شعثهم وإطفاء جمرة أعداء الله وأعداء دینه وكتابه وجماعة المسلمين عنهم ، وأظهروا الدعاء لأمير المؤمنين والشكر لما كان نه فى ذلك . إذن فقد كان كل ما للقضاة - وهم رؤساء الناس أهل الرأى وبقية الناس فى ذلك كله - هو مجرد الشهادة لعرفة به وإذاعته فى الناس ، وهل يجدى من ذلك كله شيء ؟ ن السياسة أو السلطان السياسي لا يكون إلا إذا كانت تؤيده

قوة فعلية من أهل العلم والرأى ثم عامة الناس ، لا مجرد الشهادة والمعرفة ، وقد رأينا أن الفضل بن سهل وزير المأمون الفارسي كان قد قرر حتى قبل أن يموت الرشيد أن تكون الخلافة من بعده للمأمون الذي كان الفرس يلقبونه بابن أختهم ، وكذلك كان طاهر بن الحسين بن مصعب البوشنجي وهو فارسي الأصل ، وهو الذي سينشئ الدولة الطاهرية أيام المأمون ، وهو كان يلي الفضل بن سهل في بلاط المأمون من ناحية القوة السياسية ، وفي هذه الحال لا تنفع شهادة الفقهاء والقضاة وبقية الناس في شيء كما حدث بالفعل ؛ لأن أصحاب الدول عندنا كانوا غيورين جداً على سلطانهم ، لا يرضون بأي يكون للناس فيه أي نصيب إلا إذا كان رجالهم من وزراء وكتاب وحجاب وجند وخدم .

بل كان كل رجال الدولة يعرفون ذلك ولا يؤمنون بشيء مما ورد في العهد الذي كتبه الرشيد بين ابنيه ، فقد كان مع عبد الله المأمون نفر من القواد والجند ، بمجرد أن علموا بوفاة الرشيد نراهم يتربكون المأمون ويسرعون إلى بغداد مخالفين بذلك ما عهد إليهم فيه الرشيد من لزوم المأمون والبقاء إلى جانبه ، ويقول في ذلك الطبرى (٨ / ٣٧٠) : قال (يزيد الطبرى) : ولما قرأ الذين وردت عليهم كتب محمد بطورس من القواد والجند وأولاد هارون تشاوروا في اللحاق بمحمد ، (الأمين) فقال الفضل بن الربيع (الذي سيصبح وزير الأمين

ورجله الأول وهو عربي) : لا أدع ملكاً حاضراً لآخر لا يدرى ما يكون من أمره ، وأمر الناس بالرحيل ففعلوا ذلك محبة منهم للحوق بأهلهم ومنازلهم ببغداد ، وتركوا العهود التي كانت قد أخذت عليهم للمؤمنون ، فانتهى الخبر بذلك من أمرهم إلى المأمون (بمرو ..) .

وهذا الفضل بن الربيع - الذى كان ينبغي أن يكون من رجال المؤمن سيكون كبير رؤساء الناس فى حربه قائداً وزيراً للأمين .

وهذا هو طراز رجال السياسة فى ذلك العهد : لا ذمة ولا عهد ولا ضمير ، ومع ذلك فقد كانوا هم رجال الرشيد ورجال أولاده ! أما القضاة والفقهاء والعلماء وأعيان الناس فلم يكن لهم من ذلك كله إلا الشهادة ، وكان ينبغي على الرشيد أن يجعل القوة والسلطان فى أهل العلم والدين وأعيان الناس ، لا فى رجال السياسة ، وقد رأينا كبارهم : الفضل بن سهل الذى بايع للمؤمنون قبل أن يموت الرشيد ، والفضل بن الربيع الذى فضل أن يخالف عهد الرشيد وترك المؤمن وأسرع إلى الأمين وهو قوله : « لا أدع ملكاً حاضراً لآخر لا يدرى ما يكون من أمره » . الناس بالرحيل .. فرحلوا ، فهم كما نرى أهل مصلحة ة ، وهم أنانيون لا يؤمنون على شيء . وهذا يدلنا على أن به الرشيد من كتابة العهد بين ابنيه وإشهاد الناس عليه لم له أية قيمة من الناحية الفعلية ؛ لأن رجال السياسة

والحرب في تلك الأيام كانوا من أسوأ الناس أخلاقاً وأفسدتهم ضميراً؛ لأن السياسة كلها كانت قد انفصلت بكل رجالها عن الأمة والناس، وكذلك كان رجالها، وهم عندما فعلوا ذلك فقدوا الأخلاق والضمير، ولم يكن على أحد منهم سلطان إلا صالحه وصالح سادته من رجال السياسة والحكم، وهؤلاء كانوا في الغالب من أبعد الناس عن الدين والأخلاق؛ لأن الأخلاق تكون من عند الله، ولكن الشعب هو الذي يؤيدوها، وهو المؤمن بها الشاهد عليها، ولن تعود الأخلاق إلى رجال السياسة عندنا إلا في العصر الحديث عندما يذكرنا أهل الغرب أن الأمم هي أصل الحقوق، ورجالها هم الرقباء على الخير والفضل، وهذا هو ما يتجلى في الدساتير.

والأن فلننظر كيف بدأ الخلاف بين الأخوين؛ لعل ذا يعرفنا المسئول من الأخوين بما كان بينهما من شر وحرب.

تعبت تعباً شديداً في البحث عن بداية الخصومة بين الأخوين؛ لأن مراجعتنا تكثر الكتابة وتخلط خلطاً لا يسهل معه معرفة الحقيقة في مثل هذا الموقف، ولكننارأينا أن الفضل بن سهل كبير رجال المأمون كان قد عزم - حتى قبل أن يموت الرشيد - على خيانة الأمين وجعل الخلافة للمأمون. ثم إنه بعد أن توفي الرشيد وتولى الأمين الخلافة نجده يرتب لأخيه المأمون خطاباً كله مودة وإقرار لما كان أبوهما الرشيد قد أراد لهما، وفي هذا الخطاب يقول الأمين لأخيه المأمون: .. فقم في

أمرك قيام ذى الحزم والعزم ، والناظر لأخيه ونفسه وسلطانه وعامة المسلمين ، وإياك أن يغلب عليك الجزع فإنه يحبط الأجر ، ويعقب الوزر ، وصلوات الله على أمير المؤمنين حيّاً وميتاً ، وإنما الله وإنما إليه راجعون . وخذ البيعة عن قبلك من قوادك وجندك وخاصتك وعامتك لأخيك ثم لنفسك ، ثم لقاسم ابن أمير المؤمنين ، على الشريعة التي جعلها لك أمير المؤمنين من نسخها له وإنباتها ، فإنك مقلد من ذلك ما قلدك الله وخليفته ، وأعلم منْ قبلَكَرأيِي في صلاحهم وسد خلتهم والتوسعة عليهم ، فمن أنكرته عند بيعته أو اتهمته على طاعته ، فابعث إلى " برأسه مع خبره ، وإياك وإقالته فإن النار أولى به ، واكتب إلى عمال ثغورك وأمراء جندك بما طرأك من المصيبة بأمير المؤمنين .. ومرءُهم أن يأخذوا البيعة على أجنادهم وخواصهم وعواهم على مثل ما أمرتك به من أخذها على من قبلك ، وأوزع إليهم في ضبط ثغورهم ، والقوة على عدوهم ، وأعلمهم أنني متفرد حالاتهم ولا مُشعث لهم وموسع عليهم .. واعمل لما تأمر به من حضرك أو نأى عنك من أجنادك على حسب ما ترى وتشاهد ، فإن أخيك يعرف حسن اختيارك وصحة رأيك وبعد نظرك ، وهو يستحفظ الله لك ويسأله أن يشد بك عضده ويجمع بك أمره ، إنه لطيف لما يشاء » .

وحتى إذا عرفنا أن هذا الخطاب وأمثاله من كتابة كاتب من كتاب الأمين هو بكر بن المعتمر ، فإن الأمين يقرر أنه من إملائه ،

وهو على أى حال يدل على نفس طيبة وفية سليمة ، خاصة أنه كتب فى نفس الوقت مثل هذا الكتاب إلى أخيه صالح ، وكان يتولى بلاد الشام . وإلى نفر آخر من رجال الدولة ، وهو فى خطاباته كلها يؤكد على ضرورة التزام ما شرط الرشيد عليه وعلى أخيه .

ومثل هذه الخطابات تدل على إننا لسنا أمام شاب بالتفاهة التى تصورها لنا المراجع ، فقد كان رجلاً عارفاً بمسئوليته ، محافظاً عليها ، راعياً لحقوقه وحقوق غيره . وهذا لا يمنع من أنه كان يحب المرح والمسرة واللهو واللعب ، فهذه كانت طبيعة الحكام فى تلك العصور ، ثم إنه كان - كما ذكرنا - صغير السن لا تجاوز سنـه ثلاثة وعشرين سنة هجرية .

مثل هذه الروح لا نجدـها عندـ المـأمونـ قـطـ ، فـليـسـ لـديـنـاـ كـتابـ مثلـ هـذـاـ إـلـىـ أـخـيـهـ ، بلـ إـنـنـاـ نـجـدـ الـفـضـلـ بـنـ سـهـلـ - وزـيرـ المـأـمـونـ وـصـاحـبـ رـأـيـهـ - سـيـءـ الرـأـيـ مـنـ أـوـلـ الـأـمـرـ لـاـ يـفـكـرـ إـلـاـ فـىـ عـزـلـ الـأـمـيـنـ وـتـوـلـيـةـ الـمـأـمـونـ . وـاقـرـأـ - مـثـلـاـ - مـاـ يـرـوـيـهـ الطـبـرـيـ (جـ ٨ـ صـ ٣٧١ـ وـمـاـ بـعـدـهـ)ـ مـنـ تـفـاصـيلـ سـوـءـ النـيـةـ وـسـوـءـ فـسـادـ الـطـوـيـةـ ، وـأـرـجـوـ أـلـاـ يـشـغـلـنـاـ عـنـ حـسـنـ النـظـرـ فـىـ الـأـمـورـ مـاـ نـقـرـأـ مـنـ اـهـتـمـامـ الـأـمـيـنـ بـشـئـونـ الـتـسـلـيـةـ وـإـنـشـاءـ الـمـيـادـينـ لـلـصـوـالـجـ (لـعـبـةـ تـشـبـهـ الـبـولـوـ)ـ فـهـذـاـ مـزـاجـ ، وـلـكـنـهـ شـيـءـ وـالـصـلـاحـيـةـ لـلـحـكـمـ شـيـءـ آخـرـ . حـتـىـ فـىـ الـمـسـائـلـ الـعـائـلـيـةـ نـجـدـ الـأـمـيـنـ أـمـيـنـ كـرـيمـاـ حـافـظـاـ لـلـوـاجـبـ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثالث عشر

لماذا لم ندرس تفاصيل الصراع بين الأمين والمأمون؟

الآن وقد عرفنا ظروف وفاة الرشيد والميثاق الذي عقده بين ولديه الأمين والمأمون ، وعرفنا أن الأمين لم يكن بالسوء الذي تصوره لنا المراجع ، وأن معظم ما قيل عن أنه كان البادي بالغدر بأخيه المأمون غير صحيح . وقد نبهنا الأذهان إلى أن الفرق بين المأمون والأمين في السن لم يزد على سبعة أشهر ، فقد ولدا في عام واحد هو ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م وكانت سنهما يوم توفي أبوهما سنة ١٩٣ هـ / ٨٠٨ م كانت ثلاثة وعشرين سنة هجرية ، فلا أكبر هنا ولا أصغر في السن ، وهارون الرشيد لم يتخط الأكبر ليبايع للأصغر ، وإنما هو فضل الابن الهاشمي أباً وأمّا وهو الأمين على الابن الهاشمي أباً الفارسي أمّا وهو المأمون . فقد كانت أمه جارية فارسية تسمى مراجل ، وقلنا : إن الفرس كانوا يعتبرونه لهذا ابن أختهم ، أى فارسيّاً من ناحية الأم ، فتعصبوا له ، وخاصة وزيره الفارسي الفضل بن سهل الذي رأينا أنه بايع للمأمون بالخلافة عندما كان الرشيد في مرض الموت .

وقد رأينا كيف بدأ الأمين خلافته بداية طيبة ، فكتب لأخيه المأمون خطاباً جميلاً أكد فيه ما عاهده أبوهما الرشيد عليه ، ولكن نفراً من كانوا يعملون مع المأمون في خراسان - وعلى رأسهم الفضل بن الربيع - فضلوا تركه والإسراع إلى أخيه الأمين ؟ لأنه كان خليفة فعلاً ، وهو لهذا أفضل - في نظرهم - من خليفة ربما يكون في المستقبل ، هو المأمون ، ولا يدرى إلا الله إن كان سيكون أو لا يكون . ولا يسأل الأمين عن تصرف هؤلاء . وإن كان الفضل بن الربيع - وكان عربياً - لم يزل يجتهد حتى صار وزير الأمين ورجله الأول ، وهو أيضاً - بسوء تدبيره - كان من أكبر الأسباب فيما أصاب الأمين .

والآن فلننسأل : كيف وقعت الحرب بين الأخوين ؟

ولابد أن نذكر هنا ما سبق أن ذكرناه من أن الفضل بن سهل الفارسي ورجل المأمون الأول كان لا يلقب إلا بذى الرئيسين ، وكان يرى أن الخلافة ينبغي أن تكون للمأمون دون الأمين بحجة أن الأمين ليس بشيء ، والحقيقة هي أنه - وهو فارسي - كان يريد أن تكون الخلافة للمأمون نصف الفارسي الذى كانوا يسمونه ابن أختهم . وعلى هذا كان قد عزم على انتزاع الخلافة من يد الأمين ، ومع أنه لا يمكن الحكم على مواهب كل من خوين . فقد كانوا بعدها صغيرين جداً وبدون تجربة ، وكان لابد لا شك - من أن تتطور مواهبهما مع السن والتجربة . وكان

المطلوب من الوزراء والنصحاء في هذه الحالة أن يعملا على التوفيق وإصلاح الأحوال بين الأخوين حتى لا تقع البلاد في حرب أهلية ، ولكن هذا - على أي حال - لم يكن رأي الفضل بن سهل الفارسي وزير الأمون وصاحب خراسان وشرقى الدولة كله ، فقد كان رجلاً متعصباً شريراً . ولا بد أن نقول : إن الفضل ابن الربيع - العربي وزير الأمين - لم يتميز بسياسة أو كياسة أو بعد نظر ، وكان هذا من سوء حظ الأمين .

ويحدثنا اليعقوبي في تاريخه (٤٣٦ / ٢) عن بداية الحرب بين الأخوين ، ومن الخبر الذي يرويه - وسنأتي بنصفه - نرى أن البداية كانت خطأ وقع فيه الأمين ، وهذا الخطأ كان يمكن إصلاحه وإعادة الصفاء بين الأخوين ، لو لا أن النية في معسكر الأمون كانت معقودة منذ البداية على الغدر ، فلم يلبث الخطأ الصغير أن تطور إلى بداية حرب أهلية بين الأخوين ، وإليك الخبر الذي يرويه اليعقوبي : « ووجه محمد (الأمين) إلى أم عيسى بنت موسى الهادى امرأة الأمون يطلب منها جوهراً كان عندها للمؤمنون ، فمنعته وقالت : ما عندي شيء أملكه ، فوجهه من هجم منزلها فانتهت كل ما فيه ، وأخذ ذلك الجوهر ، فلما انتهت ذلك إلى المؤمن جمع القواد الذين قبله ، فقال لهم : قد علمتم ما كان أبي شرط على وعلى محمد ، وقد نكث ونقض العهود ، وأوجد السبيل إلى خلعه بنكثه ونقضه وتعرضه لأموالى وأسيابى وأعمالى ، وتحريقه

الشروط والعقود التي عليه ، واستخفافه بحق الله فيما نكث من ذلك ، واحتفاله بالخسيان ، فاتفق رأيهم على مراسلته ، فإن رجع وإلا خلعوه .. » فهل ما فعله الأمين من الهجوم على دار زوجة أخيه وأخذ ما فيها من الجوهر - إن كان هذا حدث فعلاً - يبرر خلع الأمين ؟ أما كان من الممكن إصلاح هذا الخطأ وإعادة الجوهر إلى صاحبته والإصلاح بين الأخوين ؟ بلـى ، كان من الممكن لو كان بين الأخوين رجال ذوو عقول وأخلاق ، ولكنـارأينا أنه لم يكن بينهما إلا شياطين أنانـيون ؛ ولـهذا نجد المـأمون - بعد أن بلـغـه ما حدث لـامـرـاته وجـوهـرـها - يـجمـعـ القـوـادـ الذين قـبـلـهـ ويـقـولـ لهم : « قد علمـتـ ما كانـ أـبـيـ شـرـطـ عـلـىـ وـعـلـىـ مـحـمـدـ ، وـقـدـ نـكـثـ وـنـقـضـ الـعـهـودـ ، وـأـوـجـدـ السـبـيلـ إـلـىـ خـلـعـهـ بـنـكـثـهـ وـنـقـضـهـ وـتـعـرـضـهـ لـأـمـوـالـ وـأـسـيـابـ وـتـحـريـقـهـ الشـرـوطـ وـالـعـهـودـ التـىـ عـلـيـهـ » (الـيـعقوـبـيـ / ٢ / ٤٣٦) .

إذن فمسئوليـةـ الـخـيـانـةـ وـالـغـدـرـ لاـ يـمـكـنـ أـنـ تـوـضـعـ عـلـىـ كـتـفـيـ مـحـمـدـ الـأـمـيـنـ الـعـرـبـيـ وـحـدـهـ كـمـاـ تـقـولـ لـنـاـ مـرـاجـعـنـاـ ،ـ وـلـكـنـ يـتـحـمـلـهـ أـسـاسـاـ الـمـأـمـونـ وـالـمـسـئـوـلـوـنـ عـنـ تـدـبـيرـهـ وـإـغـرـاقـ الدـوـلـةـ الـإـسـلـامـيـةـ فـيـهـ ،ـ كـمـاـ تـقـعـ عـلـىـ أـكـتـافـ رـجـالـ الـمـأـمـونـ ...ـ وـرـؤـسـاؤـهـ وـالـمـوـجـهـوـنـ لـهـمـ كـانـواـ فـرـسـاـ مـسـتـعـرـبـيـنـ ،ـ وـعـلـىـ رـأـسـهـمـ الـفـضـلـ بـنـ سـهـلـ وـأـخـوـهـ الـحـسـنـ بـنـ سـهـلـ ،ـ ثـمـ طـاهـرـ بـنـ الـحـسـنـ الـبـوـشـنـجـيـ ،ـ وـهـذـهـ حـقـيـقـةـ يـنـبـغـيـ أـنـ تـعـرـفـهـ إـذـاـ كـنـتـ حـقـّـاـ عـرـبـيـاـ تـرـيـدـ إـنـصـافـ الـعـرـبـ ،ـ أـوـ إـنـصـافـ بـصـورـةـ عـامـةـ .ـ

ولكن الشيء الذى يستوقف النظر هو قلة الكفاءة التى تصرف بها الأمين عندما وقعت الحرب بينه وبين أخيه ، ومع أن هذا خارج عن موضوع هذه الدراسة (وهى تقنية أصول التاريخ الإسلامى من الأكاذيب والأخبار المسيئة للعرب والإسلام) فإن تفاصيل ما وقع تدخل فى الموضوع الأساسى الثانى الذى أثارته هذه الدراسة ، وهو فقر الفكر السياسى عند المسلمين ، ولا أقول فى الإسلام كما جرت عادتنا أن نقول ، فإن الإسلام أعطانا الأساس السليم لكل شىء حسن ، وترك لنا مسائل التطبيق ، والإسلام يعطى العقل الإنسانى أهمية كبرى ، وهذه حقيقة أساسية تتجلى فى القرآن الكريم والسنة الشرفية ، فإن الله - سبحانه وتعالى - يخاطب العقل أولاً فى القرآن الكريم ، ثم يخاطب القلب بعد ذلك ، أى أن الإنسان ينبغي أن يقتنع بالدين أولاً وأساساً ثم تأتى العاطفة بعد ذلك ، فإن الإنسان إذا قرأ القرآن قراءة فهم وتعقل لم يلبث أن يؤمن بالإسلام بعقله وعن افتئاع حقيقي بأن هذا القرآن لا يمكن إلا أن يكون كلام خالق الكون سبحانه ، فمثل هذا الكلام لا يمكن أن يصدر عن بشر ولا يمكن أن يكون إلا من خالق الكون - سبحانه - مثله فى ذلك مثل الشمس والكواكب وبقية الكون ، فإذا آمن الإنسان بذلك كان من الطبيعي أن يؤمن بصدق رسالة محمد - صلوات الله وسلامه عليه - فهو الذى أعده الله - سبحانه - للتلقى رسالته ، ثم أوحى إليه القرآن كلمة كلمة ، وآية وآية ، وإن فكيف وصل إلينا هذا القرآن ؟

فإذا آمن الإنسان بـ**بهاتين الحقيقتين** وجد القرآن بين يديه كتاباً يخاطب عقله ويفتح له آفاق الكون ، ويشرح له أسرار الحياة ، دون أن يطالبه بشيء غير معقول وبشيء من صنع البشر كما نجد في الأديان الأخرى ، ثم إن الذي يطلبه الإسلام من المسلم قليل ومحدد ، فهو يطالبه بأن يؤمن بالله خالق الكون وكل ما فيه وحده دون شريك ، وهذا هو المعقول ؛ فإن هذا الكون المتناسق المترابط لا يمكن إلا أن يكون من صنع خالق واحد ، وإن تضارب كل ما فيه واضطرب ، فإذا آمن الإنسان بالله الواحد إيماناً كاملاً ، وبصدق رسوله لم تبق عليه بعد ذلك إلا العبادات ، وهي الصلاة والزكاة والصيام والحج ، وكلها تعود بالخير على الإنسان نفسه والمجتمع الإسلامي .

وذلك هي أركان الإسلام الخمسة المفروضة على المسلمين لسلامتهم وسلامة مجتمعهم ، ولا يجوز لهم التخلى عن شيء منها ، أما ما يلى ذلك من أساسيات التشريع الإسلامي الخاصة بعلاقة الإنسان برحمه وبقية الناس ، والزواج والطلاق ونظام الأسرة والميراث والدين وما إلى ذلك - فتنظيمات وردت في القرآن وأكملتها أو فسرتها السنة الشريفة ، وكلها خير للإنسان وآلله وبقية البشر والأرض التي نعيش فيها وبقية الكون .

أقول هذا لكى أخرج منه بأن هذه الأساسيات كفاية ، أما ما عدا ذلك من تنظيمات اجتماعية وسياسية فلا بد أن ترك لعقل الإنسان ، ومثلها في ذلك بقية أوجه النشاط الفكري والعلمي

وإذا كان الإسلام سينتناول هذه أيضاً فماذا يبقى لعقل الإنسان ؟ ثم إن هذه كلها تنظيمات متوقفة على أحوال المجتمعات ؛ ومن ثم فإن المجتمعات الإنسانية لا بد أن تختلف فيها ، والمهم فيها أن تكون ملتزمة بما ينص عليه الإسلام من العدل والأخوة والمساواة والمحافظة على كرامة الإنسان وحقوق غيره من المخلوقات ، فإذا رأت جماعة أن تكون ملكية - أي يحكمها ملوك - فلتكن كما تشاء مadam الناس راضين عن أولئك الملوك ، ومadam الملوك مؤمنين يضمنون حقوق الناس في العدل والمساواة والأخوة والكرامة ، وقد أقر رسول الله ﷺ ملkin داخل الأمة الإسلامية هما الجندي وأخوه ملكا عمان ؛ لأن الناس كانوا راضين عنهما هناك؛ لأنهما أولأ كانوا يضمنان للمؤمنين العدل والأخوة والمساواة والكرامة ، ثم لأنهما - ثانياً - كانوا يؤمنان بوحدانية الله سبحانه وصدق رسوله فيما بلغ عن الله من القرآن .

وإذا شاعت الجماعة أن تكون شورية تختار حكامها فلها أن تكون شورية يقيمها الناس ويختارون حكامهم بملء حريةهم ، ويراقبون رجالها ، ويمكون الحرية في عزلهم إذا حادوا عن الطريق ، أقول هذا لكي أخرج منه بأننا من ناحية الإسلام لا يمكن أن نقول : إن رئاسة الدولة أو السلطة السياسية العليا ينبغي أن تكون في آل فلان ، حتى قريش أو بنو هاشم لم يقل الإسلام أو رسوله : إن الرئاسة ينبغي أن تكون فيهم ، وعندما

سأل أبو بكر سعد بن عبادة في مناقشات السقيفة قائلاً : « ولقد علمت يا سعد أن رسول الله قال وأنت قاعد : قريش ولاء هذا الأمر فخير الناس تبع لخирهم ، وفاجرهم تبع لفاجرهم ، فقال سعد : صدقت ؛ فنحن الوزراء وأنتم الأمراء ، فقال عمر : ابسط يديك يا أبا بكر فلأبأيك » (الطبرى ٣ / ٢٠٣) وسعد بن عبادة هنا لم يؤيد ما قاله أبو بكر من أن رسول الله قال : إن قريشاً ولاء هذا الأمر ، وإنما المراد تأييده كان ما قال أبو بكر بعد ذلك ، وهذا يدل على أنه حتى قريش لم يكن لها ولا لأحد من فروعها أى حق في ولادة أمور المسلمين . ومن هنا يتبيّن لنا مقدار الخطأ في مبادئ بعض الناس للحسن بن علي بن أبي طالب بالخلافة بعد استشهاد أبيه ، ولم يكن الحسن بطبيعته راغباً في الخلافة ؛ فقد كان رجلاً هادئاً متاحاً كثير الميل إلى الزواج ، فانصرف إلى ذلك وترك الخلافة لمعاوية .

وإذا كان أخوه الحسين قد ترك المدينة إلى العراق مع نفر من أهله في طلب الخلافة لأنه ابن لعلى بن أبي طالب - فقد أخطأ ، فإن بنته لعلى بن أبي طالب لا تكسبه حقاً في الخلافة أو رياضة المسلمين ، أما إذا كان قد سعى لطلب الخلافة ؛ لأنه رأى أنه أكثر أهلية لها من يزيد بن معاوية وأن هناك من يؤيدونه في ذلك - فلم يكن عليه بأس فيه ؛ فمن حق كل مسلم أن يرشح نفسه إذا أحس أنه يستحق الرئاسة ، وأن هناك من يؤيده ، ومع ذلك فقد تبيّن أن الحسين لم يحسن إلى نفسه بذلك ،

فقد قصد العراق لأن بعض أهله دعوه لذلك ، ولم يكن عددهم كافياً ولا كانوا بقادرين على تأييده ، وكان استشهاده على الصورة التي حدث بها دليلاً على أنه لم يحسن تدبير هذا الأمر ، وقد آل أمره إلى ما نعرف من الوقع في الحصار وإبدائه الرغبة في التنازل عن مطلبـه والاتجاه إلى أي مكان بعيد لا يخشى منه خطر فيه ، ونحن على أي حال نلوم يزيد بن معاوية ، وأبا عبيـد بن زيـاد بن أبيـه ، وعـمر بن سـعد بن أبيـ وقـاص فـيـما فعلـوا به ، وـنـحن نـشـعـر بالـحزـن البـالـغ لـمـصـيرـه الأـسـيف ، وـلـكـنـا أـرـدـنـا هـنـا أـنـ نـقـول فـحـسـب : إنـ الـذـين طـلـبـوا الـخـلـافـة فـي ذـكـ العـصـر لـم يـكـونـوا عـلـى الـحـق ؛ لأنـ الـحـق فـي الـخـلـافـة لـا يـكـون بـرـأـيـ الإـنـسـان فـي نـفـسـه وـطـمـوـحـه إـلـىـ السـلـطـانـ، بلـ إـنـ هـذـاـ الـحـق يـرـجـع إـلـىـ الـأـمـةـ فـقـطـ، فـهـيـ صـاحـبـةـ الـحـقـ فـيـ الـخـلـافـةـ، وـلـكـنـ الـأـمـرـ كـانـ يـتـطـلـبـ - كـماـ قـلـنـاـ - تـشـرـيـعـ الـخـلـافـةـ، أـيـ وـضـعـ نـظـامـ دـسـتـورـيـ لـهـاـ، أـمـاـ تـرـكـهاـ تـسـيرـ عـلـىـ النـحوـ الـذـيـ سـارـتـ بـهـ مـسـأـلـةـ قـوـةـ وـتـدـبـيرـ وـسـعـىـ فـيـ الـخـفـاءـ فـقـدـ كـانـ سـبـبـاـ فـيـ فـقـرـ الـفـكـرـ السـيـاسـيـ فـيـ إـلـسـلـامـ، وـقـدـ أـصـابـ أـمـةـ إـلـسـلـامـ مـنـ وـرـاءـ ذـكـ شـرـ بـالـغـ .

وـالـآنـ وـقـدـ وـصـلـنـاـ إـلـىـ هـذـاـ الـحـدـ فـيـ الـكـلـامـ عـمـاـ كـانـ بـيـنـ الـأـمـيـنـ وـالـمـأـمـونـ فـلـنـكـملـ الـحـدـيـثـ عـنـ الـمـأـسـاةـ الـتـيـ كـانـتـ بـيـنـهـمـ، وـإـنـ كـانـ هـذـاـ الـكـلـامـ لـاـ يـدـخـلـ فـيـ مـوـضـوعـ هـذـهـ الـدـرـاسـةـ، وـهـوـ «ـتـنـقـيـةـ أـصـوـلـ الـتـارـيـخـ إـلـسـلـامـيـ»ـ فـنـقـولـ : إـنـنـاـ نـدـهـشـ مـنـ قـلـةـ

الكافية التي ظهر بها رجال الأمين في ذلك الصراع الحاسم بينه وبين أخيه ، وأول ما يبدو لنا من ذلك هو أن المسئول الأكبر عما أصاب الأمين كان وزير الفضل بن الربيع الذي رأينا أنه ترك مكانه الذي كان فيه من بلاط المأمون ، وما كان ينبغي له قط أن يتركه؛ لأن الرشيد اشترط على كل من ابنيه أن يحتفظ برجاله ولا يأخذ أحداً من رجال أخيه ، ويبدو أنه كان بين هذا الرجل والمأمون شيء؛ ولهذا نجد الطبرى يقول : ذكر أن الفضل بن الربيع فكر بعد مقدمه العراق على محمد منصرفاً من طوس وناكثاً للعهود التي كان الرشيد قد أخذها عليه لابنه عبد الله ، وعلم أن الخلافة إذا أفضت إلى المأمون يوماً وهو حى لم يبق عليه ، وكان فى ظفره به عطبه ، فسعى فى إغراء محمد بأخيه وحثه على خلعه وصرف ولایة العهد إلى ابنه موسى ، ولم يكن ذلك من رأى محمد ولا عزمه ، بل كان عزمه - فيما ذكر عنه - الوفاء لأخويه عبد الله والقاسم بما كان أخذ عنه لهما والده من العهود والشروط ، فلم يزل الفضل (بن الربيع) به يصغر فى عينه شأن المأمون ، ويزين له خلuge حتى قال له : ما تنتظر يا أمير المؤمنين بعد الله والقاسم أخويك ؟ فإن الدعوة كانت لك متقدمة قبلهما وإنما أدخلها فيها بعدك واحداً بعد واحد ؟ وأدخل فى ذلك من رأيه معه على بن عيسى بن ماهان والسندى وغيرهما من بحضرته ، فأنزال محمداً عن رأيه (٣٤٤ / ٨) .

وهذا كلام لا يصح ولا يقبل إلا إذا افترضنا أن الأمين كان بالغاً في الغباء مداه ، فقد كان العهد الذي أخذه أبوه عليه من الجلالة والخطورة بحيث يصعب أن نتصور أن الشر كله كان من الفضل بن الربيع وحده ، ثم ماذا كان بين المأمون والفضل ابن الربيع حتى يخافه هذا الأخير إلى هذا الحد ؟ الواقع أن التاريخ هنا ناقص وغير مفهوم أو مقبول . ثم هل كان محمد الأمين يجهل أمر أخيه عبد الله المأمون إلى هذا الحد ؟ ثم إننا سترى أن المأمون نفسه كان في غاية العقل والذكاء ، وأن رجاله الفضل بن سهل وطاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين وغيرهم كانوا بالفعل أذكي وأقدر مرات من رجال الأمين . والغريب أن الأمين كتب إلى ولاته ورجاله بالدعوة لابنه موسى ثم للمأمون والقاسم ابني الرشيد ، ونحب أن نضيف هنا أن العهد الذي كتبه الرشيد بين ابنيه كان يبيح لمحمد الأمين أن يبایع لابنه على خراسان بعد أن تنتهي ولاية المأمون عليها ، معنى ذلك أن نقطة الخلاف بين الأخوين كانت يسيرة . فماذا كان يمكن المأمون من الكتابة لأخيه الأمين أو إرسال رجال لإصلاح هذا الخلاف ؟ ولو أنه كان هناك - كما قلنا - مجلس من عقلاه الرجال لهم الحق في التدخل وإبداء النصيحة لأمكنهم إصلاح هذا الخلاف ، ولكن حرص الرشيد على إبعاد الفقهاء والعلماء من أهل الأمة عن السلطان كان سبب البلاء كله ، ولم يكن هذا خطأ الرشيد وحده ، بل كان - كما قلنا - خطأ كل رجال

السياسة . فقد كانوا حريصين على ألا يدخل في السياسة أحد غيرهم ورجالهم وخدمهم .

وكان المؤمن حسن المعاملة للرجال ، فقد اطمأن إليه رافع ابن الليث بن نصر بن سيار ، وكان من كبار القادة ، ودخل في رجاله ، وكذلك فعل هرنمة بن أعين .

ويستوقف النظر أن الفضل بن سهل ذا الرياستين سره أن ينصرف الفضل بن الربيع ومن معه إلى الأمين ، وكانت سنة عندما صرخ سبعاً وعشرين سنة ، وتفاصيل الصراع بين الأخوين مهيبة جداً للأمين ، وما أظن أحداً درس التفاصيل بعد . وأعتقد أنها لابد أن تدرس .



الفصل الرابع عشر

الأصول البعيدة لمحنة خلق القرآن

أثناء قيامي بهذا البحث في أصولنا التاريخية القديمة منقباً عن الأخبار والصور التاريخية المسيحية إليها التي أوردها قدامى المؤلفين - عن غير قصد طبعاً - لكي ننبه الناس إلى ضرورة الاحتراس منها ، الاحظ مرة بعد أخرى أننا في الواقع نجهل حقائق التاريخ الإسلامي ، ولا نكفل أنفسنا جهداً ، ومن هنا فإننا نردد - سواء في الكتب العامة أو المدرسية - صوراً تقليدية وضعها مؤرخون محدثون بضاعتهم من التاريخ قليلة ، وفهمهم لحقائقه مضطرب وحافل بالأخطاء .

وربما كان أول من تنبه إلى ضرورة تقويم هذا التاريخ وبدا عملية الإصلاح هو الشيخ محمد الخضرى الذى يعتبر - بلا شك - من عمد التاريخ للمسلمين فى عصرنا الحاضر ، فقدقرأ هذا الرجل الأصول بعناية واضحة ، وتنبه إلى ضرورة قراءة الأصول ، ونظر إلى المادة التاريخية نظرة جديدة وجادة تخرج بنا عن الصورة التقليدية التى نجدها فى مؤلفاتنا الكبرى من أوائل تاريخنا الإسلامي حتى نهايات العصور الوسطى ،

و خاصة الموسوعات من أمثال « نهاية الأرب في فنون الأدب » لأبي العباس شهاب الدين أحمد التویری المتوفى سنة ٥٧٣٢ هـ / ١٤٣١ م ، و شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمری المتوفى سنة ٥٧٤٨ هـ / ١٤٤٧ م ، صاحب « مسالك الأبصرار في ممالك الأمصار » ، والقلقشندی صاحب « صبح الأعشی » فهذه كلها كتب عظيمة حافلة بالمعلومات ، ولكنها كتب تجميع ، أى أن مؤلفيها جمعوا ما تيسر لهم من العلم بالماضي العربي والإسلامي ، و جمعوه في كتب ضخمة متعددة الأجزاء ، ولكن ليس فيها درس أو تمحیص ، وبعضها ينقل لنا فصولاً من كتب ضاعت أو لم نجدها إلى اليوم ، ومن الإسراف أن نطلب إلى هؤلاء الرجال أكثر مما فعلوا ؛ إذ يکفيهم أنهم جمعوا وقدموا لنا مادة ضخمة جداً و قيمة جداً ، ولكن ليس فيها درس ولا فحص ولا تعمق في أى ناحية من النواحي التي تناولتها كتبهم .

و ثانی المفكرين المحدثين الذين تناولوا هذا التراث الواسع بالدراسة والنقد ، وأحسنوا التأليف في الحضارة الإسلامية والفكر العربي هو جورجی زیدان الذي أكثر الناس من الإساءة إليه في حياته ، وما زال بعضاً يسىء الظن به إلى الآن ، ولكن الرجل كان - دون شك - مفكراً ، و مؤرخاً جاداً وأصيلاً ، و صاحب أثر بعيد في فكرنا المعاصر .

وجاء بعد الخضرى وجورجی زیدان مؤلفون كثيرون ، ولكنهم تقليديون يعطوننا عن الماضي العربي صوراً جامدة لا

بحث فيها ولا أصالة ولا حياة . وأنا الآن في هذه الدراسةأشعر أننا بالفعل في حاجة إلى دراسة دقيقة ومتأنيةلتاريخنا الماضي وكتابته في صورة أصيلة ونقدية ؛ لأن الكتابة التقليدية السريعة لا تنفع في شيء ، وأمامك كتب التاريخ التي تكتب في عصرنا ، سواء لأغراض تعليمية مثل الكتب المدرسية والجامعية، أو لأغراض ثقافية عامة ... وأحياناً يكون الغرض تجاريًّا صرفاً ، ومن هنا فإننا - رغم كثرة ما نكتب في تاريخنا السياسي أو الحضاري - لا نكاد نعرف إلا القليل عن حقائق ذلك التاريخ معرفة سليمة وأصيلة . وأظلنك قد تبيّنت ذلك فيما سبق من فصول دراستي هذه .

وعندما تعرضت لدراسة مهنة خلق القرآن التي بدأت في عصر المؤمن - وهي مهنة إنسانية وخلفية قبل أن تكون دينية - رأيت أنني لن أفهمها الفهم الصحيح إلا إذا قرأت التاريخ العباسى قبلها في دراسة صبور متأنية في مراجعنا التاريخية الكبرى ، وهي تواریخ الطبرى (ولابد من أن ندرس تفسيره في نفس الوقت) وابن الأثير واليعقوبى وأبى الفدا ، هذا بالإضافة إلى ما كتبه ابن خلدون في المقدمة والتاريخ ، وما أورده المسعودى في مروج الذهب من أخبار وملاحظات هي الغاية في الأهمية ، وما نجده عند الجاحظ من ملاحظات وآراء - أصيلة أو مزيفة - ولكنها تنفعنا في مطلبنا هذا نفعاً عظيماً ، وكذلك لابد من دراسة كتب الخراج ، وكتاب الوزارة ، والكتاب لابن عبدوس الجهشيارى .

وأبدأ فأسأله : ماذا نعرف عن التاريخ العباسى ؟ قلت :
نعرف - على وجه التقرير - كيف قامت الدولة العباسية ،
ولكن ماذا حدث بعد ذلك ؟ كيف كانت هذه الدولة تدار ؟ ومن
الذى كان يديرها ؟ ولماذا - مثلاً وباستثناءات قليلة - قصرت
حياة الخلفاء العباسيين الأوائل ؟ فأبو العباس عبد الله بن محمد
السفاح حكم أقل من خمس سنوات هجرية ، وأخوه أبو جعفر
عبد الله المنصور بن محمد حكم فوق الاثنين والعشرين سنة
بقليل ، وأبو عبد الله محمد المهدي بن المنصور تسع عشرة سنة ،
وأبو محمد موسى الهادى بن المهدي سنة واحدة وشهوراً ، وأبو
جعفر هارون الرشيد بن المهدي حكم أقل من اثنين وعشرين سنة
سنة ، وأبو جعفر عبد الله المأمون بن الرشيد حكم عشرين سنة
- منها سنة حكمها إبراهيم بن المهدي - وأبو إسحاق محمد
المعتضى بن الرشيد حكم حوالي ستة عشر عاماً (منها سنة
حكمها من دمشق العباس بن المأمون) وأما أبو جعفر هارون
الواثق بن المعتضى فقد حكم خمس سنوات ، وهكذا .

وهذه كلها سنوات هجرية ، ومعنى ذلك أن لدينا تسعة
خلفاء في أقل من مائة سنة هجرية . ولو أننا أضفنا إليهم
إبراهيم بن المهدي لكان لدينا عشرة خلفاء في مائة سنة ،
ومعنى ذلك أن متوسط حكم الخليفة العباسى خلال العصر
ال Abbasى الأول عشر سنوات ، وهذه فترة قصيرة جداً بالنسبة
لحكم الخلفاء ، فما السبب في ذلك ؟

هناك أسباب عديدة ، ولكن أهمها عندنا هنا هو أن الدولة العباسية كانت منذ ميلادها دولة غاصبة . وأرجو أن تعلم أن الناس في كل عصر كانوا يعرفون كل ما نسميه بالأسرار ، فكل ما كان يجري في القصور كان الناس في الشوارع يعرفونه ويتحدثون عنه ، وأن من يسميهم مؤرخونا بالعامة أو الرعاع أو الغوغاء - والذين نسميهم نحن اليوم بـ رجل الشارع - كانوا يعرفون كل شيء يجري في القصور . ومن أول الأمر كان الناس في كافة نواحي العالم الإسلامي في صميم قلوبهم غير معتبرين بالدولة العباسية . وهذه الحقيقة كانت ثقيلة جداً على نفوس بنى العباس ، وكان لهذا أثر بعيد جداً في حياة الخلفاء .

ومن ناحية أخرى فإننا نعرف أن أفراد البيت العباسي كانوا مسرفين على أنفسهم في شئون المتناع البدني ، وخاصة الجنس والطعام ، كما سنرى عندما ندرس تفاصيل حياة الخلفاء .

الحقيقة أن الخليفة العباسى الوحيد الذى كان يقدر مسئoliته ويقوم بها خلال العصر العباسى الأول هو أبو جعفر المنصور (١٢٦ - ١٥٨ هـ / ٧٧٥ - ٧٥٤ م) فقد تولى أمور خلافته بغایة الجد ، وهذا الجد كان يصرفه عن النساء فكان لا يجهد بدنه . فإذا أصابه إجهاد كان يعرف كيف يريح بدنه ويستعيد قوته . خاصة أنه كان له قرب مدخل قصره غرفة فيها فرش وغطاء ، وكان إذا دخل قصره أسرع إلى هذه الغرفة

ليستريج ، وكان المنصور إداريًّا عظيمًا وماليًّا دقيقاً ، فقد أحكم تنظيم دولته إداريًّا ، وهو الذي ضبط مقادير الجباية المستحقة على كل ناحية ، وهو الذي وضع أساس جمع الأموال ، وحدد موارد المال ، وأشرف على جبایته وحفظه .

والدولة العباسية نشأت في جزء من دولة الفرس القديمة ، وورثت أساليبها المالية وإن أعطتها أسماء عربية . وقد كانت موارد الأموال بالنسبة للدولة العباسية هي الخراج والجزية والزكاة والفاء . وكان الأساس ألا تقل مبالغ الأموال التي تجبىها الدولة عما كان الفرس يجبوه من قبل وإن اختلفت التسميات ، وصاحب الفضل في ذلك هو أبو جعفر المنصور .

والدولة الإسلامية أصبحت في أيام أبي جعفر دولة آسيوية وجهتها آسيا ؛ ولهذا حرصت على ألا تفقد شيئاً من أراضيها الآسيوية ، حتى السند والتبت ، كانت الدولة حريصة على سلطانها فيها وجمع المال المستحق منها . في حين أن الدولة الأموية كانت دولة متوسطية متوجهة بوجهها نحو البحر المتوسط وحضارته ، وكان تطور الدولة في العصر الأموي بحريًّا متوسطيًّا ، فاهتمت بالأساطيل والموانئ وكل ما يتصل بالبحر وشئونه ، وكان اهتمامها بالتجارة عظيماً ، أما الدولة العباسية فأهملت - إلى حد بعيد - شئون البحر والسفن والموانئ والتجارة ، بل إنها جغرافياً ضمت الأندلس ومعظم المغرب ، وكانت آخر حدودها من ناحية المغرب هي الحدود

الغربية لولاية إفريقية ، وولاية إفريقية كانت تلى مصر غرباً . وأقصى حد لها فى الغرب كان نهراً يسمى نهر شلف الذى ينبع من جبال الأطلس جنوبى ميناء يجلية الحالية ، ويسير إلى الشمال حتى يقارب البحر المتوسط عند موقع جنوبى مدينة الجزائر الحالية ، ثم يتوجه نهر شلف إلى الغرب ، ويسير محاذياً للبحر حتى يصب فيه عند مرسى هنین غربى وهران . ولكن الدولة العباسية عرفت على أى حال كيف تحافظ على ولاية إفريقية ، وتحميها من الخوارج ، وتطردهم إلى خارج حدودها الغربية .

وقد كانت الدولة العباسية تحمل فى سبيل ذلك عبئاً ثقيراً جداً حتى تولى أمر إفريقية هرثمة بن أعين ، وهو من أكبر القواد العسكريين والحكام الإداريين فى الدولة العباسية فى أيام هارون الرشيد وولديه الأمين والمأمون ، وهو الذى أوصى هارون الرشيد بالاستجابة إلى ما طلبه إبراهيم بن الأغلب من أن تقطعه الدولة إفريقية لقاء خراج قليل نسبياً . ولكن أهم ما كانت تعنى به دولة بنى العباس هو المحافظة على مذهب السنة فى إفريقية .

وقد نجح إبراهيم بن الأغلب فى ذلك ، وظل هو وأولاده مخلصين للدولة العباسية ، وصاحب الفضل فى ذلك هو أبو جعفر المنصور الذى عاش حتى قارب السبعين من العمر بعد أن ضبط الأمور المالية والإدارية للدولة العباسية . وكل ما لدينا

من إحصائيات وأرقام عن دخل الدولة إنما يرجع الفضل فيه إليه . . وهذه الأرقام تصور الأحوال المالية للدولة في أيامه .

ولقد تدهورت تلك الأحوال تدهوراً بالغاً فيما بعد ، ولكن الجهد الذي بذله المنصور في ذلك الميدان سيظل الأساس المالي للدولة إلى آخر أيامها .

وقد حكينا فيما سبق حكاية تدل على أنه كان مقتضاً جداً في شئون النساء ، حتى إنه لم يتزوج إلا امرأة واحدة ، وهذه طبيعة وخلق فيه ، ونجد هذا الطبع في الكثير من الناجحين من رجال الدول الإسلامية ، مثل عبد الرحمن الداخل ، وعبد الرحمن الناصر .

ومع ذلك فقد كان هذا الرجل منهوماً إلى الطعام بشكل غير عادى ، بل يمكن أن يقال إنه كان مريضاً فيه ، ويروى الطبرى في ذلك خبراً عجيباً ، رواه له أحد أصحاب المنصور يسمى على ابن محمد بن سليمان التوفلى عن أبيه قال : كان المنصور لا يستمرئ طعامه ، ويشكوا ذلك إلى المتقطبين ، ويسألهم أن يتذدوا له الجوارشنات (أي الأدوية الهاضمة مثل بيكربونات الصودا) فكانوا يكرهون ذلك ويأمرونه أن يقلل من الطعام ، ويقولون له : إن الجوارشنات تهضم في الحال ، وتحدث من العلة ما هو أشد منه عليه . حتى قدم عليه طبيب من أطباء الهند فقال له كما قال له غيره . فكان يتذد له سفوفاً جوارشنا

يابساً فيه الأفواويه والأدوية الحارة ، فكان يأخذه فيه ضم طعامه ، قال النوفلى : قال لى كثير من متطببى العراق : لا يموت والله أبو جعفر أبداً إلا بالبطن ، قلت له : وما علمك ؟ قال : هو يأخذ الجوارشن فيه ضم طعامه ويخلق من زئير معدته (أى يضعف من أحماض بطنه) كل يوم شيئاً وشحم مصارينه فيموت بيطنه ، ويبعدو أن هذا صحيح ، فقد مات أبو جعفر وهو في الطريق إلى مكة ، وقد أصابه حر من ركوبه في الهواجر (أى ركوبه في السفر في الأيام الحارة) وكان رجلاً محورراً على سنه يغلب عليه المرار الأحمر ، ثم هاض بطنه فلم يزل على ذلك حتى نزل على بستان عامر ، وتوفي في السحر أو مع طلوع الفجر ليلة السبت لست خلون من ذى الحجة سنة ١٥٨هـ / أكتوبر ٧٧٤ م إذ كان قريباً جداً من مكة ، ولكنه لم يصلها .

وكان معه مولاه المؤمن الربيع بن يونس ، وهو والد الفضل بن الربيع وزير الأمين الذي تحدثنا عنه وسنعود إليه وعلى ذكر الربيع بن يونس نقول : إن المشكلة الكبرى التي أضفت خلفاء بنى العباس وضياعت الدولة العباسية آخر الأمر هم رجال الدولة (أى رجال الإداره من الوزراء) فهو لاء كانوا بالفعل على مستوى متواضع من الكفاءة ، وكانت تسيطر عليهم الأنانية المفرطة . والسبب في ذلك هو أن العباسيين كانوا يعرفون من أول الأمر أنهم غاصبون ، وأن الشعب لا يحبهم ولا يؤيدهم ؛ لأن رأى الناس كان أن بنى على بن أبي طالب هم

أصحاب الحق في هذه الدولة؛ لأنهم في الحقيقة كانوا خيرة بنى هاشم . والعباس بن عبد المطلب نفسه لم يكن من الصحابة المخلصين ؛ فقد كان عدو الإسلام معظم حياته ، وحارب الإسلام في بدر ووقع أسيراً ، وأمر الرسول ﷺ أمره بـالـإـلـغـافـةـ لـعـذـرـةـ عن فديته ، وكانت أربعة آلاف درهم ، وقال : إنه غنى كثير المال . ثم إنه أسلم في نفس الوقت الذي أسلم فيه أبو سفيان صخر بن حرب ، وقد قلنا - فيما سبق - : إن أبو سفيان كان أذكي من العباس ، وقد قدم لقريش والإسلام خدمة كبيرة عندما جعل مكة مدينة حرة ؛ ومن ثم فقد استطاع الرسول ﷺ ضمها إلى الإسلام دون حرب ، فسلمت مكة من ويلات الحروب ، وسلمت قريش من الفناء .

ومن أكبر الأدلة على الشعور بأن العباسين غاصبون وأن أمة الإسلام لا تريدهم هو مقتل أبي سلمة الخلال وزير آل محمد ، وما كان من الغدر بابن هبيرة ، ثم مقتل أبي مسلم الخراساني على صورة بالغة البشاعة ، كل ذلك أبعد العباسين عن قلوب الناس ، وجعل تعلقهم الحقيقي يتجه نحو الفقهاء ؛ فهم كانوا في الواقع رجال أمة الإسلام يتعلق بهم الناس في كل مكان . وكان كبراء الفقهاء يتحاشون أي اتصال وثيق بالعباسين ، وهذه هي « الحالة » التي أخذت صورتها الحاسمة في محنـة خلق القرآن .

ثم إن غدر هارون الرشيد بالبرامكة كان له صدى بعيد في قلوب الناس؛ لأن البرامكة - وإن كانوا فرساً - فإنهم كانوا محسنين ومحليين، وقد تصرفوا في أمور الدولة بإذن ورضا من العباسيين. وكانوا في الواقع محسنين وكرماء وفضلاء، فكان يحيى البرمكي رجلاً كاملاً فاضلاً، وقد أخلص في خدمة بنى العباس، واستخدم مواهبه الإدارية الكبيرة في إدارة الدولة بعد المنصور، ولم يقل أحد قط إنهم كانوا مسيئين أو لصوصاً، ولو لاهم لما استطاعت الدولة العباسية أن تقر في مكانها، خاصة أن المهدى ثم الهادى لم يكونا على شيء يذكر من الكفاءة، وإذا كان المهدى قد حدد للدولة رسالتها الحقيقية وهي حماية السنة والقضاء على الزندقة، فإن الهادى لم يكن بشيء، وكان في عزمه أن يخلع أخيه هارون (الرشيد) عن ولاية العهد، لو لا أنه مات قتيلاً على صورة غير واضحة، والرأي السائد عند المؤرخين القدامى هو أن التي دبرت مותו كانت أمه الخيزران، وكانت من أقدر النساء، وكانت عواطفها مع ابنها الأصغر وهو هارون الرشيد.

وجاء هارون الرشيد، وهو في مجتمع مشكلة تاريخية؛ فإنه ليتوقف النظر أنه كان قليل الإقامة في بغداد. ويقال: إنه كان يخافها ويختلف البرامكة، ولكن خوفه من بغداد وأهلها لم يفارقه. فنجد أنه دائمًا وسط عساكره منتقلًا بين بلدان المشرق، ومن هنا جاء قولنا: إنه كان يغزو عاماً ويحج عاماً،

وهو لم يكن غازياً عظيماً ولا كان كثير الحج ، ومع أن الناس كانوا يحبونه لكرمه وورعه وعدله فإن نكبة البرامكة كانت ضربة قاضية على سلطانه ، وبعد البرامكة اعتمد الرشيد على الفضل بن سهل وأبن عمّه وهو الحسن بن سهل ، وهما من الفرس كالبرامكة ، بل كان شعورهما بفارسيتهم أقوى وأعمق ، والفضل كان يتحدث في مجالسه بالفارسية ، وكان معادياً للعرب في بلاط العباسيين ، وخاصة على بن الحسين الهمذاني زعيم الأزد ، وكان متغلباً على الموصل هو وأخوه أحمد وأهل بيت من الأزد ، وقد أخطأ على بن الحسين خطأ فاحشاً عندما قتل رجلاً من الأزد يسمى عون بن جبلة ، فانقلب الأزد عليه وعلى أخيه أحمد وعلى وقتلوهم .



الفصل الخامس عشر

القول بخلق القرآن وسيلة للانتقام من الفقهاء

تعودنا على أن نقسوا في الحكم على البرامكة ، وأن نمر مروراً عاجلاً وسطحياً بقضاء الرشيد عليهم . مع أن البرامكة كانوا في الحقيقة حصن الدولة العباسية وضمان أمنها . حّلّ لهم كانوا فرساً ، ولكنهم كانوا قد استعربوا قلباً ولساناً ، وكانوا يخدمون دولة بنى العباس بإخلاص ، فقد كانوا أعرف الناس بالأموال وأساليب جمعها وتخزينها ، ثم صرفها في خدمة الدولة وخدمة أنفسهم أيضاً . وأهم من ذلك أنهم كانوا قد حصلوا على حسن ظن الفقهاء ، والفقهاء كانوا رؤساء الناس ، أي أن البرامكة كانوا يضمون الخلفاء في نظر الفقهاء والجماهير ؛ لأنهم كانوا يعرفون الفقهاء وأقدارهم ، وكانوا يعرفون كيف يعاملونهم بكل ما يستحقونه من احترام ، وقد كان المال خير وسيلة لكسب رضا الناس في تلك العصور ، ولكن الفقهاء - وخاصة كبرائهم - ما كان يعنيهم المال إلا في قليل ، وإنما كان يعنيهم في المقام الأول الدين والشرف ، وكان البرامكة يعرفون أولئك الرجال ويولونهم ما يستحقونه من

احترام وتقدير ، وإن كان الفقهاء يحافظون على أنفسهم بعيدين عن الدولة ورجالها .

وكانت للبرامكة عيونهم ، ولكننا ننظر هنا نظراً عاماً ، ونقول : إن البرامكة في مجموعهم كانوا عصباً القوة للدولة في نظر الفقهاء والجماهير ، فلما ذهبوا ذهب ذلك كلّه ، وانكشفت الدولة العباسية في نظر الناس ، وبانت على حقيقتها .

وليت العباسيين عندما قضوا على البرامكة ، عرفوا كيف يعتمدون على رجال أفضل منهم ، أو رجال من العرب على الأقل ، ولكنهم اعتمدوا مع الأسف على رجال فرس أسوأ من البرامكة بكثير ، وقد أشرنا إلى حقائق أليمة عن الفضل بن سهل الكبير وزراء الرشيد ، وقد رأينا من سوء أخلاقه وعجزه السياسي كثيراً ، وسنرى فيما يلى نواحي أخرى من سوء حال ذلك الرجل .

أما الرجل الثاني الذي اعتمدت عليه الدولة بعد البرامكة ، فكان طاهر بن الحسين بن مصعب البوشنجي ، وهو أبو عبد الله ابن طاهر منشئ الدولة الطاهرية ، وهو فارسي الأصل ، ولكنه لا يمكن أن يقاس بأقل البرامكة ، وإليك الخبر التالي الذي يرويه ابن الأثير عن الحسين بن مصعب والد طاهر ، وهذا الخبر يغني عن كلام كثير . قال ابن الأثير في الكامل (٥ / ١٢٥) تحت عنوان : « ذكر عزل على بن عيسى بن ماهان عن خراسان

وولية هرثمة «بن أعين» : وفيها (سنة ١٨٧هـ / ٨٠٣م) عزل الرشيد على بن عيسى بن ماهان (الذى سيكون من أكبر رجال الأمين ، وسيموت فى الحرب مع طاهر بن الحسين) وكان سبب ذلك ما ذكرناه من قتل ابنه عيسى (بن على بن عيسى بن ماهان) فلما قتل جزع عليه أبوه ، فخرج من بلخ إلى مرو مخافة أن يسير عليه رافع بن الليث (بن نصر بن سيار) ليأخذها . وكان ابنه عيسى قد دفن فى بستانه ببلخ أموالاً عظيمة ، وقيل كان ثلاثة ألف ألف (والمراد ٣٠ مليون درهم فى الغالب) ولم يعلم بها أبوه ، ولم يطلع عليها إلا جارية له . فلما سار على بن عيسى إلى مرو أطلعت الجارية على ذلك بعض الخدم ، وتحدث به الناس ، واجتمعوا ودخلوا البستان ونهبوا المال ، وبلغ الرشيد فقال : خرج من بلخ بغير أمرى ، وخلف مثل هذا المال ، وهو يزعم أنه باع حلى نسائه فيما أنفق على محاربة رافع (بن الليث بن نصر بن سيار) . فعزله واستعمل هرثمة بن أعين . وكان قد نقم الرشيد عليه ما كان يبلغه من سوء سيرته وإهانته أعيان الناس واستخفافه بهم فمن ذلك أنه دخل عليه يوماً الحسين بن مصعب والد طاهر بر الحسين وهشام بن قراخرسو ، فسلموا عليه . (المراد هنا هرثمة ابن أعين) قال لحسين : لا سلم الله عليك يا ملحد ابن الملحد ، والله إننى لأعرف ما أنت عليه من عداوة الإسلام والطعن فى الدين .

ولم أنتظر بقتلك إلا أمر الخليفة . ألسنت المرجف (بي) في منزلى هذا بعد أن ثملت من الخمر ، وزعمت أنك جاءتك كتب من بغداد ؟ اخرج إلى سخط الله - لعنك الله ! - فعن قريب (ترى) ما يكون منها . فاعتذر إليه فلم يقبل عذرها ، وأمر بإخراجها فأخرج . وقال لهشام بن قرا خسرو : صارت دارك دار الندوة يجتمع إليك السفهاء ، تعطن على الولاة . سفك الله دمي إن لم أسفك دمك . فاعتذر إليه فلم يعذرها فأخرجها ، فأما الحسين بن مصعب (والد عبد الله بن الحسين) فسار إلى الرشيد فاستجار به ، وشكى إليه ، فأجاره ، وأما هشام (بن قرا خسرو) فإنه قال لبنته له : إني أخاف الأمير (يريد على بن عيسى بن ماهان) على دمي وأننا مفض إليك بأمر إن أنت أظهرته قلت ، وإن أنت كتمته سلمت . قالت : وما هو ؟ قال : قد عزمت على أن أظهر أن الفالج (أي الشلل) قد أصابنى ، فإن كان في السحر فاجمعي جواريك واقصدى فراشى وحركينى ، فإذا رأيت حالي ثقلت فصيحي أنت وجواريك ، واجمعي إخواتك فأعلمهم على ، ففعلت ما أمرها به ، وكانت عاقلة ، فاقام مطروحاً على فراشه حيناً لا يتحرك حتى جاء هرثمة والياً ، فركب فرآه على بن عيسى بن ماهان ، فقال : إلى أين ؟ فقال أتلقي الأمير أبا حاتم ، قال : ألم تكن علياً ؟ فقال : وهب الله العافية وعزل الطاغية في ليلة واحدة ، فعلى هذا تكون ولادة هرثمة ظاهرة .

وهذا هو طراز الرجال الذين اعتمد عليهم هارون الرشيد

بعد البرامكة ، وترى أنهم كانوا من مستوى أخلاقي وضيع ،
والعلاقة بين بعضهم وبعض كانت علاقة سيئة .

وكان الرشيد يشعر بذلك ، ولكن لم تك له حيلة ، فقد كان مريضاً بعلة شديدة لا تأذن له بطول التفكير ، ثم إنه كان يخاف العيش في بغداد ، وقد روى ابن الأثير خبراً يصور لنا حالة الرشيد بعد أن قضى على البرامكة وبائع لولديه الأمين والمأمون ، ثم لأبنه الثالث القاسم ، قال : « فلما سار الرشيد من الرقة إلى بغداد يريد خراسان لحرب رافع بن الليث (بن نصر ابن سيار) وكان مريضاً ، واستخلف على الرقة ابنه الثالث القاسم ، وضم إليه خزيمة بن خازم ، وسار من بغداد يريد النهروان لخمسة خلون من شعبان سنة ١٩٢ هـ - ٨٠٨ م ، واستخلف على بغداد ابنه الأمين ، وأمر المأمون بالمقام ببغداد ، فقال الفضل بن سهل للمأمون حين أراد الرشيد المسير إلى خراسان : لست تدرى ما يحدث بالرشيد . وخراسان ولايتها محمد الأمين المقدم عليك ، وإن أحسن ما يصنع بك أن يخلعك وهو ابن زبيدة وأخواه بنو هاشم ، وزبيدة وأموالها ، فاطلب إلى أمير المؤمنين أن تسير معه ، فطلب إليه ذلك ، فأجاب بعد امتناع ، فلما سار الرشيد سايره الصباح الطبرى ، فقال له : يا صباح ، لا أظنك ترانى أبداً فدعا (يريد فدعا له بطول العمر) فقال : وما أظنك تدرى ما أجد ! قال الصباح : لا والله . فعدل عن الطريق ، واستظل بشجرة ، وأمر خوامه بالبعد ، وكشف عن

بطنه فإذا عليه عصابة من حرير (حوالى بطنه) وقال : هذه علة أكتمها عن الناس كلهم ، ولكل واحد من ولدی علَّی رقیب ، فمسرور رقیب المأمون ، وجبرائیل بن بختیشوع رقیب الأمین ، وما منهم أحد إلا وهو يحصی أنفاسی ويستطیل دھری ، وإذا أردت أن تعلم ذلك فالساعة أدعو بدابة فیأتونی بدابة أعجف قطوف (يرید عجفاء ضعیفة) للتزید من علته ، فاکتم عنی ذلك . فدعاله بالبقاء ، ثم طلب الرشید دابة ، فجاءوا بها على ما وصف ، فنظر إلى الصباح وركبها (ابن الأثیر ٥ / ١٢٧ - ١٢٨) .

ويبدو من هذا الخبر أن الرشید كان يشکو فتقاً أسفل البطن إلى جانب علة أخرى قاتلة ، وكان هو يعرف أنها قاتلة ، ولكنـه كان في حالة سيئة ، ولا يکاد يثق في أحد ممن حوله ، وما نظن أن حالتـه كانت ستتصـير إلى هذا السوء لو أن البرامـكة كانوا موجودـين ، ولكنـ الذين خلفـوهم في ریاستـة الدولة كانوا من شرارـ الخلق ، وأولـهم في ذلك الفضلـ بن سهلـ وظاهرـ بن الحسـين ، وقد كان عمرـ الرشـید عندما ماتـ سبعـاً وأربعـين أو ستـاً وأربعـين سنة هجرـية . وهذه سنـ صـغـيرة جـداً .

على أيـ حال رأينا كـيف وقـعت الحربـ والفتـنة بينـ الأمـمـ والمـأـمونـ ، وكـيف انتـصر المـأـمونـ وقتلـ الأمـینـ ، وصارـ الأمـرـ كـلهـ للفضلـ بنـ سـهـلـ . وكانـ النـاسـ جـمـيعـاً يـكـرهـونـهـ ولاـ يـرـضـونـ عنـ السـلـطـانـ المـطلـقـ الـذـيـ فـرضـهـ عـلـىـ المـأـمونـ .

قال الطبرى : ففضب لذلك بالعراق من كان بها من بنى هاشم ووجوه الناس ، وأنفوا من غلبة الفضل بن سهل على المؤمنون ، واجترأوا على الحسن بن سهل بذلك ، وهاجت الفتنة بالأمسار ، وكان أول من خرج بالكوفة ابن طباطبا (وهو محمد ابن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن على بن أبي طالب) قال ابن حزم : القائم مع أبي السرايا بالكوفة ، وأخوه القاسم الرسى بن إبراهيم بن طباطبا بن إسماعيل بن إبراهيم ، وفيه الجمهرة والعدد (جمهرة أنساب العرب ص ٤٣) وقد انزعج المؤمنون ورجاله جميعاً من ثورته ؛ لأنها لقيت من الناس تأييداً شديداً ، مما أفهم المؤمنون أن الناس لا يحبون بنى العباس ولا يريدونهم ، حقاً إن محمد بن إبراهيم بن طباطبا لم يلبث أن مات فجأة ، بالسم في الغالب .

ولكن نجاح الدعوة كان مخيّفاً للمؤمنون ، خاصة أن أخاً محمد بن إبراهيم بن طباطبا - وهو القاسم الرسى بن إبراهيم ابن طباطبا - استطاع أن ينشئ دولة كبيرة في اليمن . وكان لثورة محمد بن إبراهيم بن طباطبا صدى بعيد في العراق ومصر ومكة . قال الطبرى (٨ / ٥٢١) : فوثب محمد بن محمد ومن معه من الطالبين على دور بنى العباس ودور موالיהם وأتبعهم بالكوفة وانتهبوها وخربيوها ، وأخرجوهم من الكوفة ، وعملوا في ذلك عملاً قبيحاً واستخرجوا الودائع التي كانت عند الناس فأخذوها ، وكان هرثمة - فيما ذكر - يخبر

الناس أنه يريد الحج ، فكان قد حبس من يريد الحج من خراسان والجبال والجزيرة وحاج بغداد وغيرهم ، فلم يدع أحداً يخرج رجاء أن يأخذ الكوفة ، ووجه أبو السرايا إلى مكة والمدينة من يأخذهما ويقيم الحج للناس (الطبرى / ٨ / ٥٣١) .

وأبو السرايا هذا - وكان من رجال بنى العباس - اشتهر بالجبن الشديد ، وقد قتله الحسن بن سهل . قال الطبرى : « وذكروا أنهم لم يروا أحداً عند القتل أشد جزعاً من أبي السرايا . كان يضطرب بيديه ورجليه ، ويصبح أشد ما يكون الصياغ ، حتى جعل في رأسه حبل ، وهو في ذلك يضطرب ويلتوى ويصبح حتى ضرب عنقه » الطبرى (٨ / ٥٣٥) وهذا الجبن والصياغ غريب من رجل قتل العشرات بل المئات ، ولكن هذا كان طراز رجال بنى العباس بعد موت هارون الرشيد .

والظاهرة الكبرى التي ظهرت في أيام المأمون وأخافته هي ميل الناس عامة للعلويين وانصرافهم عن العباسيين ، وإحساس هؤلاء بأنهم لا يستطيعون مواجهة العلوية وقواتهم ، وبلغ الأمر أن والي العباسيين على اليمن من قبل المأمون ، وهو إسحاق بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد ابن على بن عبد الله بن عباس عندما سمع بمسير إبراهيم بن موسى العلوى إلى اليمن واقترابه من صنعاء خرج منصراً من اليمن في الطريق النجدية بجميع من في عسكره من الخيول والرجل ، وخلى لإبراهيم بن جعفر (العلوى) اليمن . وكره

قتاله . وبلغه ما كان من فعل عمه داود بن عيسى بمكة والمدينة ، ففعل مثل فعله ، وأقبل يريد مكة حتى نزل الشاش ، فعسكر هناك ، وأراد دخول مكة فمنعه من كان بها من العلوبيين (الطبرى / ٨ ٥٣٦) ومن الواضح أن مثل هذه الأخبار كانت تخيف المأمون وتشعره بأن بني العباس قد فقدوا تأييد الأمة الإسلامية ، وأنهم لن يستطيعوا الثبات للعلوبيين . وهذا هو الذى جعل المأمون يفكر فى تولية العهد لعلوى ، وفي هذه الظروف نجد أن الفضل بن سهل يشعر بأن مركزه قد ضعف جداً ، وأن هرثمة بن أعين يجتهد فى أن يحل محله من المأمون ، وكان هرثمة رجلاً عاقلاً وخيرياً بشئون الدولة ، ولم يكن يرى ضرورة لقتل الأمين عندما تنازل للمأمون وأظهر له الطاعة واجتهد فى إنقاذه من الموت ، ومال المأمون إلى ذلك ، ولكن الفضل بن سهل غدر بالأمين وسلط عليه من اختطفه وقتله فى صورة أليمة جداً ، وقد حزن المأمون لذلك ، ولكن لم يكن يستطيع شيئاً ، ووقيعت العداوة بين الفضل بن سهل وهرثمة ، واجتهد الفضل فى الإيقاع بهرثمة ونجح فى ذلك ؛ لأن هرثمة استهان بالمأمون وظن أنه يفرض نفسه عليه ، وعندما وصل مرو فى ذى القعدة سنة ٢٠٠ هـ / ٨١٦ م جعل يرعد ويرق ليخيف المأمون ، ولكن الفضل بن سهل كان قد غير قلب المأمون عليه . فلما دخل عليه جعل المأمون يذكر له سيئاته وأخطاءه التى أبلغه الفضل إياها . قال الطبرى : « فذهب هرثمة ليتكلم

ويعتذر ويدفع عن نفسه ما قرف به ، فلم يقبل ذلك منه وأمر (المأمون) به فوجئ على أنفه وديس بطنه ، وسحب من بين يديه . وقد تقدم الفضل بن سهل إلى الأعوان بالغلظة عليه والتشديد حتى حبس ، فمكث في الحبس أيامًا ، ثم دسوا عليه فقتلوه ، وقالوا : إنه قد مات » (الطبرى / ٨ / ٥٤٣) وقد كان هرثمة رأس العرب في بلاط المأمون ، وقد قدم له ولابيه الرشيد خدمات جليلة ، ولكن الدولة العباسية كانت قد فسدت فعلاً ، وانحدرت إلى مستوى لم يكن من الممكن رفعها منه بعد ذلك أبداً ، وكان العباسيون قد كثروا جداً حتى قال الطبرى : إن عددهم بلغ في سنة ٢٠٠ هـ ثلاثة وثلاثين ألفاً ما بين ذكر وأنثى، أما العلويون فكانت أعدادهم أكثر ، فكانوا ألوفاً في كل بلد من بلاد الإسلام رغم من قتل منهم ، وصدق على بن أبي طالب عندما قال : إن السيف أتمى للعدد ، فكلما قتل من العلويين زاد عددهم ، وكان الناس قد جربوا على المأمون حتى قال له أحد العلويين - وهو يحيى بن عامر بن إسماعيل - يا أمير الكافرين ، فقتل بين يديه ، وقد أحس العباسيون أن المأمون يميل إلى العلويين ، وأن في نيته أن يبایع بالعهد رجالاً علوياً ، فدبروا القيام عليه ، واختاروا المنصور بن المهدى وأرادوه على الخلافة ، فأبى وقال : أنا خليفة أمير المؤمنين حتى يقدم أو يولى من أحب ، وانتهى الأمر بمبایعة إبراهيم بن المهدى بالخلافة في بغداد تحدياً للمأمون ، وخوفاً مما كان

الناس يسمعونه من أن المؤمنين ينوي أن يجعل ولاية العهد
لعلوي ، ونقل الخلافة من بيت بنى العباس إلى بيت على بن
أبى طالب..

وكان الحسن بن سهل متعصباً للفرس ، كما كان الحال مع
ابن عمه الفضل ، ولكنه كان أقل شرّاً . وكان الموقف يحتاج إلى
رجل في ذكائه ؛ فإن بغداد خرجت عن طاعة المؤمنين ، وبلغ جند
العلوى عيسى بن محمد بن أبى خالد بين مائة ألف وخمسة
وعشرين ألفاً ، ولكنهم لم يكونوا جنداً نظامياً بل متخصصين
للعلويين ، وسيطر على بغداد رجال الحرب والشطار « وأظهروا
الفسق وقطع الطريق وأخذ الغلمان والنساء علانية من الطرق ،
فكانوا يجتمعون فيأتون الرجل فيأخذون ابنه فيذهبون به ،
فلا يقدر أن يتمتنع عليهم ، وكانوا يجتمعون فيأتون القرى
فيكثرون أهلها ويأخذون ما قدروا عليه من مtauع ومال وغير
ذلك .. » (الطبرى / ٨ / ٥٥١) .

وفي هذه السنة (وهي ٢٠١ هـ) جعل المؤمنون على بن
موسى بن جعفر بن محمد بن على بن أبى طالب - رضى الله
عنـه - ولـى عـهد المسلمين والـ الخليفة من بـعده ، وسمـاه الرـضا على
ابن محمد عليه السلام ، وأمر جـنـده بـطـرح السـوـاد ، ولـبس ثـيـاب
الـخـضـرة ، وكتـبـ بذلك إـلـى الآـفاقـ .

و واضحـ أنـ هـذـهـ كـانـتـ حـيـلـةـ اـبـتـكـرـهـاـ الحـسـنـ بنـ سـهـلـ ،ـ فـقـدـ

رأى أن آل على قد كثروا ، وأنه لابد أن يسترضيهم حتى يكون الناس معه ، ثم ينتهي بعد ذلك من على الرضا هذا .

ثم لم يلبث المأمون أن عرف سوء تصرف الفضل بن سهل معه ، وكان الذي كشف له حقيقة هذا الرجل على بن جعفر بن محمد العلوى . (وهو على الرضا) وأخبر المأمون بما فيه الناس من الفتنة والقتال منذ قتل أخيه ، وبما كان الفضل بن سهل يستر عنه من الأخبار ، وأن أهل بيته والناس قد نقموا عليه أشياء ، وأنهم يقولون : إنه مسحور مجنون ، وأنهم لما رأوا ذلك بايعوا لعمه إبراهيم بن المهدى بالخلافة ، فقال المأمون : إنهم لم يبايعوا له بالخلافة ، وإنما صَرِّحُوه أميراً يقوم بأمرهم ، على ما أخبره به الفضل ، فأعلمته أن الفضل قد كذبه وغشه ، وأن الحرب قائمة بين إبراهيم والحسن بن سهل ، وأن الناس ينقمون عليك مكانه ومكان أخيه ومكان بيتك إلى من بعدك ، فقال : ومن يعلم هذا من الأهل ؟ فقال له : يحيى بن معاذ عبد العزيز بن عمران وعدة من وجوه العسكر . فقال له : أدخلهم حتى أسألهم عما ذكرت ، فأخذتهم ... وتأكد المأمون من ذلك كله ، وأكدوا له أن أهل بيته غاضبون عليه ، وأبلغوه بما أبلغه عليه الفضل من أمر هرثمة ، وأن هرثمة إنما جاءه لينصحه وليبين له ما يفعل عليه ، وأنه إن لم يتدارك أمره خرجت الخلافة منه ومن أهل بيته ، وأن الفضل دس إلى هرثمة من قتله ، وأنه أراد نصحه ، وأن طاهر بن الحسين قد أبلى في

طاعته ، ودعوا المأمون إلى الخروج إلى بغداد ، وقالوا : إن الجنل لو رأوا عزتك سكنوا إلى ذلك وبخعوا بالطاعة .

وقد ضرب المأمون الكثيرين بالسياط لهذا السبب ، وقام الناس على الفضل بن سهل فقتلوه في ٢ من شعبان سنة ٤٢٠ هـ / ٨١٧ م . وكان الذين قتلوا أربعة من خدم المأمون وقد أمر المأمون بقتلهم ، وأرسلت رءوسهم إلى الحسن بن سهل ، وولى المأمون الحسن مكان الفضل بن سهل (الطبرى ٥٦٥ / ٨) .

ومات على بن موسى الرضا ، وكنا نتوقع ذلك ، وقالوا : إنه أكل عنباً كثيراً فمات فجأة ، وذلك في صفر سنة ٤٢٠٣ هـ / ٨١٧ م ، ورحل المأمون من طوس إلى بغداد ، وفي هذه السنة غلت السوداء على الحسن بن سهل ، فذكر سبب ذلك أنه كان مرض مرضًا شديداً فراج به من مرضه تغير عقله حتى شد بالحديد وحبس في بيت ، وكتب بذلك قواد الحسن إلى المأمون ، فأتاهم جواب الكتاب أن يكون على عسكره دينار بن عبد الله ، ويعلمهم أنه قائم على إثر كتابه (الطبرى ٨ / ٥٦٩) .

وفي السنة نفسها خلع أهل بغداد إبراهيم المهدى وعادوا إلى بيعة المأمون ، وحل طاهر بن الحسين محل الفضل بن سهل وابن عميه الحسن ، وخلع المأمون الملابس الخضراء ، ولبس الملابس العباسية السوداء . ثم أصبح طاهر بن الحسين والياً

لبغداد والعراق كله وكل بلاد الشرق حتى القبت ، وذلك في ذي الحجة سنة ٢٠٥ هـ / مايو ٨٢١ م . وكتب طاهر وصية طويلة بليغة لابنه عبد الله (بن طاهر بن الحسين) ولم يكن أقل من أبيه كفاءة ، ولكنه كان فارسيّاً يتكلّم الفارسية في مجاله ، وكان آخر كلام قاله قبل موته فارسيّاً .

وفي سنة ٢١٠ هـ / ٨٢٥ م تزوج المأمون بوران بنت الحسن ابن سهل ، وأنفق في زواجه منها مالاً طائلاً .

وفي ذلك كله ظل الفقهاء بعيدين عن دولة المأمون ، وكانت قلوب الناس معلقة ، وقد حاول أن يسترضيهم فلم يفلح ، فقرر الانتقام منهم ، ومن هنا جاءت مهنة خلق القرآن .



الفصل السادس عشر

لم يتصر المأمون على الأمين
وإنما انتصر الفرس على الاثنين

في ذلك الصراع العنيف في سبيل السلطان في دولة الإسلام كان المأمون هو الذي انتصر على أخيه الأمين وأصبح أمير المؤمنين .

ولكنه بعد النصر تبين أنه هو ليس المنتصر الحقيقي؛ لأن الذي انتصر بالفعل هو الفضل بن سهل، وأنه إذا كان قد أصبح أمير المؤمنين، فهناك من يمكن أن يسمى أمير أمير المؤمنين، وهو الفضل بن سهل، وقد كان فارسيّاً متعصباً ورجلًا شريراً خبيثاً لا يخفى شره أو خبيثه - كما رأينا - وكان فيما بينه وبين نفسه يرى أن الفرس أفضل وأحق بالخلافة من العرب .

وبعد سنوات قلائل في الخلافة أحس المأمون أن هزيمة أخيه الأمين بدأت من أيام أبيهما هارون الرشيد، فإن الرشيد أخطأ خطأ فاحشاً في حق الدولة العباسية عندما قضى على البرامكة؛ لأن البرامكة كانوا فرساً في الأصل، ولكنهم

استعربوا فعلاً ، وأصبحوا يتصرفون تصرف عرب ، ومهما بلغ من أمر يحيى البرمكي فما كان ليخطر بباله أن يضع نفسه فوق الرشيد . أما الفضل بن سهل فكان يرى أنه أفضل من المأمون ، وقد أحس المأمون بذلك ، وسعى في التخلص من الفضل بن سهل ، واستبدل به ابن عمّه الحسن بن سهل ، وكان الحسن بن سهل أعلم وأذكى وأكثر إنسانية من ابن عمّه الفضل ، وهو والد بوران التي تزوجها المأمون . والحسن بن سهل تمكّن من تعين ظاهر بن الحسين بن مصعب البوشنجي واليا على المشرق كله من العراق إلى أقصى المشرق . وفي سنة ٥٢١ هـ / ٨٢٥ م تزوج المأمون ببوران ابنة الحسن بن سهل ، ونحلها (أي أعطاها) مهراً ألف درة كانت في صينية من ذهب ، وقد قدر ذلك بعشرات الملايين الدنانير في عصر كان الإنسان يعيش فيه أحسن حياة بدرهم واحد في اليوم . وما زلنا نحن نتحدث بزواج المأمون من بوران إلى اليوم ، فتصور ماذا كان الناس يقولون عنه في أيامه !!.

وبعد ذلك بقليل ، سنة ٥٢٢ هـ / ٨٣٢ م رحل المأمون إلى مصر ، وكان معه الأفشين ، وكان الدافع الأكبر للمأمون إلى هذا النشاط هو رغبته في أن يشعر به الجمهور ويحس الناس أن الدولة العباسية تقوم بالواجب نحوهم . وأراد المأمون أن يؤكّد ذلك ، فأمر الناس بالوقوف والتكبير بعد كل صلاة ثلاث مرات دليلاً على صدق الإيمان وقوته ، ففعلوا ذلك . وفي سنة ٥٢٧ هـ / ٨٣٢ م . قتل المنصور عبدوس الفهرى رئيس الثائرين فى مصر ،

وقد اشتد المأمون على الكثيرين من ضيعوا الأمانات والولايات، وضرب أعناق الكثيرين منهم . وكان للمأمون كذلك نشاط للغزو في بلاد الروم ، ولكنه لم يتعد هرقلة ، ثم وقع هدنة مع توفيل ابن ميخائيل إمبراطور الروم .

وفي نفس هذه السنة زاد المأمون أعداد الجنود الذين يجمعون من الشام ، فجعلهم أربعة آلاف ، وجعل الرزق الثابت لكل منهم مائة درهم للفارس غير الغنائم والفاء ، أما الرجل فكان رزقه أربعين درهماً . وكذلك زيدت أعداد الجنود من مصر والجزيرة .

وواضح أن المأمون كان يستعد بذلك كله لأمر خطير ، فقد كان يحس أن الناس منصرفون عنه وعن الدولة العباسية جملة . والفقهاء خاصة كانت صلتهم به متقطعة تقريباً : لأنهم كانوا يرون أنه يخالف الدين ، والحق أنه لم يكن على العقيدة الصحيحة أو أن تصرفه - على الأقل - كان يدل على ذلك ، وهذا هو الذي جعله يفكر في مهاجمة الفقهاء واتهامهم بأن إيمانهم بالإسلام ليس سليماً ، وفي سنة ٨٣٣ هـ / ١٢١٨ م . كلف المأمون القاضي إسحاق بن إبراهيم بالمشروع في امتحان إيمان الفقهاء .

والحقيقة أن الامتحان في ذاته كان سطحيّاً وبغير معنى ؛ لأنه كتب إلى القضاة عن طريق قاضيه إسحاق بن إبراهيم

يطلب إليهم أن يسلمو بأن القرآن مخلوق وليس قدِّيماً . وعندما نفكِّر في الموضوع نجد أن السؤال في ذاته لا معنى له ؛ لأننا حتى لو قلنا إن القرآن قدِّيم - أى خلق قبل الأرض والكواكب - فهو مخلوق ، وإلا فمن أين أتى ؟ وإليك فقرات من أول كتاب كتبه إليهم ؛ لترى أنه كان في الحقيقة مفتعلًا ولا معنى له :

جاء في الطبرى (جـ ٨ ص ٦٣١ وما بعدها) : أما بعد ، فإن حق الله على أئمَّة المسلمين وخلفائهم الاجتهاد في إقامة دين الله الذي استحفظهم ومواريث النبوة التي أورثهم ، وأثر العلم الذي استودعهم ، والعمل بالحق في رعيتهم ، والتشرم لطاعة الله فيهم . والله يسأل أمير المؤمنين أن يوفقه لعزيمة الرشد وصريمته ، والإقسام فيما ولاه الله من رعيته برحمته ومنته ، وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهرة الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية وسفالة العامة من لا نظر له ولا روية ولا استدلال له بدللة الله وهدايته والاستقصاء بنور العلم وبرهانه في جميع الأقطار والأفاق - أهل جهالة باش ، وعمى عنه ، ودلالة على حقيقة دينه وتوحيده والإيمان به ، ونكوب عن واضحات أعلامه وواجب سبيله ، وقصور أن يقدروا الله حق قدره ..

وهكذا يستمر الخطاب على هذا الأسلوب غير الواضح أو المحدد ؛ لأنَّه في الحقيقة لم يكن لديه شيء يقوله للفقهاء ؛ إذ لا قضية هناك ، فسواء قلنا : إن القرآن قدِّيم أو أنزل في أيام

رسول الله ﷺ ، فالأمر سیان ، وهو مخلوق وخالقه هو الله سبحانه وتعالى ، فأین هو الخلاف ؟

حتى الآيات التي يستشهد بها المؤمن في خطابه لا تقول ما أراد أن يقوله من أن القرآن مخلوق أيام رسول الله وأنه نزل على لسانه منجماً حسب الظروف والحالات مثل ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ (سورة الزخرف ٣) والمأمون يريد أن يقول هنا : إن القرآن لابد أن يكون قد خلق وأنزل على رسول الله بعد أن خلقت العربية ، فهو ليس قدیماً قدم السماء والشمس والكواكب . ثم يقول الخطاب بعد ذلك « فكل ما جعله الله فقد خلقه ، وقال ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظِّلَامَاتِ وَالنُّورَ﴾ (سورة الأنعام ١) وقال عز وجل ﴿كَذَلِكَ نَصُصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ (سورة طه ٩٩) فأخبر أنه قصص لأمور أحدثه بعدها وتلا به متقدمها ، وقال : ﴿الرِّكْتَابُ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (سورة هود ١) وكل مُحْكَم مفصّل فله مُحْكَم مفصّل ، والله مُحْكَم كتابه ومفصّله ، فهو خالقه ومبتدعه . ثم يخطو خطاب المؤمن خطوة أخرى فيهاجم من تصور أنهم يخالفون رأيه ، ثم هم الذين جادلوا بالباطل فدعوا إلى قولهم ونسبوا أنفسهم إلى السنة ، وفي كل فصل من كتاب

الله قصص من تلاوته مبطل قولهم ، ومكذب دعواهم ، يرد عليهم
 قولهم ونحلتهم ، ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين
 والجماعة ، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة ،
 فاستطالوا بذلك على الناس . وكلنا نعرف أن الفقهاء لم يقولوا
 شيئاً من ذلك ، إنما هو المأمون الذي أحس أن هذا رأيهم فيه ،
 فقد كانوا - فيما نحسب ، وبعد كل ما ارتكب هو وزراؤه في
 حق الناس - يرون أن الناس يحسنون أن خلفاء بنى العباس
 ليسوا على الطريق السوى ؛ ولهذا فقد حرصوا على لا يتصلوا
 به وتحاشوه ، فبادر هو إلى الاشتباك معهم في غير قضية ،
 وأظن أن أي إنسان يقرأ خطاب المأمون هذا لا يجد فيه قضية
 أصلاً لا دينية ولا غير دينية ، وإنما هو التحدى ، تحدي الفقهاء ،
 ويفيد ذلك قول ذلك الخطاب في ص ٦٣٣ : فتركوا الحق إلى
 باطلهم ، واتخذوا دون الله ول捷ة إلى ضلالتهم ، فقبلت
 بتزكيتهم لهم شهادتهم ، ونقضت أحكام الكتاب بهم على دغل
 دينهم ، ونغل أديمهم ، وفساد نياتهم ويقينهم ، وكان ذلك
 غايتها التي إليها أجروا ، وإياها طلبوا في متابعتهم والكذب
 على مولاهם . وقد أخذ عليهم ميثاق الكتاب لا يقولوا على الله إلا
 الحق ودرسو ما فيه ، أولئك الذين أصمهم الله وأعمى
 أبصارهم ﴿أَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَفْفَالُهَا﴾ (٢٤)

(سورة محمد ٢٤)

فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة ورعوس الضلاله ، المنقوصون من التوحيد حظا ، المحسوسون من الإيمان نصيبا ، وأوعية الجهالة ، وأعلام الكذب ، ولسان إبليس الناطق في أوليائه ، والهائل على أعدائه من أهل دين الله ، وأحق من ينتمي في صدقه ، وتطرح شهادته ، ولا يوثق قوله ولا عمله ، فإنه لا عمل إلا بعد يقين ، ولا يقين إلا بعد استكمال حقيقة الإسلام وإخلاص التوحيد ، ومن عمى عن رشده وحظه من الإيمان بالله وبتوحيد الله ، كان عما سوى ذلك من عمله والقصد في شهادته أعمى وأضل سبيلا ، ولعمر أمير المؤمنين إن أحجى الناس بالكذب في قوله وتخرص الباطل في شهادته من كذب على الله ووحيه ، ولم يعرف الله حقيقة معرفته ، وإن أولاهم برد شهادته في حكم الله ودينه من رد شهادة الله على كتابه وبهت حق الله بباطلاته .

وهذا كله كلام عام مطلق لا يتحصل منه شيء إلا السباب لناس لا ندرى من الذين يريدهم الكتاب ، فإن كاتبه لا يريد إلا التهجم على ناس لا يعرفهم سواه ، بل إننا لا نفهم هنا شيئاً يتصل بقدم القرآن أو خلقه . والكتاب مكتوب في شهر ربى الأول سنة ٢١٨ هـ / مارس ٨٣٣ م .

وكانما أراد الخليفة المأمون أن يحدد من يريد بهذا الأذى فكتب إلى إبراهيم بن إسحاق في إشخاص سبعة فقهاء إليه ، قدر أن هؤلاء هم كبار الفقهاء الذين يريد أن يعاقبهم ، وهؤلاء

هم محمد بن سعد كاتب الواقدي ، وأبو مسلم مستملی يزید بن هارون ، ويحیی بن معین ، وزهیر بن حرب أبو خیثمة ، وإسماعیل بن داود ، وإسماعیل بن أبي مسعود ، وأحمد بن الدورقی . فأشخصوا إلیه ، فامتحنهم وسائلهم عن خلق القرآن فأجابوا جمیعاً بأن القرآن مخلوق ، فأشخصهم إلى مدينة السلام ، وأحضرهم إسحاق بن إبراهیم إلى داره ، فشهر أمرهم وقولهم بحضورة الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث ، فأقرروا بمثل ما أجابوا به المأمون ، فخلی سبیلهم ، وكان من من فعل ذلك إسحاق بن إبراهیم بأمر المأمون .

ونسأل الآن : لماذا سلم هؤلاء الفقهاء ، وهم أكبر فقهاء بغداد
إذ ذاك دون مناقشة ؟

سلمو بذلك لأنهم لم يروا هنا قضية ، فإنهم لم ينتبهوا إلى أن المأمون أراد أن يجعل فرقاً بين القرآن القديم والقرآن المخلوق ، فإن القرآن قديم ومخلوق في آن معاً ، ولنیست هناك قضية .

أجل لنیست هناك قضية فقهية ، بل هنا قضية مكانة وسلطان ؛ لأن المأمون أحس أنه لم يعد له سلطان خلیفة ؛ لأن السلطان كلہ بيد الفقهاء ، فهم رؤساء الناس وأهل الدين والإيمان ، وهم رؤساء ذلك المجتمع ، أما هو - أى المأمون - فليس بشيء ، إنما هو رئيس رجال المال ، ورجال المال كلهم لصوص وناس بلا ذمة ولا ضمير .

وإذن فإن المأمون لم يكسب شيئاً من وراء الخطوة الأولى؛ فقد تبين بعد قليل أن أحداً لم يفهم ما أراد ، واستمروا يطعون الفقهاء ولا يلقون بالا إلى الخليفة ورجاله .

فعاد يكتب إلى الفقهاء مرة أخرى بأسلوب ظن أنه أوضح وأكثر تحدياً ، فجعل الخليفة هو المسئول عن الدين والإيمان ، ومن ثم فهو رئيس الفقهاء وسيدهم . قال : (الطبرى / ٨ / ٦٣٤) : أما بعد فإن من حق الله على خلفائه فى أرضه وأمنائه على عباده الذين ارتضاهم لإقامة دينه ، وحملهم رعاية خلقه وإمساء حكمه وسننه ، والائتمام بعده فى بريته أن يجهدوا الله أنفسهم ، وأن ينصحوا له فيما استحفظهم وقلدهم ، ويدلوا عليه - تبارك اسمه وتعالى - بفضل العلم الذى أودعهم ، والمعرفة التى جعلها فىهم ، ويهدوا إليه من زاغ عنه ، ويردوا من أدىبر عن أمره ، وينهجوا لرعاياهم سمت نجاتهم ، ويقفوهم على حدود إيمانهم وسبيل فوزهم وعصمتهم ، ويكشفوا لهم معطيات أمورهم ومشتبهاتها عليهم بما يدفعون الريب عنهم ، ويعود بالضياء والبينة على كافتهم ، وأن يؤثروا ذلك من إرشادهم وتبصيرهم إذا كان جاماً لفنون مصانعهم ومنتظماً لحظوظ عاجلتهم وآجلتهم ، ويذكروا ما الله مرصد من مسائلتهم عما حملوه ، ومجازاتهم بما أسلفوه وقدموا عنده ، وما توفيق أمير المؤمنين إلا باش وحده ، وحسبه الله وكفى به ، ومما بينه أمير

المؤمنين برويته وطالعه بفكره ، فتبين عظيم خطره ، وجليل ما يرجع في الدين من وكته (= إيدائه) وضرره ما ينال المسلمين بينهم من القول في القرآن الذي جعله الله إماماً لهم وأثراً من رسول الله - عليه السلام - وصفيه محمد ﷺ بأقيالهم ، واشتباوه على كثير منهم حتى حسن عندهم ، وتزيين في عقولهم ألا يكون مخلوقاً ، فتعرضوا بذلك لدفع خلق الله الذي بان به عن خلقه ، وتفرد بجلالته من ابتداع الأشياء كلها بحكمته وإنشائها بقدرته .. إلى آخره .

وهذا في هذا الخطاب الثاني يتضح أمران :

الأمر الأول هو أن الخليفة يقول : إنه هو المسئول عن الدنيا وما فيها ، وأنه رئيس الخلق أجمعين ، وعليهم أن يطيعوه .
والأمر الثاني هو أن القرآن مخلوق غير قديم .

ولكن الفقهاء لم يفهموا ما أراد المأمون .

فيإن الرياسة التي طلبها رياضة دنيوية ، أى أنه رئيس الناس في هذه الدنيا ، والفقهاء لم يكونوا يرون بأساً في ذلك ، لأن الدنيا كلها دار مرور ولا قرار لها ، فإذا أراد الخليفة أن يكون رئيساً لها فليكن .

والأمر الثاني لم يفهم الفقهاء المراد منه ، فإن القرآن سواء أكان قدیماً أم غير قدیم ، فهو مخلوق ، ولا قضية هناك إذن ، بل

إن الآيات التي استدل بها المؤمنون في هذا الخطاب الثاني لا تدل على شيء محدد ، بل إن المؤمنون لم يكن موفقاً في اختيار الآيات، فقد وجد أن القرآن الكريم لا يتضمن آية واحدة تقول مثلاً : إننا خلقنا القرآن ، بل هو يقول : إننا جعلنا القرآن ، فمضى يلتمس الآيات التي ذكرت لفظ (جعل) بمعنى خلق مثل قوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ (سورة الزخرف ٣) كما قال جل جلاله : ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ (سورة الأعراف ١٨٩) وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيلَ لِيَاسًا ﴿١﴾ وَجَعَلْنَا النَّهارَ مَعَاشًا ﴿٢﴾ (سورة النبأ ١٠-١١) ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا ﴾ (سورة الأنبياء ٣٠) .

فسوى - عز وجل - بين القرآن وبين هذه الخلائق التي ذكرها في شبه الصنعة ، وأخبر أنه جاعله وحده ، فقال : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾ (سورة البروج ٢١-٢٢) فدل ذلك على إحاطة اللوح بالقرآن ، ولا يحيط إلا بمخلوق ، وقال لنبيه ﷺ : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿٢٣﴾ (سورة القيامة ١٦) .

ويسترسل خطاب المؤمنون في ذكر الآيات دون أن يوفق إلى

بيان واضح لما يقول ، فإن غرضه الخفي هو أن يتحدى الفقهاء ، ويظهر للناس أن إيمانهم غير سليم ، وهذا مطلب محال ؛ لأن الفقهاء كانوا على إيمان وثيق لا شك فيه ، ولم يكن ليخطر ببالهم أن المأمون يريد أن يوقع بينهم وبين الجم眾 الذى يثق فيهم ، فمضوا على تجاهلهم لما يريد أو على جهلهم به بتعبير أصح .

وقد ظل مطلبه غامضاً حتى اضطر إلى أن يقول : وقد عظم هؤلاء الجهلة بقولهم فى القرآن الشتم فى دينهم والحرج فى أمانتهم ، وسهلوا السبيل لعدو الإسلام ، واعترفوا بالتبديل والإلحاد على قلوبهم حتى عرفوا ووصفوا خلق الله بالصفة التى هي لله وحده وشبهوه به ، والاشتباه أولى بخلقه ، وليس يرى أمير المؤمنين من قال بهذه المقالة حظاً فى الدين ، ولا نصيباً من الإيمان واليقين ، ولا يرى أن يحل أحد منهم محل الثقة فى أمانة ولا عدالة ولا شهادة ولا صدق فى قول ولا حكاية ، ولا توليه لشيء من أمر الرعينة ، وإن ظهر قصد بعضهم وعرف بالسداد مسدداً فىهم ، فإن الفروع مردودة إلى أصولها ومحمولة فى الحمد والذم عليها ، ومن كان جاهلاً بأمر دينه الذى أمره الله به من وحدانية فهو بما سواه أعظم جهلاً ، وعن الرشد فى غيره أعمى وأضل سبيلاً .

ثم قال المأمون بعد ذلك لقاضيه إسحاق بن إبراهيم : فاقرأ

على جعفر بن عيسى وعبد الرحمن بن إسحاق كتاب أمير المؤمنين بما كتب به إليك ، وسائلهما عن علمهما بالقرآن ، وأعلمهما أن أمير المؤمنين لا يستعين على شيء من أمور المسلمين إلا بمن وثق بإخلاصه وتوحيده ، وأنه لا توحيد لهن لم يقر بأن القرآن مخلوق ، فإن قالوا بقول أمير المؤمنين في ذلك فتقدمنا إليهما في امتحان من يحضر مجالسهما بالشهادات على الحقوق وسائلهم عن قولهم في القرآن ، فمن لم يقل منهم : إنه مخلوق – أبطلا شهادته ..

ومع أن المؤمنون لم يوفق في إحكام قضيته فإن نفراً من كبار الفقهاء أدرك غرضه ، وعرف أن المراد تشكيك الناس في إيمان الفقهاء ، هنا أدركوا أن هذا الخليفة غافل تماماً عن حقائق الأمور ، فقرروا أن يخوضوا معه المعركة .



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل السابع عشر

الفقهاء ينتصرون على الخليفة

هذه الجماعة من الفقهاء أدركت أن الذي يبحث عنه المؤمنون هو نصر حاسم وواضح على الفقهاء ليكون ذلك إعلاناً صريحاً بأن رياضة أمم الإسلام هي في الحقيقة لبني العباس . فقرروا التمسك بالحقيقة وإعلان أن رياضة أمم الإسلام للفقهاء (أى للدين) وعلى رأس هؤلاء أحمد بن حنبل . وأحضر إسحاق بن إبراهيم كبير فقهاء الخليفة لذلك جماعة من الفقهاء والحكام والمحدثين فيهم أحمد بن حنبل ، فأدخلوا جميعاً على إسحاق ، فقرأ عليهم كتاب المؤمنون هذا مرتين حتى فهموه ، ثم قال لبشر ابن الوليد : ما تقول في القرآن ؟ قال : قد عرفت مقالتي لأمير المؤمنين غير مرة ، قال : فقد تجدد من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى . قال : أقول : القرآن كلام الله . قال : لم أسألك عن هذا . أخلقوق هو ؟ قال : الله خالق كل شيء . قال : القرآن شيء ؟ قال : هو شيء ، قال : مخلوق؟ قال : إنه ليس بخالق . قال : لست أسألك عن هذا ، أخلقوق هو ؟ قال : لا أحسن إلا ما قلت

لك . وقد استعهدت أمير المؤمنين ألا أتكلم فيه ، وليس عندي غير ما قلت لك .

فأخذ إسحاق من إبراهيم رقعة كانت بين يديه ، فقرأها عليه ووقفه عليها . فقال : أشهد أن لا إله إلا الله أحداً فرداً . لم يكن قبله شيء ولا بعده شيء ولا يشبهه شيء من خلقه في معنى من المعانى ولا وجه من الوجوه ، فقال : نعم ، وقد كنت أضرب الناس على دون هذا ، فقال للكاتب : اكتب ما قال .

ثم قال لعلى بن أبي مقاتل : ما تقول يا على ؟ قال : قد سمعت كلامي لأمير المؤمنين في هذا غير مرة ، فامتحنته بالرقعة فأقر بما فيها ، ثم قال : القرآن مخلوق ؟ قال القرآن كلام الله ، قال لم أسألك عن هذا . قال : هو كلام الله ، وإن أمرنا أمير المؤمنين بشيء سمعنا مقالته ، فقال للكاتب : اكتب مقالته .

ثم قال للزيال نحواً من مقالته لعلى بن أبي مقاتل ، فقال له مثل ذلك ، ثم قال لأبي حسان الزبيدي : ما عندك ؟ قال : سل عما شئت ، فقرأ عليه الرقعة ووقفه فأقر بما فيها ، ثم قال : من لم يقل هذا القول فهو كافر . فقال : القرآن مخلوق هو ؟ قال : القرآن كلام الله ، والله خالق كل شيء ، وما دون الله مخلوق ، وأمير المؤمنين إمامنا ، وبسببه سمعنا عامة العلم . وقد سمع ما لم نسمع ، وعلم ما لم نعلم ، وقد قلد الله أمرنا ، فصار يقيم

صلاتنا وحاجتنا ونؤدي إليه زكاة أموالنا ، ونجاهد معه ونرى إمامته إماماً ، إن أمرنا ائتمرنا وإن نهاانا انتهينا ، وإن دعانا أجبنا . قال : القرآن مخلوق هو ؟ فأعاد عليه أبو حسان مقالته ، قال : إن هذه إجابة أمير المؤمنين ، قال : قد تكون إجابة أمير المؤمنين ، ولا يأمر بها الناس ولا يدعوهم إليها . وإن أخبرتني أن أمير المؤمنين أمرك أن أقول قلت ما أمرني به ؛ فإنك الثقة المأمون فيما أبلغتني من شيء ، فإن أبلغتني عنه بشيء صرت إليه ، قال ما أمرني أن أبلغك شيئاً ، قال على بن مقاتل : قد يكون قوله كاختلاف أصحاب رسول الله ﷺ في الفرائض والمواريث ، ولم يحملوا الناس عليها . قال له أبو حسان : ما عندي إلا السمع والطاعة ، فمرني أتمر . قال ما أمرني أن أمرك وإنما أمرني أن أتحنك .

ثم عاد إلى أحمد بن حنبل فقال : ما تقول في القرآن ؟ قال : هو كلام الله ، قال : أمللوق هو ؟ قال : هو كلام الله لا أزيد عليها . فامتحنه بما في الرقعة ، فلما أتى على « ليس كمثله شيء » قال ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، وأمسك عن « لا يشبهه شيء من خلقه في معنى من المعانى ولا وجه من الوجوه » فاعتراض عليه ابن البكاء الأصغر ، فقال : أصلاحك الله ، إنه يقول : سميع من أذن بصير من عين . فقال إسحاق لأحمد بن حنبل : ما معنى سميع بصير ؟ قال : هو كما وصف نفسه ، قال : معناه ؟ قال : لا أدرى ، هو كما وصف نفسه .

ثم دعاهم رجلاً رجلاً ، كلهم يقول : القرآن كلام الله إلا هؤلاء
النفر : قتيبة ، وعبيد الله بن محمد بن الحسن ، وابن عُليّة
الأكبر ، وابن البكاء ، وعبد المنعم بن إدريس ابن بنت وهب بن
منبه ، والمظفر بن مرجا ، ورجلاً ضريراً ليس من أهل الفقه ، ولا
يعرف بشيء منه إلا أنه دس في هذا الموضوع ، ورجلاً من ولد
عمر بن الخطاب قاضي الرقة ، وابن الأحمر . فأما ابن البكاء
الأكبر فقد قال : القرآن مجعل لقول الله تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا
عَرَبِيًّا﴾ (سورة الزخرف ٣) والقرآن محدث لقوله : ﴿مَا يَأْتِيهِم
مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٌ﴾ (سورة الأنبياء : ٢) قال له إسحاق :
فالمجعل مخلوق ؟ قال : نعم ، قال : فالقرآن مخلوق ؟ قال : لا
أقول : مخلوق ، ولكنه مجعل ، فكتب مقالته .

فلما فرغ من امتحان القوم وكتب مقالاتهم اعترض ابن
البكاء الأصغر ، فقال : أصلحك الله ! إن هذين القاضيين إمامان ،
 ولو أمرتهما أن يسمعاننا مقالتهما لنجحى ذلك عنهما ! قال له
إسحاق : إن شهدت عندهما بشهادة فاستمع مقالتهما إن شاء
الله .

فكتب مقالة القوم رجلاً رجلاً ، ووجهت إلى المؤمن ، فمكث
ال القوم تسعة أيام ، ثم دعا بهم وقد ورد كتاب المؤمن جواب
كتاب إسحاق بن إبراهيم في أمرهم .

وطبعاً لم يكن في رد أمير المؤمنين إلا الحملة على أولئك الناس ووصفهم بمتصنعة أهل القبلة وملتمسى الرئاسة فيما ليسوا له بأهل من أهل الملة من القول في القرآن .

ثم يحمل المؤمنون على أولئك الرجال واحداً واحداً ويهينهم ، ويقول : فأما ما قال المغدور بشر بن الوليد في نفي التشبيه وما أمسك عنه من أن القرآن مخلوق وادعى من تركه الكلام في ذلك واستعهاده أمير المؤمنين - فقد كذب بشر في ذلك وكفر ، وقال الزور والمنكر ، ولم يكن قد جرى بينه وبين أمير المؤمنين في ذلك ولا في غيره عهد ولا نظر أكثر من إخباره أمير المؤمنين من اعتقاده كلمة الإخلاص والقول بأن القرآن مخلوق ، فادع به إليك وأعلمك أمير المؤمنين . وانصصه عن قوله في القرآن واستتبه حقه ، فإن أمير المؤمنين يرى أن تستيب من قال بمقالته ، إذ كانت تلك المقالة الكفر الصراح والشرك المحض عند أمير المؤمنين ، فإن تاب عنها فأشهر أمره وأمسك عنه ، وإن أصر على شركه ودفع أن يكون القرآن مخلوقاً بكفره وإلحاده فاضرب عنقه . وابعث إلى أمير المؤمنين برأسه إن شاء الله .

وأما على بن أبي مقاتل فقال له : ألاست القائل لأمير المؤمنين إنك تحلل وتحرم والمكلم له بمثل ما كلمته به ، مما لم يذهب عنه ذكره ؟ ! .

وأما الزيال بن الهيثم فأعلمه أنه كان في الطعام الذي كان يسرقه في الأنبار ، وفيما يستولى عليه من أمر مدينة أمير المؤمنين ابن العباس وما يشغله وإنه لو كان مقتفيآ آثار سلفه ، وسالكاً منهجهم ومحظياً سبليهم لما خرج إلى الشرك بعد إيمان .

وأما أحمد بن يزيد المعروف بأبي العوام قوله : إنه يحسن الجواب في القرآن فأعلمه أنه صبي في عقله لا في سن ، جاهل ، وأنه إن كان يحسن الجواب في القرآن جاهل ، وإن كان لا يحسن الجواب في القرآن فسيحسنه إذا أخذه التأديب ، وإن لم يفعل كان السيف من وراء ذلك إن شاء الله .

أما أحمد بن حنبل وما تكتب عنه فأعلمه أن أمير المؤمنين قد عرف فحوى تلك المقالة وسبيله فيها ، واستدل على جهله وآفته بها .

وأما الفضل بن غانم فأعلمه أنه لم يخف على أمير المؤمنين ما كان منه بمصر ، وما اكتسب من الأموال في أقل من سنة ، وما شجر بيته وبين المطلب بن عبد الله في ذلك ، فإنه من كان شأنه شأنه ، وكان رغبته - في الدينار والدرهم - رغبته ، فليس بمستنكر أن يبيع إيمانه طمعاً فيهما وإيثاراً لعاجل نفعهما ،

وأنه مع ذلك القائل لعلى بن هشام ما قال ، والمختلف له فيما خالفة فيه ، فما الذي حال به عن ذلك ونقله إلى غيره ؟

وأما الزيادى فإنه كان منتحلاً ، ولا كأول دعى كان فى الإسلام خولف فيه حكم رسول الله ﷺ ، وكان جبريل إن يسلك مسلكه ، فأنكر أبو حسان أن يكون مولى لزياد . أو يكون مولى لأحد من الناس ، وذكر أنه نسب إلى زياد .

وأما المعروف بأبى نصر التمار ، فإن أمير المؤمنين شبه خساسة عقله بخساسة متجره .

وأما الفضل بن الفرخان فأعلمه أنه حاول بالقول الذى قاله فى القرآن أخذ الودائع التى أودعه إياها عبد الرحمن بن إسحاق تربصاً بمن استودعه . وطبعاً فى الاستكثار لما صار فى يده ولا سبيل عليه من تقادم عهده وتطاول الأيام به ، فقل لعبد الرحمن ابن إسحاق : لاجزاك الله خيراً عن تقويتك مثل هذا وأتمانك إياه ، وهو معتقد للشركة منسلخ من التوحيد !

واما محمد بن حاتم وابن نوح المعروف بأبى عمر فأعلمهما أنهم مشغولان باكل الربا عن الوقوف على التوحيد . وأن أمير المؤمنين لو لم يستحل محاربتهم فى الله ومجahدتهم إلا لإربائهم ، وما نزل به كتاب الله فى أمثالهما - لاستحل ذلك ، فكيف بهما وقد جمعا مع إياته شركاً وصارا للنصارى مثلاً ؟

وأما أحمد بن شجاع فأعلمه أنك صاحبه بالأمس
والمستخرج منه ما استخرجته من المال الذي كان استحله من
مال على بن هشام ، وأنه ممن الدينار والدرهم دينه .

وهكذا يستمر خطاب المأمون في بيان ما زعمه من نعائص
الفقهاء ، بدلاً من أن يحاول إقناعهم بوجهة نظره ؛ لأنه في
الحقيقة لم تكن له وجهة نظر ، ولو أن أولئك الفقهاء وافقوا
على رأيه لما كشف عيوبهم تلك . بل إنه أحياناً يذكر من عيوب
أولئك الناس أشياء لا يجوز السكوت عليها بحال إذا صدقت ،
فيقول مثلاً : إن سعدويه الواسطي قال له ، قبح الله رجالاً بلغ
به التصنّع للحديث والتزيين به والحرص على طلب الرئاسة
فيه أن يتمنى وقت المحنة فيقول بالتقرب بها متى يمتحن ،
فيجلس للحديث .

وأما المعروف بسجادة وإنكاره أن يكون سمع من كان
يجالس من أهل الحديث وأهل الفقه بأن القرآن مخلوق فأعلمه
أنه في شغله بإعداد النوى وحكه لإصلاح سجادته وباللودائع
التي دفعها إليه على بن يحيى وغيره ما أذهله في التوحيد
وألهاه ، ثم سله عمًا كان يوسف بن أبي يوسف ومحمد بن
الحسن يقولانه إن كان شاهدهما وجالسهما .

وقد كان أمير المؤمنين قد وجه إليك المعروف بأبى سهر بعد

أن نصه أمير المؤمنين على محتته في القرآن فجمجم عنها ولجلج فيها حتى دعا له أمير المؤمنين بالسيف ، فأقر ذمياً ، فأنصصه عن إقرار ، فإن كان مقيماً عليه فأشهر ذلك وأظهره إن شاء الله .

ومن لم يرجع عن شركه من سميت لأمير المؤمنين في كتابك ، وذكره أمير المؤمنين لك أو أمسك عن ذكره في كتابه هذا ولم يقل : إن القرآن مخلوق بعد بشر بن الوليد وإبراهيم بن المهدى - فاحملهم أجمعين موثقين إلى معسرك أمير المؤمنين مع من يقوم بحفظهم إليه لينصهم أمير المؤمنين ، فإن لم يرجعوا ويتبوبوا حملهم جميعاً على السيف إن شاء الله ولا قوة إلا به .

وهذا ليس حديثاً في الدين أو مناقشة في عقيدة ، إنما هو إرهاب للناس . فمن قال ما يريد أمير المؤمنين سكت عنه وتركه ، ومن لم يقل فضحه ثم قتله .

ورجل واحد ثبت على رأيه وكلامه : لأنه لم تكن له عيوب دينية أو أخلاقية يأخذها عليه المأمون ، وهو أحمد بن حنبل ، وهنا نجده وقف عاجزاً لا يستطيع شيئاً . لقد حبسه وضربه دون أن يخرج منه بأدنى نتيجة . وحاول إخوان أحمد بن حنبل أن يصرفوه عن رأيه فرفض وانهزم أمامه المأمون ، وخرج الفقهاء من محنـة خلق القرآن منتصرين .

والحقيقة أن السيف أخاف كل الفقهاء إلا أربعة على رأسهم
 أحمد بن حنبل وسجادة والقواريرى ومحمد بن نوح المعزوب ،
 فأمر بهم إسحاق بن إبراهيم فشدوا فى الحديد ، فلما كان من
 الغد دعا بهم جميعاً يساقون فى الحديد ، فأعاد عليهم المحنة ،
 فأجابه سجادة إلى أن القرآن مخلوق ، فأمر بإطلاق قيده وخلّى
 سبيله ، وأصرّ أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح على قولهما ولم
 يرجعا ، فشدا جميعاً فى الحديد ووجهها إلى طرسوس ، وكتب
 معهما كتاباً بأشخاصهما وكتب كتاباً معزولاً بتأويل القوم فيما
 أجابوا إليه ، فمكثوا أياماً ثم دعا بهم فإذا كتاب قد ورد من
 المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم أن قد فهم أمير المؤمنين ما أجاب
 القوم إليه .

وذكر سليمان بن يعقوب صاحب الخبر أن بشر بن الوليد
 تأول الآية التي أنزلها الله تعالى في عمار بن ياسر ﴿إِلَّا مَنْ أَنْكَرَهُ
 وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌ بِالْإِيمَانِ﴾ (سورة النحل ١٠٦) وقد أخطأ التأويل .
 إنما عنى الله - عز وجل - بهذه الآية من كان معتقد الإيمان مظهر
 الشرك ، فاما من كان معتقد الشرك مظهر الإيمان فليس هذه له
 فأشخصهم جميعاً طرسوس ؛ ليقيموا بها إلى خروج
 أمير المؤمنين من بلاد الروم .

وقد أراد إسحاق بن إبراهيم أن يعاقبهم ، ولكنه لم يستطع ؛ لأن المأمون توفي سنة ٢١٨ هـ - ٨٣٣ م وكانت سنه إذ ذاك ٤٨ سنة هجرية ، وهى سن صغيرة جداً تؤكّد مالاحظته فيما سبق من وفاة العباسين فى سن صغيرة لسبب لا نعرفه فعلاً ، ولكن الظاهره غير طبيعية ، فهولاء ناس يموتون فى سن لا تصدق ولأسباب غير واضحة ، فلماذا مات المأمون فى هذه السن ؟ ولو أن المؤرخين قالوا لنا لاقتنعنا ، ولكننا نقف هنا متعجبين ؛ لأن هذا الرجل مات فى السن التي مات فيها أبوه تقريباً (سبعة وأربعين سنة وشهوراً) .

على أي حال مات دون أن يبلغ على الفقهاء أي نصر ، مات وأحمد بن حنبل في وجهه ، يؤكّد للناس بإصراره وأخلاقه أن زعامة أمّة الإسلام للحق لا للقوة . وبهذا يكون المأمون قد أكمّل العمل الذي بدأه أبوه الرشيد وأخوه الهادى ، وهو هدم الدولة العباسية التي قامت على غير حق ، واستمرت على غير حق ، وانتهت بتلك النهاية الخسيسة .

وقد شعر فقهاء المأمون بخيبة أمل ؛ لأنهم كانوا يرجون أن يتركوا كبار الفقهاء ويعلنوا أنفسهم رؤساءهم فلم يوفقا . وإسحاق بن إبراهيم الذي تولى محاكمة الفقهاء لم يدر ماذا

يعلم ، ويبدو أنه فوجئ بموت المأمون ، وكانت نيته أن يرسل الفقهاء إلى المأمون بطرسوس ، فتوفي المأمون قبل ذلك ، وكان الفقهاء قد بلغوا الرقة فحبسهم واليها ثم خلّى سبيلهم بعد ذلك .

وقد أوصى المأمون قبل موته بأن يخلفه أخوه أبو إسحاق الذي تلقب بالمعتصم ، ومن غريب ما يحكى الطبرى أن المأمون - وكان علياً - كان جالساً على شاطئ نهر فى بلاد الروم يسمى اليدينون ، وكان يستعذب ماء هذا النهر ويجده أحلى ماء فى الدنيا ، وتمنى أن يجيئه رطب يسمى رطب الأزاد ليأكله مع ذلك الماء ، فجاء هذا الرطب وأكل المأمون وأخوه وسعيد العلاف القارئ فمرضوا جميعاً ، والمأمون الذى أكل أكثر من غيره مات من هذا الرطب ، فهل يمكن أن يقال : إن هذا الرطب كان مسموماً؟ ربما .

على أى حال مات المأمون ، وتولى أبو إسحاق المعتصم ، وقد أصر على سياسة أخيه فى مسألة خلق القرآن دون أن يصل إلى نتيجة .

فهل كان العلويون أحق من العباسيين بالخلافة ؟

لا ، لم يكونوا .

لأن الخلافة ملك الأمة ، الأمة هي التي تختار الخلفاء ، وهي التي تعزلهم أيضاً إذا لم يحسنوا الخلافة ، وهذا هو الذي ينبغي أن نقرره دائماً .

وسنرى فيما بعد أخطاء أخرى وقع فيها خلفاء بنى العباس ، فأكدوا بها ضياع خلافتهم .



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثامن عشر

ال الخليفة المتوكلا يكره ابنه المنتصر إلى درجة لا تصدق ! والمنتصر يشترك في قتل أبيه !

مهما نقرأ في كتب التاريخ فإننا لا نجد وصفاً صحيحاً للدولة العباسية بعد المؤمنون؛ فإن الإدارة ساءت إلى درجة لا يمكن أن يقال عنها: إن هناك دولة، حقاً كان هناك خليفة، ولكن هذا الخليفة كان قد فقد خصائص الخلفاء حتى يصعب أن نقول: إن دولة الخلافة كانت مستمرة أو موجودة في أيام الواثق الذي خلف المعتصم الذي جاء بعد المؤمنون، وكان الواثق رجلاً غبياً حقاً، لا يعرف شيئاً عن إدارة الدولة، وإنما هو كان رئيس جماعة من اللصوص هم كبار موظفي الدولة، ونحن نستطيع أن نقول: إنهم كانوا بالفعل لصوصاً؛ لأن الحد الفاصل بين السرقة والأمانة زال فعلاً، فقد كان مال الدولة كثيراً، ولكنه لم يكن كثيراً حقاً على دولة؛ لأنه كان لا يكفي لإقامة مشروع كبير أو مجد عظيم، ولكنه كان كثيراً على الأشخاص الذين كانوا يتولون الدولة. والحقيقة أنه لا تستطيع أن تقول: إنه كان هناك مال دولة.

بل كان الناس - صغار الناس أقصد - يدفعون ما عليهم ، ويأخذه جباه ضرائب يأخذون منه نصيبياً لأنفسهم ، ويعطون الباقى ملء فوقهم ، وهكذا حتى لا يصل إلى الخليفة إلا سدس المال المجموع ، والباقي يتوزع بين الموظفين ، فهم رؤساء وهم لصوص فى الوقت نفسه ، والخط الفاصل بين اللص ورجل الدولة فى كل منها غير واضح . ويتجلى هذا فى أيام المتوكل الذى جاء بعد الواثق . والمتوكل اسمه جعفر ، وهو ابن المعتصم ، وأمه أم ولد يقال له شجاع ، وقد تولى يوم الأربعاء ٢٤ من ذى الحجة سنة ٥٣٢هـ / يوليو ٧١٧م ، وكان رجلاً عاقلاً ، وكان يمكن أن يكون خليفة ممتازاً ، ولكنه كان ينكر سلطان الترك على الدولة ، والحق أن الترك كانوا يتسلطون على كل أهل الدولة ، وفي مقدمتهم الخليفة ، وكان الترك قد اعتادوا سيادة الدولة حتى أصبحوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم أصحاب الدولة الحقيقيون ، وأن العرب وغيرهم من أجناس الدولة الإسلامية كانوا رعايا لهم .

وكان الخلفاء - لكي يسيطرموا على الدولة فعلأً - قد استكثروا من أجناس غريبة عن العرب واتخذوا منها جندآ ، ومثال ذلك أننا نقرأ كثيراً عن المغاربة ، وأنا شخصياً أعتقد أننى أعرف تاريخ المغرب الإسلامي معرفة لا بأس بها ، ولكنى لا أعرف من هم المغاربة ، وهذا وغاية ما أستطيع قوله إنهم بربور كانوا يهاجرون إلى العراق ، ويدخلون جيوش دولة الخلافة ،

ويعتبرون أنفسهم جندها ، وكانوا يتقاضون رواتب كبيرة ، ولكن لم تكن لهم طموحات سياسية ، فكانوا يظلون جنوداً ، ويخرج أولادهم من الجيش ويتولون إلى عراقيين ، ولم يكن الترك جنساً واحداً بل أجناساً شتى ، كان يدخل فيهم الإيرانيون ، والطبريون ، وأهل طخارستان - وهم الأفغانيون اليوم - والأرمن المسلمون ، وأهل القوقاز - وهم المسمون الغز - ولكنهم كانوا جميعاً يتكلمون لغة واحدة ، ويررون أن واجبهم الأساسي هو إخراج العرب من جند الدولة ، وهذه هي نتيجة سياسة آل عباس ، فقد كانوا أنصاف عرب ، فمعظمهم أبناء أعجميات ، وأشكالهم غير عربية وإن كانوا يشعرون أنهم عرب، وإليك صفة من تاريخ الطبرى تشعر وأنك تقرؤها أن الخليفة المتوكى عربى ، ولكنه لا يحب العرب ، ولا يريد أن يراهم فى رياسته الدولة ، قال الطبرى (٩ / ٢٢٢) فى تفاصيل مقتل الخليفة المتوكى : (ذكر لي أن سبب ذلك أنه كان - المتوكى - أمر بإنشاء الكتب ببعض ضياع وصيف بأصبغات والجبيل وإقطاعها الفتح بن خاقان) فكتب الكتب وصارت إلى الخاتم على أن ينفذ يوم الخميس لخمس خلون من شعبان (سنة ٢٤٧ هـ / أكتوبر ٨٦١ م) فبلغ ذلك وصيفاً واستقر عنده الذى أمر به فى أمره ، وكان المتوكى قد أراد أن يصلى بالناس يوم الجمعة فى شهر رمضان فى آخر جمعة منه ، وكان قد شاع فى الناس فى أول رمضان أن أمير المؤمنين يريد أن يقضى عليهم ، فاجتمع الناس

لذلك واحتشدوا ، وخرج بنو هاشم من بغداد لرفع القصص وكلامه إذا ركب ، فقد كان يوم الجمعة أراد الركوب للصلوة ، فقال له عبيد الله بن يحيى والفتح بن خاقان : يا أمير المؤمنين ، إن الناس قد اجتمعوا وكثروا من أهل بيتك وغيرهم ، وبعض يتظلم ، وبعض طالب حاجة ، وأمير المؤمنين يشكو ضيق الصدر ووعكة ، وإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بعض ولادة العهود بالصلوة ..) فهل هذا خبر يستحق أن يرويه الطبرى ؟ يجوز إذا كان المراد بيان خضوع الخليفة لكل ما تقوله أمة الترك ، المهم أننا نرى هنا أن الأتراك يريدون بأى طريقة أن يحولوا بين الخليفة وبين الناس ، ولكن بقية رجال الدولة لم يكونوا أفضل من الترك ، ولم يكونوا كلهم عرباً ، بل كان فيهم أكراد وأرمن وروم ، وكانوا - كما قلنا - أنصاف رجال دولة وأنصاف لصوص .

ومن حسنات المتوكل أنه أوقف بدعة الكلام في القرآن ، قال اليعقوبي (٤٨٤ / ٤٨٥) : ونهى الم توكل الناس عن الكلام في القرآن من أهل البلدان ، و من أخذ في خلافة الواثق (أى من قبض عليه) فخلالهم جميعاً وكساهم ، وكتب إلى الآفاق كتباً نهى عن المعاشرة والجدل ، فأمسك الناس ، وبهذا انتهت هذه المعركة بانتصار الفقهاء ، ولم يكن ذلك ليهم الم توكل كثيراً ؛ لأنه في الواقع كان يكره الترك أكثر مما يكره الفقهاء ، وكان يريد أن

يقضى عليهم ، فاؤقت معركة ليبدأ معركة أخرى كان فيها حتفه .

ولم يحسن المتكفل القيام بمعاركته مع الأتراك لأسباب كثيرة ، أهمها سببان : الأول أنه كان صغير السن جداً ؛ إذ كانت سنّه لا تجاوز الثالثة والعشرين ، فكان في الحقيقة صبياً قليلاً التجربة . والسبب الثاني أنه لم يكن معه رجال يقومون بالمعركة ، فقام بها وحده وأنهزم وقتل .

وبعد أن تولى بسنوات قلائل احتياج إلى أموال ، ولم تكن هناك وسيلة للحصول على أموال إلا بالقبض على موظفين كبار واستخراج ما عندهم ، ووَقَعَت عيناً المتكفل على اثنين أخوين من كبار الموظفين هما عمر بن فرج الرخجي وأخوه محمد . والاثنان كانوا محبوبين بسبب السرقة ، ولكن محمد بن فرج الرخجي كان والي مصر قبل حبسه ، فوجئ المتكفل كتاباً إلى مصر بالقبض عليه . وقبض في الوقت نفسه على أخيه عمر واستخرجت منهما أموال كثيرة ، ثم احتاج المتكفل إلى رجلين : واحد لديوان الخراج ، والثاني لديوان الضياع . فلم يجد غير هذين اللصين فولاهما ، وليس هذا بغرير ؛ لأنهما وإن يكونا لصين فإنهما كانوا يعرفان كيف يستخرجان المال من الناس .

فغدا عليهم وولاهما . وفي السنة نفسها وهي ١٢٣٤هـ / ٨٤٨م قبض على موظف يسمى أحمد بن خالد المعروف بأبي

الوزير ، واستخرج منه أموالاً كثيرة بعد التعذيب ، ثم عفا عنه .
ولم يرض المتوكل عن أحمد وعمر الرخجيين ، فعزلهما وولي
مكانهما يحيى بن خاقان وموسى بن عبد الملك بن هشام ، وكانا
هما الآخرين محبوبين في أموال فعوا عنهم ، وولاهما ديوان
الخارج وديوان الضياع .

وكان المتوكل يفكر في وسيلة للإيقاع بالأتراك .

ولكنه شغل عن ذلك مؤقتاً بما كان من الكراهة بينه وبين
ابنه المنتصر ، وكان ولی عهده ، وكان اسمه محمداً ، وله ابنان
آخران هما أبو عبد الله المعتز بالله ، وإبراهيم المؤيد بالله ، وقد
أقام المتوكل لولاية العهد لأبنائه الثلاثة حفلاً عظيماً أنفق فيه
أموالاً جمة . ويبدو أن الترك أحسوا بما كان المتوكل يدبر لهم ،
فتقربوا إلى ابنه ولی عهده المنتصر ، ومضوا يدبرون معه
القضاء على المتوكل . ولم أجد في النصوص ما يمكن أن أعرف
به سبب الخصومة الشديدة التي كانت بين المتوكل وابنه
المنتصر ، ولكن الأخبار هنا مضطربة جداً ومحتلط بعضها
ببعض حتى ليصعب عليك أن تجد وجه الحق في أي شيء ،
والشيء الوحيد الثابت هو أن المتوكل كان وثيق الإيمان
بالإسلام ؛ فقد كان دائم الغزو للروم ، وكان لا يكف عن التنبية
على أن يلبس النصارى لبسًا خاصًا يميزهم حتى لا يختلط
أمرهم بال المسلمين ، وكان يصر - وأبوه - على أن يلبسوا الملابس

العسلية اللون وألا يركبوا الخيل ، ويدفعوا مالا كثيراً ، وقد أسلم الكثيرون منهم لتفادى هذا العذاب . كذلك غضب المتكول غضباً شديداً على ناس أخطأوا في حق أبي بكر وعمر ونفر من الصحابة . وقد اشتهر بذلك رجل يسمى عيسى بن محمد بن جعفر بن محمد بن عاصم صاحب الحانات . وجاء في كتاب المعتصم في جريمة هذا الرجل وأمثاله : « وما شهد به الشهود من شتم أصحاب رسول الله ﷺ ولعنهم وإكفارهم ورميهم بالكبائر ونسبتهم إلى النفاق وغير ذلك ، مما خرج به إلى المعاذنة الله ولرسوله ﷺ وتثبتك في أمر أولئك الشهود وما شهدوا به ، وما صح عنكم من عدالة من عدل منهم ووضح لك من الأمر فيما شهدوا به ، وشرحك ذلك في رقعة درج كتابك ، فعرضت على أمير المؤمنين - أعزه الله - فأمر بكتاب إلى أبي العباس محمد بن طاهر مولى أمير المؤمنين - أبقاءه الله - بما قد نفذ إليه مما يشبه ما عنده - أبقاءه الله في نصرة دين الله وإحياء سنته والانتقام من من أخذ حقه - وأن يضرب الرجل حدّاً في مجمع الناس حد الشتم خمسمائة ، وخمسمائة سوط بعد الحد للأمور العظام التي اجترأ عليها ، فإن مات ألقى في الماء من غير صلاة ؛ ليكون ذلك ناهياً لكل ملحد في الدين خارج من جماعة المسلمين ، وأعلمتك ذلك للتعرف إن شاء الله » (الطبرى ٩ / ٢٠١) .

ولم أعرف قط سبب كراهة المتكوك لابنه المنتصر إلى ذلك الحد الذي لا يصدق في الذي نقرؤه في المراجع ، ولقد قرأت في النصوص كثيراً من أخبار الكراهيّة بين الآباء والأبناء ، ولكن سأتيك الآن بنص من الطبرى؛ لترى شيئاً لا يصدق أبداً (الطبرى ٩ / ٢٢٥) : « فذكر عند هارون بن محمد بن سليمان الهاشمى أنه كان حدثنى بعض من كان في الستارة من النساء أنه التفت إلى الفتح فقال : بريئت من الله ومن قرابتى من رسول الله ﷺ إن لم تلطمـه (يعنى المنتصر) فقام الفتح ولطمـه مرتين يمر بيده على قفاه ، ثم قال المتكوك لمن حضر : اشهدوا جميعاً أنـنى خلصت المستعجل (يعنى المنتصر) ثم التفت إليه وقال : سميـتك المنتصر ، فسمـاك الناس لـحـمـقـكـ المـنـتـظـر ، ثم صـرـتـ الآنـ المسـتـعـجـلـ ، فـقـالـ المـنـتـصـرـ : ياـ أمـيرـ المـؤـمـنـينـ ، لوـ أـمـرـتـ الآنـ بـضـربـ عـنـقـىـ كـانـ أـسـهـلـ عـلـىـ مـاـ تـفـعـلـهـ بـىـ ، فـقـالـ : اـسـقـوـهـ ، ثـمـ أـمـرـ بـالـعـشـاءـ فـأـحـضـرـ ، وـذـلـكـ فـيـ جـوـفـ الـلـيـلـ ، فـخـرـجـ المـنـتـصـرـ مـنـ عـنـدـهـ وـأـمـرـ غـلامـ أـحـمـدـ بـنـ يـحـيـيـ أـنـ يـلـحـقـهـ ، فـلـمـ خـرـجـ وـضـعـتـ الـمـائـدـةـ بـيـنـ يـدـيـ الـمـتـكـوكـ ، وـجـعـلـ يـأـكـلـهـاـ وـيـلـقـمـ وـهـوـ سـكـرانـ . وـذـكـرـ عـنـ اـبـنـ الـحـفـصـ أـنـ الـمـنـتـصـرـ لـمـ خـرـجـ إـلـىـ حـجـرـتـهـ أـخـذـ بـيـدـ زـرـافـةـ فـقـالـ لـهـ : اـمـضـ مـعـىـ ، فـقـالـ : يـاـ سـيـدىـ ، إـنـ أـمـيرـ المـؤـمـنـينـ لـمـ يـقـمـ ، فـقـالـ : إـنـ أـمـيرـ المـؤـمـنـينـ أـخـذـهـ النـبـيـ ، وـالـسـاعـةـ يـخـرـجـ بـغـاـ وـالـنـدـمـاءـ ، وـقـدـ أـحـبـبـتـ أـنـ تـجـعـلـ أـمـرـ وـلـدـكـ إـلـىـ ؛ فـإـنـ أـوـنـامـشـ سـأـلـنـىـ أـنـ أـزـوـجـ اـبـنـهـ مـنـ اـبـنـتـكـ ، وـابـنـتـكـ مـنـ اـبـنـهـ ، فـقـالـ لـهـ زـرـافـةـ :

نحن عبيدك يا سيدى ، فمرنا بأمرك ، وأخذ المنتصر وانصرف
به معه . قال : وكان زرافة قد قال لى قبل ذلك : ارفق بنفسك ؛
فإن أمير المؤمنين سكران وال الساعة يضيق ، وقد دعاني مرة
وسألنى أن أسألك أن تصير إليه ، فنصير جمیعاً إلى حجرته .
قال : فقلت له : أنا أتقدنك إليه ، قال : ومضى زرافة مع المنتصر
إلى حجرته » .

وبعد ذلك بوقت قليل جداً . وفي نفس الليلة قتل المتكول .
قتله الأتراك ، والحقيقة أن هذا التعيس الذى كان يدبر القضاء
على الأتراك تلك الليلة شرب أربعة عشر رطلاً من الخمر . ولا
أدري ماذا يكون الرطل ، ولكن حتى لو قلنا : إنه كأس ، فإن
رجلًا يدبر قتل الأتراك جمیعاً والتخلص منهم ثم يشرب هذا
القدر من الخمر لا يمكن أن يكسب . وأننا أستنكر هنا من الطبرى
أن يذكر أن أمير المؤمنين المتكول شرب أربعة عشر رطلاً من
الخمر - في نفس الليلة التي كان ينبغي أن يكون فيها مجتمع
الرأى ، وأظن أن هذا يفسر لنا لماذا اعتدى المتكول على ابنه
المنتصر على الصورة المؤسفة التى رأيناها ، ولا شك كذلك فى
أن المنتصر قد اشترك مع الأتراك فى تدبیر قتل أبيه . وحتى ولو
لم يشترك فما نظن أن النهاية التى انتهى بها المتكول قد
احزنته .

على أى حال هذه صورة محزنة جداً : أن يصير أمر الخلافة
إلى ناس مثل المتكول والمنتصر . وهذا يؤكّد مرة أخرى ما قلناه

من أن الخلافة كان ينبغي أن تشرع وتقن وتنظم ؛ حتى لا تصير إلى الصورة المحزنة التيرأيناها ؛ لأن الموضوع هنا ليس موضوع من يتولى الخلافة وماذا يفعل بها ، ولكن الخليفة كان سيد هذه الدولة وببيده مصائر الناس . ومصائر الناس لا ينبغي أن تصير إلى مارأيناه .

ولكن الناس كانوا قد يئسوا من الخلافة من زمن بعيد ، وكان كل إنسان قد رتب أموره ؛ ليسير ب حياته وحياة أسرته دون اكتتراث للخليفة وما يمكن أن يعمله ، وأظن أنه لا ضير علينا في أن نقول ذلك ؛ لأننا في الحقيقة أمام دولة كبيرة هي دولة الإسلام ، ولا يجوز أن تدار دولة الإسلام على هذا النحو غير المسؤول . وقد قلت ذلك أكثر من مرة . ومن الغريب أن أحداً من مشرعينا قبل العصر الحديث لم يفكر فيه .

وأوربا نفسها كانت كذلك ، ولكنها بدأت تتغير من القرن السابع عشر ، فبدا الناس ينتبهون إلى أن العقل هو أساس حياة البشر ، وأن كل شيء لابد أن يخضع للعقل ، وشيئاً فشيئاً أخذ العقل يسيطر على حياة البشر في الغرب ، فأخذت حياة البشر تتغير ، ودخلت أوروبا في العصر الحديث بتأثير العقل ، والإسلام نفسه دين عقل ، وما كان المسلمون ليستطيعوا أن يتقدموا دون استخدام العقل ، وقد نبههم إلى ذلك رسول الله ﷺ ثم أبو بكر ثم عمر ، وتوقف العقل في أيام عثمان ، فوقع الشر

في حياة المسلمين ، وقد رأينا أحوالنا في العصور الوسطى كيف كانت .

وبطبيعة الحال لا نستطيع أن ن تتبع تاريخ المسلمين سنة بعد أخرى ، إنما نحن نضرب أمثلة فحسب . والغريب في خبر موت المตوكل الذي قصصنا قصته أن المتوكل الذي كان يدبر أمر القضاء على الأتراك كان لا يخطر بباله أن الأتراك قد يعلمون بما يدبر وقد يسبقون إلى قتله . هذا هو الذي حدث . إليك بقية الخبر - كما رواها الطبرى - لترى غفلة هذا الرجل السكران الذي غاب عنه أن الآخرين لهم عقول أيضاً ، وأنه كما كان يفكر في القضاء عليهم فهم يفكرون في قتله ، قال الطبرى (٩ / ٣٢٧) : فذكر عثثت أن أباً أحمد بن المتوكل أخا المؤيد لأمه كان معهم في المجلس ، فقام إلى الخلاء ، وقد كان بغاء الشرابي أغلق الأبواب كلها غير باب الشط ، ومنه دخل الرجال الذين عينوا لقتله ، فبصر بهم أبو أحمد فصاح بهم : ما هذا يا سفل ؟ وإذا بسيوف مستلته ، قال : وقد كان تقدم النفر الذين تولوا قتله بغلون التركي وباغر وموسى بن بغاء وهارون بن صوارتكين وبغا الشرابي ، ولما سمع المتوكل صوت أبي أحمد رفع رأسه فرأى القوم وقال : يابغا ، ما هذا ؟ هؤلاء رجال النوبة التي تبيت على باب سيدى أمير المؤمنين ، فرجع القوم إلى ورائهم عند كلام المتوكل لبغا ، ولم يكن واجن وأصحابه وولد وصيف

قد حضروا معهم بعد . قال عثث : فسمعت بغا يقول لهم : يا سفل . أنتم مقتولون لا محالة ، فموتوا كراماً ، فرجع القوم إلى المجلس ، فابتدره بغلون فضربه ضربة على كتفه وأذنه فَقَدَّهُ ، فقال : مهلاً ، قطع الله يدك ! ثم قام وأراد الوثوب به ، فاستقبله بضرب يده بالسيف فأبانها ، وترك باغر ، فقال الفتح : ويعلم ! أمير المؤمنين ، فقال بغا : يا أحمق لا تسكت ، فرمى الفتح بنفسه على المتكول ، فبجعه هارون بسيفه فصالح : الموت ! واعتوره هارون وموسى ابن بغا بأسيافهم فقتلاه وقطعاه ، وأصابت عثث ضربة في رأسه ، وكان مع المتكول خادم صغير فدخل تحت الستارة فنجا وتهارب الباقيون .

وهذه صورة بشعة لقتل خليفة ما كان يستحق أن يكون خليفة ، ولكننارأينا أنه صار ، فكانت خاتمته ما رأينا ، وقد رأينا كذلك كيف كان يعامل ابنه المنتصر معاملة آسفة فعلاً ، ولكن هذه صور نجد لها أمثلة كثيرة في كتب التاريخ عندنا .



الفصل التاسع عشر

لابد من التنبيه إلى .. السلبيات والإيجابيات

إن فيما أحسب أن أختتم هذه الدراسة - وهى لم تطل - ولكنني قلت فيما أرى الكفاية ، وأنا شخصياً وأنا أقرأ تفاصيل خلافة المنتصر بعد اشتراكه في قتل أبيهأشعر بأن الرجل أصيب باكتئاب ، وهذا طبيعي ؛ فإن قتل الإنسان لأبيه أو اشتراكه فيه أمر لابد أن يصاب نتيجة له بشيء نفسي ؛ ولهذا فأنا أحب أن أوفر على القراء عناء الاستمرار في هذه الدراسة ، ويكتفى أن القارئ عرف ما نريد أن نقوله منذ البداية ، وهو أن تاريخ المسلمين من أيام عثمان لم يعد تاريخاً ساراً أو جميلاً حقاً كانت فيه فتوحات وانتصارات ، ولكن الخلافة نفسها أصبحت أمراً لا يسر . فقد عاش المنتصر بعد موت أبيه ستة أشهر ، وتوفي مسموماً وهو في الخامسة والعشرين من عمره أو دونها ، وهي سن غير معقولة . وكان الرجل معظم الوقت مكتئباً بسبب وفاة أبيه ، ولا يمكن أن يقال : إنه كان يحكم ، إنما هو كان صناعة في أيدي الآتراك ، وكان كثير البكاء .

وعندما نصل إلى خلافة المستعين الذي تولى في ١٤ من ربیع الآخر سنة ٥٢٤٨هـ / ٨٦٢م نجد الخلافة قد أصبحت شيئاً غير معقول ، فأنكرها الناس وقاموا على الخليفة عندما قُتلَ في حرب الروم عدداً من المسلمين على رأسهم عمر بن عبید الله الأقطع ، وعلى بن يحيى الأرمي ، وكانا نابين من أئياب المسلمين ، شديداً بأسهما ، عظيماً غناوهما عنهم في الثغور التي هما بها ، وشق ذلك عليهم (على العامة) وعظم مقتلهمما في صدورهم على قرب مقتل أحدهما من مقتل الآخر ، ومع ما لحقهم من الآثار من مقتل المตوك ولائهم على أمور المسلمين وقتلهم من أرادوا قتلهم من الخلفاء من غير رجوع منهم إلى ديانة ولا نظر للمسلمين ، فاجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنداء بالنفير ، وانضم إليهم الأبناء والشاكريه تظهر أنها تطلب الأرزاق ، وذلك أول يوم في صفر ، ففتحوا سجن نصر بن مالك وأخرجوا من فيه وفي القنطرة بباب الجسر ، وكان فيها جماعة - فيما ذكر - من رفوع (أي نواح) خراسان والصعاليك من أهل الجبال والمحمرة وغيرهم ، وقطعوا أحد الجسرتين وخربوا الآخر بالنار ، وانحدرت سفنها ، وانتهيت ديوان قصص المحبسين ، وقطعت الدفاتر والقىت في الماء ، وانتهوا دار بشر وإبراهيم بن هارون النصراويين كاتبي محمد بن عبد الله ، وذلك كله بالجانب الشرقي من بغداد . (الطبرى ٩/ ٢٤٩) وهذا الخبر يدل على

شعور العامة بالخوف وإحساسهم بأنه لا توجد حكومة هناك تحميهم أو تحمى الإسلام ، وهذا أسوأ ما يمكن أن يصل إليه أمر الحكومة .

وفي صفر ١٢٥٢هـ / ٨٦٦م بدأت معركة أهل بغداد والعرب مع الأتراك وحلفائهم من المغاربة ، وقد تولى ذلك رجل يسمى محمد بن عبد الله ، فأحسن تسليح جنده وسار معه الفقهاء والقضاة ، فدعا الأتراك إلى التوقف عن التمادي في الطغيان واللجاج والعصيان وبعث لهم الأمان ، واشترط أن يكون أبو عبد الله المعز خليفة بعد المستعين فإن قبلوا وإن باكرواهم بالقتال ، وقد تجمعت معه الآلوف من أهل بغداد وجموع من الناس وأرعبوا الأتراك والمغاربة فلم يستطيعوا قبالتهم ، ولكن الأتراك مع ذلك ثبتو متمسكون بامتيازاتهم ، وقد سكت الناس عن قتالهم يوماً ، فلما أصرروا على امتيازاتهم نازلهم الناس وقتلوا منهم واستمر القتال .

وكان عدد القتلى والجرحى من الجانبين عظيماً ، وشيئاً فشيئاً بدأ الناس ينتصرون على الأتراك ، ثم دارت معركة مع أربعة آلاف تركى فانهزموا وقتل منهم فى الموقعة ألفان ، ومن ذلك الحين لم يعد الأتراك إلى الرياسة مرة أخرى ، ولكننا لكي نصل إلى هذه النتيجة ينبغي أن نقرأ أكثر من عشرين صفحة

من الطبرى كلها تفاصيل صغيرة وقليلة الأهمية ، وهى حافلة بأسماء أعلام غريبة لا يدرى الإنسان ماذا يفعل بها . والحق أننا نعجب بالطبرى على صبره فى روایة هذه الأحداث ، ولكن المعركة مع الأتراك والمغاربة لم تنته فى يوم أو شهر ، وإنما هي استمرت شهوراً ، ولكن محمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين تولاها ببسالة ومهارة وكسر الأتراك وقتل منهم ومن المغاربة مرة بعد أخرى .

ولكن ذلك القتال المتصل بين الأتراك والمغاربة والشاكيرية وأنصارهم من ناحية ورجال الخليفة المستعين من ناحية أخيه استمر حتى نهاية خلافة المستعين فى ذى الحجة سنة ٢٥١ هـ بل استمرت الفوضى بعد ذلك بعد أن بويع بالخلافة للمعتز .

وتستمر هذه الأخبار التى توقع فى النفس الملل يجعل الإنسان يحس أن التاريخ الإسلامى فقد شخصيته ورسالته ؛ لأن التاريخ إذا لم تكن له غاية أو روح أصبح حدثاً مكرراً معادلاً لا معنى له ، وهذا هو الذى أنتهى إليه أنا عندما أقرأ أمثال هذه الأخبار الطويلة المتشابهة المملة فى مراجعنا .

والحق أن تاريخنا فقد شخصيته وروحه منذ أصبح مجرد نزاع على السلطان فى ذاته ، لا شيء إذا لم تكن له رسالة ، والإسلام هو رسالة التاريخ الإسلامى ، وفي عالمنا اليوم أغنياء

يمكون الملايين ، ولكن حياتهم مملة ولا معنى لها حتى أن بعضهم يقتل نفسه ؛ ولهذا فإننى رأيت أن أقف عند هذا الحد من تاريخ بنى أمية وبنى العباس ، ويكتفى أننى صورت للقارئ خواص تاريخنا وفراغه مع أنه فى الحقيقة ينبغى أن يكون أقوى التاريخ ؛ لأنه تاريخ الإسلام ، والإسلام كله تقدم وخير .

وليس أدل على ذلك من خبر الأطروشى ، وهو الحسن بن محمد بن على بن الحسن بن الحسن بن على بن أبي طالب ، فهذا الرجل العلوى رأى أنه لا معنى لأن ينافس فى طلب الدولة الإسلامية ويحاول انتزاعها من بنى العباس ، ففعل ما فعله ابن عمه إدريس بن محمد بن على بن الحسن بن الحسن بن على بن أبي طالب ، عندما ذهب إلى بلاد البربر وأنشأ الدولة الإدريسيية خارج نطاق الدولة العباسية وخارج نطاق دولة بنى أمية فى الأندلس أيضاً ، وأخبار هذا الأطروشى قليلة ؛ لأن مؤرخينا يشغلون فى العادة بأخبار نزاع الترك والمغاربة والأشروستية على الخلافة ، وهو نزاع مرير وفارغ وبلا معنى ، ولكن الأطروشى تنبه إلى أن بنى العباس أهملوا فى نشر الإسلام فى نواحى طبرستان والبلاد الواسعة الواقعة بين نهر جيحون وبحر قزوين ، هناك بلاد واسعة دون إسلام ، مع أنها فى صميم بلد الإسلام ، فذهب فى سنة ١٥٣٠ هـ / ٩١٣ م إلى بلاد الديلم والجبل ، وهى التى نسميتها اليوم بلاد خوارزم ، وهى بلاد

واسعة وخصبة وغنية يسكنها ملايين الناس ، فرأى أن ينشر الإسلام فيها ؛ لأنهم كانوا أهل جاهلية ، بل كان فيهم مجوس يعبدون النار ، فاجتهد في نشر الإسلام في هذه النواحي ، وأنشأ دولة كبيرة تعتبر من أعظم دول الإسلام ، ولا تقارن إلا بالدولة الإدريسية . وأخبار هذه الدولة قليلة ؛ لأنها قامت في بلاد واسعة ، ولكن ليس فيها شعب قائم بنفسه يؤرخ لبلاده .

قال المسعودي في مروج الذهب (٤ / ٣٧٣) : إنها مواضع من بلاد الجبل والديلم في جبال شاهقة وقلع وأودية ومواضع خشنة على الشرك إلى هذه الغابة ، وبني في بلادهم مساجد ، وقد كان لل المسلمين بإزائهم ثغور مثل قزوين وشالوس وغيرهما من بلاد طبرستان ، وقد كان بمدينة شالوس حصن منيع وبنيان عظيم بنته ملوك فارس يسكن فيه الرجال المرابطون بإزاء الديلم .

ثم جاء الإسلام فكان كذلك إلى أن هدده الأطروشى . وكان بين الأطروشى والحسن بن القاسم الحسنى الداعى حروب على بلاد طبرستان ، فكانت بينهم سجالاً ، وكان الحسن بن القاسم الحسنى الداعى قد نزل الرى - وذلك سنة ٥٣١ هـ / ٩٢٩ م - في جيوش كثيرة من الجبل والديلم ، ومعه « ما كان بن كالى » الديلمى أحد فتاك الديلم ووجوهها ، فاختر عساكر نصر بن

أحمد بن إسماعيل بن أحمد صاحبه عنها ، واستولى عليها وعلى قزوين وزيغان وقم وأبهر وغير ذلك مما اتصل بالرى ، فكتب المقتدر إلى نصر بن أحمد بن إسماعيل بن أحمد صاحب خراسان ينكر عليه ذلك ، ويقول : إنى ضمنتك المال والدم ، فأهملت أمر الرعية وأضعفتها وأهملت البلد حتى دخلته المبعثة ، وأنزمه إخراجهم عنه ، فوقع اختيار نصر صاحب خراسان على اتفاق رجل من أصحابه من الجبل يقال لواحد منها أسفار بن شيرويه ، وأخرج معه ابن الحاج الجبلى فيمن معه من الجيوش إلى حدود الري ، فكانت الموقعة بين شيرويه الجبلى وبين « ما كان بن كالى » الديلمى فاستأمن أكثر أصحاب « ما كان بن كالى » الديلمى وقواده مثل مشير وتالجين وسليمان بن شركلة الإشكري ومراد الأشكري وفسونة بز أومرك فى آخرين من قواد الجبل ، فحمل عليهم « ما كان » فى نفر من الأتراك ، فولى « ما كان » ودخل بلاد طبرستان ، وانهزم الداعى بين يديه و« ما كان » على حاميته ، فلحته خيول خراسان والجبل والديلم والأتراك فيهم « أسفار بن شيرويه » ومضى « ما كان » لكترة الجيوش وانحاز الداعى ، وقد لحق بقرب « آمل » قصبة بلاد طبرستان إلى طاحونة هناك ، هنالك وقد تخلى عنه من كان معه من الأنصار فقتل هناك ، ولحق « ما كان » بالديلم ، واستولى أسفار بن شيرويه على بلاد

طبرستان وجرجان وقزوين وزیخان وأبهر وقم وهمدان والکرخ «الکرج أيضاً» لصاحب خراسان ، واستوثقت له الأمور ، وعظمت جیوشہ وكثرت ، ودعا أعوانه وتجر وشقى ، وكان لا يدین عمله الإسلام ، وعصى صاحب خراسان وخالف عليه ، وأراد أن يعقد التاج على رأسه وينصب بالری سريراً من ذهب للملك ، ويتملك على ما في يديه مما قد ذكرنا من البلاد ويحارب السلطان وصاحب خراسان . فسیر الحضور هارون ابن غریب فی الحال نحو قزوین فكانت له معه حروب ، وانكشف هارون وقتل من أصحابه خلق كثير ؛ وذلك بباب قزوین .. المسعودی ، مروج الذهب ٤ / ٣٧٤ - ٣٧٥ ويکفى هذا القدر من ذلك الخبر الهام ؛ لأنه طويل ، وهو مثال هام من أخبار هامة ورئيسية ، ونحن لا نعرف عنها شيئاً ؛ لأن الحقيقة أننا لا نعرف الكثير من حقائق تاريخ الإسلام ، فهذا تاريخ دولة إسلامية كبرى أدخلت في الإسلام ملايين البشر ومساحة ضخمة من هذه الأرض ، وقد أنشأها وقام عليها رجل واحد من الطالبيين وهو الأطروشی هذا . وقد لقب بالأطروشی لأنه كان قليل السمع ، أى أنه كان يعاني من ضعف سمعه ، ولكنه مع هذا استطاع أن يكمل مساحة الإسلام من هذه الناحية التي يقع فيها اليوم جزء كبير من بلاد ما وراء النهر وروسيا الإسلامية . فهذه بلاد خوارزم وطبرستان . بهذه المناسبة أحب أن أنبه إلى

أن الإسلام باقٍ في تلك البلاد إلى يومنا هذا؛ لأن الإسلام إذا دخل بلداً لم يخرج منه أبداً، الإسبان والكاثوليك لكي يتخلصوا من المسلمين أبادوهم بصورة بشعة، وهذه فضيحة من فضائح التاريخ، وما زال البشر يذكرونها إلى اليوم للإسبان أو قل للكنيسة الكاثوليكية؛ لأن تلك الكنيسة هي - دون شك - ألد أعداء الإسلام، وما زالت؛ لأنها زائفه - والإسلام حقيقة - ولكنها زيف مرتب منظم، أما نحن فعلى الرغم من أننا على الحق فإننا في فوضى دائمة، وفي اليوم الذي تتخلص فيه من الفوضى سنسود الدنيا، أقصد أن الإسلام دين الله، ولابد أن يعم الدنيا مهما كانت العقبات في طريقه.

وأقف هنا بهذه الدراسة، ويكفي أنني لفَتُ أنظار القراء إلى أن كتبنا الماضية فيها الكثير مما يسىء إلينا، ولابد من التنبيه إلى ذلك - لا أقصد بذلك أن تتدخل في النصوص؛ فإذا النصوص تراث، والترااث لا يمس - ولكن يكفي أن ننبه إلى مواضع الإساءة، ولابد أن نشير هنا إلى أن كتابنا الماضيين كانوا موضع إعجاب، فقد حفظوا في أذهانهم هذه الأخبار الكثيرة قبل أن يدونوها، ونحن اليوم لدينا الدفاتر والكراسات والبطاقات؛ لأن الورق رخيص وموجود في كل مكان. أما في الماضي فكان الورق غالياً - لم يكن موجوداً - وبعدهن مؤلفينا كانوا يصنعون الورق والجبر في بيوتهم، وكان الواحد منهم يجمع مواد صنع

الورق ويؤود عليها النار شهوراً حتى تنطبع وتصير عجينة ورق ، ثم يسطرونها على صفحات خشبية وينتظرون حتى تجف ، ثم يأخذونها ويكتبون فيها . وقد ألف بعضهم كتاباً في طرق صناعة الورق والحرير . وكان بودى أن أنشر واحداً منها ، ولكن عاقني عن ذلك كثرة المخطوطات للنص الواحد . وكان من المستحيل على جمع كل مخطوطات النص الواحد حتى يكون النشر علمياً .

ويكفى أن تنظر إلى كتاب مثل مروج الذهب الذى تقع نسخته المطبوعة فى أربعة أجزاء تضم الفاً وخمسمائة صفحة على وجه التقريب . وهذا الكتاب يضم من شتى المعلومات ما يحار له العقل ، فإن فى كل صفحة تقريباً خبراً مستقلاً ، والرجل ينتقل من خبر إلى خبر بسهولة ويسر ، وأنت لا تمل القراءة فيه أبداً : فهو متنوع ، وهو جميل وطريف ، ولا بد أن الله سبحانه وتعالى - قد يسر له ذلك لحكمة عنده . فهو - سبحانه - يريد أن نعلم بذلك كله حتى ننتفع به عندما تجيء ساعة نشر الإسلام فى الأرض كلها ، ولا بد من ذلك : لأن الله - سبحانه - يريد .

ونحن لدينا هن تاريخ الإسلام أربعة أصول قديمة هي على التوالى : تاريخ الطبرى ، ثم اليعقوبى ، ثم ابن الأثير ، وأبى

الغدا ، هذا عدا ما كتبه ابن خلدون - وهو عمدة مؤرخينا - وكان بعض الناس يقولون : إن ابن خلدون وضع فى مقدمته قواعد لم يطبقها فى تاريخه ، وهذا غير صحيح ، والسبب فى ذلك الخطأ هو أن أحداً لم يقرأ تاريخ ابن خلدون قراءة مدققة متفرصة ، وأنا - شخصياً قرأت تاريخ ابن خلدون كله ، فما عرفت مؤرخاً إسلامياً أرخ للرومانيين والروم والبيزنطيين ومذاهب اليهودية ثم المسيحية جميراً وتاريخ الفرس ، أى أنه المؤرخ العربي الوحيد الذى كتب التاريخ القديم كتابة صحيحة . أما تاريخه للمغرب والبربر وبني هلال وقبائلهم فشيء عجيب يدل على ذاكرة نادرة فعلاً .

أما الطبرى فهو عجيبة ، والمعلومات التى يسوقها فى تاريخه وتفسيره للقرآن شيء له العجب ، ونحن لا نطيق الصبر على قراءة كل هذه التفاصيل ، فما بالك بمن حفظها فى ذهنه أولاً ثم كتبها بهذه الدقة وذلك الشمول . وأنا قرأت الطبرى ، ولكن ينبغي أن أقرر أننا نحتاج إلى دراسة النص ، فهناك العشرات بل المئات من المصطلحات الإدارية والعسكرية والفنية نحن لا نعرفها ، ومن أسف أنه لم يبق لى من أيام العمر ما أتفقه فى التعرف على معانى هذه المصطلحات ، ولا أرى بين الشباب الجديد من أتصور أنه يصبر على مثل هذا البحث . على أى حال أنا أنبه ، وعليكم أن تنتظروا فى التنفيذ .

أما ابن الأثير فمؤرخ عجيب . إنه مؤرخ صحفي الروم . أى أنه مغرم بالبحث عن الأخبار وإيرادها ، وهو أحياناً يوجز كلام الطبرى ، ولكنه أصيل فى أحيان كثيرة ، وتاريخه الذى بين أيدينا ينتهى فى أواخر القرن السادس الهجرى . وهو أساسى ورئيسى بالنسبة للعصور القريبة من عصره .

أما أبو الفدا صاحب « المختصر فى أخبار البشر » فهو أمير أيوبى مؤرخ ، وهو يعترف بأنه أحياناً يوجز تاريخ ابن الأثير ، ولكنه أصيل فى أحيان كثيرة أخرى ، وإذا نحن تركنا جانباً الجزء الأول الخاص بتحديد السنين والإحصاءات لحوادث التاريخ القديم وأعمار الأنبياء فإن الباقي عظيم القيمة ، هو يصل بنا إلى أوائل القرن السابع الهجرى . ويكتفى لكي نعرف فضلـه أن نقول : إن أهل الغرب كانوا يقولون أحياناً : إن محمدـ^{صلوات الله عليه} أسطورة ، وحاشا الله أن يكون كذلك ، وهذا على مثال ما يقال عندـهم من أن السيد المسيح أسطورة ، فلما قرأ أحد المستشرقين السيرة الموجزة - كما أوردها أبو الفدا فى تاريخه - تبين أن رسول الله ^{صلوات الله عليه} شخصية تاريخية حقاً ، وأنه قام برسالته على النحو الذى يقصه المسلمون .



الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	تقديم
٧	الفصل الأول : بحسن نية أساء إلينا القدماء
١٩	الفصل الثاني : ابن هشام وما فعله بسيرة ابن إسحاق
٣١	الفصل الثالث : ابن هشام ، وما فعل بنصر ابن إسحاق
٤٣	الفصل الرابع : لماذا كان أجدادنا بعيدين عن الفكر السياسي السليم ؟
٥٣	الفصل الخامس : مؤرخونا القدامى وموافقهم من بنى أمية
٦٥	الفصل السادس : حيرة الناس عند مقتل عثمان .. وكان لابد من وضع نظام للخلافة
٧٧	الفصل السابع : كان لابد من وضع دستور لتنظيم تطبيق الخلافة
٨٩	الفصل الثامن : علينا أن ننبه الفراء إلى ضرورة البحث عن حقائق الأمور
١٠٣	الفصل التاسع : الجاحظ والفكر السياسي
١١٩	الفصل العاشر : أكدواية العباسة أخذ الرشيد مع جعفر البرمكي
١٣٣	الفصل الحادى عشر : لقد ظلمنا الأمين وأسألنا إليه لأنه عربي !
١٤٥	الفصل الثاني عشر : وتعصينا للمؤمنون لأن الدعاية الفارسية أرادت ذلك
١٥٧	الفصل الثالث عشر : لماذا لم ندرس تفاصيل المصراع بين الأمين والمؤمنون ؟
١٦٩	الفصل الرابع عشر : الأصول البعيدة لمحنة خلق القرآن
٨١	الفصل الخامس عشر : القول بخلق القرآن وسيلة للانتقام من الفقهاء
١٩٥	الفصل السادس عشر : لم ينتصر المؤمنون على الأمين .. وإنما انتصر الفرس على الاثنين
٢٠٩	الفصل السابع عشر : الفقهاء ينتصرون على الخليفة
٢٢٣	الفصل الثامن عشر : الخليفة المتوكل يكره ابنه المنتصر إلى درجة لا تصدق ! والمنتصر يشتراك في قتل أبيه
٢٢٥	الفصل التاسع عشر : لابد من التنبيه إلى .. السليبات والإيجابيات



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تفصية أصول

التاريخ الإسلامي

كتاب للأستاذ الدكتور حسين مؤنس يدق به ناقوس التنبية في عالم شغل عن كل شيء إلا عما يربطه بالملهيات والمغريات ، إلا أنه لايفقد الأمل في وجود من يستطيع القيام بالبحث والتدقيق في أصول التاريخ الإسلامي ليصحح ما يحتاج إلى تصحيح ، وتصفيية ما يحتاج إلى تصفيية مما شابه من عدم الدقة ، ومن سوق الأخبار على عواهنهما مما يمس إلى أمم الإسلام ، ويتيح الفرصة للمستشرقين ومن لف لفهم أن يطعنوا في الإسلام ودولته .

والكتاب وجهة نظر للكاتب تعرضاً كما هي ؛ لعلها تشحدن لهم ، وتدفع إلى التنقيب من أهل التنقيب والبحث ، وتصحيح ما قد يكون أساء إلى أمم الإسلام ودينها بالحجج والبرهان .
 والله من وراء القصد ، وهو نعم المول ونعم التصوير !!

الناشر

